

بسم الله الرحمن الرحيم

رواه المصنفون في المسند

معجم الجعلا

المجلد السابع

تأليف

سماحة الشيخ العلامة

أبو الله الحبيب السيد محمد بن الحسين الطهراني

الأصل المخطوط موجود في مكتبة المخطوطات

دار الكتب البيضاء



0104206



Bibliotheca Alexandrina

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُدًى لِلْعَالَمِينَ

مَعْرِفَةُ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَارِفَةِ
٣

مَعْرِفَةُ الْمَعَارِفِ

الجزء السابع

تَأْلِيفُ

سَمَاحَةِ الْعَلَمَةِ الرَّاحِلِ

آيَةَ اللَّهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِ الْحُسَيْنِيِّ الظَّهْرَانِيِّ

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تَعْرِيبُ

عَبْدِ الرَّحِيمِ مُبَارَكِ

عَلَّامِ الْغُيُوبِ الْبَيْضَاءِ

الحسيني الطهراني . السيد محمد الحسين . ١٣٤٥ - ١٤١٦ هـ . ق.
معرفة المعاد / المؤلف السيد محمد الحسين الطهراني . - بيروت:
دار المحجة البيضاء ، ١٤١٥ هـ . ق.
١٠ ج . ٢٤١ ص . - (دورة العلوم والمعارف الإسلامية : ٣)
الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ . ق.

العنوان

٢٩٧/٤٤

BP٢٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مؤسسة ترجمة ونشر «دورة العلوم والمعارف الإسلامية»

من بيانات

العلامة آية الله الحاج الشيخ محمد باقر الطهراني

دورة العلوم والمعارف الإسلامية (٣)

معرفة المعاد

الجزء السابع

المؤلف : سماحة العلامة الراحل آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني

الطهراني قدس الله نفسه الزكية

تعريب : عبد الرحيم مبارك

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هجرية قمرية

عدد النسخ : ٢٠٠٠

الناشر : دار المحجة البيضاء

تمت ترجمة وطبع هذا الكتاب بإشراف «مؤسسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلامية» من تأليفات العلامة آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني وجميع حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة . مشهد المقدسة - إيران ص . ب ٩١٣٧٥/٦١٤٩

الفهرست

فهرس مطالب وموضوعات
معرفة المعاد
الجزء السابع

المطالب	الصفحات
المجلس الثاني والأربعون :	
صحيفة الأعمال ، ومعنى وصولها من جهة اليمين أو من جهة الشمال	
الصفحة ٣ إلى الصفحة ٢٢	
يشمل المطالب التالية :	
٥ وصول صحيفة الأعمال من جهة اليمين أو من جهة الشمال	
٧ كتاب أصحاب الجنة يُعطى لهم من جانب السعادة	
١١ السعداء ذوو نور يوم القيامة	
١٣ في تفسير آية : مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ	
١٥ هيئة وجوه أئمة أهل النار ومأمومهم	
١٧ حقيقة الإمام المبين والكتاب المبين	
١٩ في الروايات الواردة في علم الإمام	

معرفة المعاد (٧)

الصفحات

المطالب

الدرس الثالث والأربعون :

الإمام المبين ، وكتاب التكوين ، ونسخة صحيفة الأعمال

الصفحة ٢٥ إلى الصفحة ٦٠

يشمل المطالب التالية :

- ٢٧ معنى كتاب التكوين ، والاستنساخ منه يوم المعاد
- ٢٩ لله تعالى ولاية لا إمامة
- ٣٣ الدعوة إلى الإمام هي غير الدعوة إلى الكتاب
- ٣٥ المخلصون لا يمتلكون صحيفة أعمال
- ٣٧ المخلصون والمقرَّبون مدهوشون في ذات الحق تعالى
- ٣٩ حالات فقر المخلصين والمقرَّبين وفنائهم
- ٤٥ الأشتياء الذين لا يُعطون كتاباً
- ٤٧ موارد حبط الأعمال وانتفاء صحيفة الأعمال
- ٤٩ أحكام المرتدِّين وذوي الأعمال الحابطة
- ٥١ حبط الأعمال هو عاقبة التكذيب بآيات الله عزَّ وجلَّ
- ٥٧ نتيجة الأعمال ملازمة للنفس ؛ والكتاب هو عين العمل

الدرس الرابع والأربعون :

الشهادة على الأعمال ؛ ومواصفات الشهود

الصفحة ٦٣ إلى الصفحة ٨٦

يشمل المطالب التالية :

- ٦٥ الشهادة تعني الحضور ، ولها مرحلتان
- ٦٧ شرائط تحمّل الشهادة ثم أدائها
- ٦٩ الشهوداء على الأعمال مطلعون على النوايا
- ٧١ الشهوداء يجب أن يكونوا صادقين في شهادتهم

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب	الصفحات
أُتْمَةُ الْبَاطِل لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الشَّهَادَةِ	٧٣
الْمُؤْمِنُونَ الْحَقِيقِيُّونَ وَاقِفُونَ عَلَى أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ	٧٥
قُلُوبُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ يَقْظَةُ عَلَى الدَّوَامِ	٧٧
شَهَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ هِيَ شَهَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ	٧٩
قِصَّةُ الْحَاجِّ عَبْدِ الزَّهْرَاءِ الْكُرْعَاوِيِّ	٨٣

الدرس الخامس والأربعون :

شرط الشهادة : الإحاطة العلمية بالمخفيات

الصفحة ٨٩ إلى الصفحة ١٠٧

يشمل المطالب التالية :

٩١	فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الشَّرِيفَةِ : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
٩٣	فِي الْخُطَابَاتِ الْعَامَّةِ ذَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْخَاصَّةِ
٩٥	فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الشَّرِيفَةِ : هُوَ أَجْتَبَيْكُمْ
٩٧	مَعْنَى دَعَاءِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ لَذَرِيَّتِهِ
٩٩	اصْطِفَاءُ ذَرِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أَعْمَالِ النَّاسِ
١٠١	الْأُتْمَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُمُ الشُّهُدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
١٠٥	رَسُولُ اللَّهِ يَشْهَدُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ يَشْهَدُونَ عَلَى أُمَمِهِمْ
١٠٧	شَهَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ وَالْأُتْمَةِ تَبَعًا لِاخْتِلَافِ الْمَرَاتِبِ

الدرس السادس والأربعون :

شهادة الملائكة على الإنسان في يوم القيامة

الصفحة ١١١ إلى الصفحة ١٣٤

يشمل المطالب التالية :

١١٣	الْأَصْنَافُ الْمُخْتَلِفَةُ لِمَلَائِكَةِ الشَّهَادَةِ
-----	---

معرفة المعاد (٧)

الصفحات	المطالب
١١٥	اختلاف الأفراد ودرجاتهم بلحاظ الأعمال ودرجات الذنوب
١١٧	درجات الذنوب ومراتب التوبة تبعاً لاختلاف درجات الأفراد
١١٩	الذنوب التي لا يمكن الاطلاع عليها حتى من قبل الملائكة المقربين
١٢١	ملائكة الليل وملائكة النهار
١٢٣	عالم التكوين يقظ ومراقب وحفيظ
١٢٥	أشعار الشيخ بهاء الدين العاملي في الابتغال إلى الله تعالى
١٢٩	لقاء كريمة آية الله الأراكي إمام العصر عليه السلام
١٣١	العواقب الوخيمة للغفلة عن صحيفة الأعمال

الدرس السابع والأربعون :

شهادة الأعضاء والجوارح يوم القيامة

الصفحة ١٣٧ إلى الصفحة ١٦٦

يشمل المطالب التالية :

١٣٩	علّة الختم على الأفواه وتكلم الأيدي يوم القيامة
١٤١	حقيقة معنى الكلام هي إبراز ما في الضمير
١٤٣	معنى تكلم الله مع موسى عليه السلام
١٤٥	شهادة الأعين والآذان والجلود يوم القيامة
١٤٧	شهادة الأعضاء والجوارح مختصة بأعداء الله
١٤٩	الأعضاء والجوارح ذات حياة وشعور وإدراك
١٥١	جميع الموجودات ذوات حياة وعلم وقدرة
١٥٥	علم الإنسان بحقائق الموجودات علمٌ محدود
١٥٧	قصة الحاج الشيخ إسماعيل الجابلي في طريق مشهد
١٦١	ليس هناك من مطلع على الحقائق والأسرار غير علام الغيوب
١٦٣	الحياة والعلم والقدرة موجودة في جميع الموجودات في حدّ واحد

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب الصفحات

١٦٥ شهادة الأعضاء والجوارح يوم القيامة مختصة بأصحاب النار

الدرس الثامن والأربعون :

شهادة الزمان والمكان يوم القيامة

الصفحة ١٦٩ إلى الصفحة ١٩١

يشمل المطالب التالية :

- ١٧١ الجمادات ذات شعور ، وستشهد يوم القيامة
- ١٧٥ الزمان والمكان يقظان وذوا فهم وشعور
- ١٧٧ الروايات الواردة في شهادة الزمان والمكان
- ١٧٩ أثر التوبة في استتار الذنوب
- ١٨١ دعاء أمير المؤمنين حسب نقل ميثم التمار
- ١٨٣ كلام أمير المؤمنين مع البثر خارج مدينة الكوفة
- ١٨٥ الحجر الأسود ذو شعور وإدراك
- ١٨٧ رواية الإمام الصادق عن الحجر الأسود
- ١٨٩ نورانية الزمان والمكان تابع لنورانية أهلها

الدرس التاسع والأربعون :

شهادة القرآن والأعمال يوم القيامة

الصفحة ١٩٥ إلى الصفحة ٢١٣

يشمل المطالب التالية :

- ١٩٧ في تفسير آية : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا
- ١٩٩ معنى إحياء الله للأرض لأداء الشهادة
- ٢٠١ شهادة الصلاة والصيام يوم القيامة
- ٢٠٣ تخطي القرآن صفوف الخلائق يوم القيامة

معرفة المعاد (٧)

المطالب	الصفحات
القرآن هو الكتاب الواقعي الوحيد لهداية البشرية	٢٠٧
شكوى القرآن والمسجد والعتره يوم القيامة	٢١١

الدرس الخمسون :

معنى شهادة القرآن والأعمال يوم القيامة

الصفحة ٢١٧ إلى الصفحة ٢٣٦

يشمل المطالب التالية :

٢١٩	حالة التجرد التي تحصل من خلال العبادة والتفكير
٢٢١	أرجحية المؤمن على القرآن والكعبة
٢٢٣	أمير المؤمنين هو تجسد الصلاة والقرآن
٢٢٧	المقام اللامتناهي لأمير المؤمنين عليه السلام
٢٣١	أشعار الشيخ كاظم الأزرعي في أمير المؤمنين عليه السلام
٢٣٣	من هم أصحاب القرآن ؟ ومن هو المؤمن الحقيقي ؟
٢٣٥	الأصناف المختلفة لمدعي الهدى ؛ علامة معرفة ولي الله

فهرس تأليفات المؤلف

٢٣٩

الْمَجْلِسُ الثَّانِي وَالْآنَ يُعَوَّنُ

صَحِيفَةُ الْأَعْمَالِ، وَمَعْنَى وَصُولِهَا مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ
أَوْ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءِثْرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ^١
تقول الآية الكريمة : بالإضافة إلى أنا سُحِّي الموتى ونبعثهم يوم
القيامة ، ندوّن ما قدّموا من أعمال وآثار ، ونُحْصِي في إمامٍ مبين كلّ ما
يمكن تسميته شيئاً ، فهو أيضاً محسوب ومحفوظ عندنا بخصائصه العددية
والكمّية والكيفيّة .

ولدينا في القرآن الكريم آيات ذات دلالة على أنّ فرقة من الناس
تُعْطَى كتابها بيمينها ، وأُخْرَى تعْطَى كتابها بشمالها .
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ
فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ

١- الآية ١٢ ، من السورة ٣٦ : يس .

فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ ١.

لقد خُيِّلَ لكم أيُّها المتمردون والمنكرون أنه يمكن الركون والإخلاد إلى هذه الدنيا التي مرّت وانقضت أيتامها؛ فإذا هي جوفاء خالية منكم ومن كلّ شيء كان فيها. إذ لم تكن إلّا وعاء لتربيّتكم وتكاملكم، وها هي قد تركتكم وأوصلتكم إلى هذا المقام والموقف. أمّا أنتم - أيُّها الواعون - فنهنيئاً لكم إذ لم تركنوا إليها، ولم تخلدوا إلى ذلك الوعاء، بل تجهّزتم وأعددتم زاد السفر إلى هذا المنزل الركين الأمين.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي * وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِي * يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي. ٢

وأما الأشقياء الذين يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم، فيتمنون أن لم يكونوا يؤتون كتابهم ولا يدرون ما حسابهم، فيقولون: يا ليت الموتة الأولى كانت القاضية علينا ولم يبق أيّ أثر ممّا لنقف هذا الموقف ونشاهد ما نشاهد، ويتحسّرون لخيبة سعيهم في الدنيا، حيث بذلوا كلّ جهدهم لتحصيل المال والسلطان، فلا المال الذي جمعه ولا السلطان يدفعان عنهم العذاب الآن. لقد شاهدوا عدم نفع المال وبطلان السلطان.

فيأتي أمره سبحانه لملائكة العوالم العلوية والأرواح القدسيّة بالنسبة إلى أولئك الأشقياء العصاة، الذين اتّخذوا المال والسلطان وسيلة للفساد والبغي والظلم، وتجاوز صراط العدالة السويّ بالتعدي على حقوق الضعفاء والفقراء ... فيخاطبون ملائكة العذاب قائلين:

١- الآيات ١٨ إلى ٢٤، من السورة ٦٩: الحاقة.

٢- الآيات ٢٥ إلى ٢٩، من السورة ٦٩: الحاقة.

خَذُوهُ فَعْلُوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ *
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ.^١

إنهم الذين أهدروا ثرواتهم الوجودية في الحياة ، بانشغالهم بالذنوب
والمعاصي واستنادهم على الغرور والاستكبار ، ولما كانوا لا يؤمنون بالله
العظيم ولا يخضعون لأوامره وأحكامه إذ يعتدون على الضعفاء
والمحتاجين وينهبون حقوقهم ، ولما كانوا لا يحرضون على طعام
المساكين ولا يشركونهم في مآذهم ولا يهتمون برعايتهم وتفقد أحوالهم
المادية والمعنوية ، فليس لهم اليوم ها هنا طعام إلا الغسلين من القبح
والدم ، وهو طعام الخاطئين المتلبسين بالشهوة والغضب .

إن الذين لا يؤمنون ويرتكبون المفساد يبتلون بأمرين : باطني
يتمثل في فساد قلبهم ، وظاهري يتجسد في فقدان العدالة بين المستضعفين
والفقراء .

وهذا الغضب لحقوق المحرومين والاعتداء على الفقراء والمساكين ،
والتمتع - أمام أنظارهم - بالعيش المرفه سيظهر بعينه في الآخرة بمثابة
الغسلين والأكل من الصيد والدم .

وصفوة القول إن هذه الآيات المباركة قد قسّمت الناس إلى
طائفتين ، طائفة يُعطون كتابهم بيمينهم ، وطائفة يُعطون كتابهم بشمالهم .
وعلينا أن نرى ما معنى اليمين والشمال ؟

يُطلق تعبير اليمين والشمال في اللغة على طرفي الإنسان القوي

١- الآيات ٣٠ إلى ٣٧ ، من السورة ٦٩ : الحاقة .

معرفة المعاد (٧) صحيفة الأعمال ، ومعنى وصولها من جهة اليمين أو من جهة الشمال

منهما والضعيف ؛ أو على اليمين بلحاظ القوة والضعف ؛ أو على جهة الخير والسعادة وجهة الشقاء والتعاسة ، إلا أنّ من المسلّم في هذه الآيات أنّ المراد باليمين والشمال جهة السعادة والخير وجهة الشقاء والخسران والحرمان على الترتيب .

وباعتبار أنّ اليمين تعني في العربية التفاؤل بأمور الخير والسعادة والعافية والرحمة والبركة ، وأنّ الشمال تعني التشاؤم بالمصائب والذلّ والهوان ، فقد كُنّي عن اليمين والشمال بجهتي السعادة والشقاء ، فصارت كتبهم تصلهم من جهة السعادة والرحمة والعافية والسلامة ، أو من جهة الشقاء والذلّ والنكبة .

وقد اعتبرت طائفة كبيرة من المحدثين والمفسرين اليمين والشمال في هذه الآيات بمعنى اليد اليمنى واليد اليسرى ، وقالوا بأنّ المراد هو أنّ أهل الجنة يُعطون كتبهم في أيّمانهم ، وأهل النار يعطون كتبهم في شمائلهم ؛ وهو تفسير غير صحيح لعدة أسباب :

أولاً : وكما اتّضح خلال الأبحاث والفصول السابقة ، فالكتاب ليس بصحيفة ورقية يُعطى في يد الإنسان ، وليس صحيفة مكتوبة مطوية يمكن للإنسان تسلّمها بيده ، بل إنّهُ يمثّل حقائق الأعمال التي قام بها الإنسان في دنياه ، كما أنّ استلام الكتاب بمثابة سيطرة الإنسان الروحية التي تحصل له خلال مرحلة البقاء بالله بعد تخطيه مرحلة الفناء في الله تعالى ، إذ يجد المرء في مرحلة البقاء سيطرة وإحاطة بعالم الكثرة تجعله يُهيمن على جميع وجوده في الدنيا بتمام أخلاقه وملكاته وسيرته الظاهرية والباطنية ، فتصبح بأجمعها محسوسة لديه وملموسة ومشهودة ، بل إنّهُ يجد نفسه ويدركها بالوجدان في حال انشغالها بفعل تلك الأعمال .

وعلى هذا الأساس فليس هناك ثمة كتاب يُعطى للمرء في يده ،

يُضاف إلى ذلك أن الآيات القرآنية تعتبر عن إعطاء الكتاب بتوفية الأعمال : **لِيُؤْفِقَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ** ؛ وهو توفية كل نفس أعمالها التي فعلتها في الدنيا بجميع جهاتها الواقعية ، فترد إليها نفس تلك الأعمال بفعليتها . فلا علاقة - إذاً - للأمر باليد . كما أن هناك أعمالاً فعلها الإنسان بعينه ، وعمل العين لا يُعطى باليد ، وعمل الأذن واللسان لا يُعطى باليد ؛ وكذلك الأمر في عمل الرجل .

ثانياً : أن الآية تقول : **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** ؛ والباء في الآية باء السببية . أي من يُعطى كتابه بجهة اليمين ، ولو كان تعبير الآية القرآنية : **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ لِيَمِينِهِ** لكان معناه أنه سيُعطى كتابه بيده اليمنى . وباء السببية تستخدم للتوسط والجهة ، أي الذين يُؤتون كتابهم من جهة اليمين وبسبب اليمين ، كنايةً عن السعادة ؛ والذين يُؤتون كتابهم من جهة اليسار ، إشارة إلى جهة الشقاء التي تلحقهم ، ولا علاقة للأمر باليد اليمنى أو اليسرى .

ثالثاً : ما جاء في الآيات القرآنية :

**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *
وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ
يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا^١**

التي تشبه مفاداً ومضموناً الآيات التي أوردناها من سورة الحاقة ؛ كل ما في الأمر أن جملة **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ** قد جاءت هنا بدلاً من جملة **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ** .

ونظراً لمقابلة لفظ **بِشِمَالِهِ** للفظ **بِيَمِينِهِ** في الآية السابقة ، ولمجيء

١- الآيات ٧ إلى ١٤ ، من السورة ٨٤ : الانشقاق .

معرفة المعاد (٧) صحيفة الأعمال ، ومعنى وصولها من جهة اليمين أو من جهة الشمال

لفظ وَرَاءَ ظَهْرِهِ مقابل لفظ يَمِينِهِ في الآية اللاحقة ؛ فَإِنَّ معنى بِشْمَالِهِ سيكون وَرَاءَ ظَهْرِهِ . أي أَنَّهُ سَيُعْطَى كِتَابَهُ وراء ظهره وليس بيده اليسرى ، وإعطاء الكتاب من الخلف كناية عن الشقاء والتعاسة ، وهو بعينه معنى إعطاء الكتاب بشماله .

ولدينا - من جهة أخرى - أَنَّ الأفراد يحشرون يوم القيامة مع إمامهم الذي اتبعوه في الدنيا وجعلوه قدوةً لهم ، سواء كان من أئمة العدل أو من أئمة الظلم . وسيحشر أولئك الأئمة إلى الجنة أو النار ، فيحشر معهم أتباعهم ورعاياهم ويلحقون بهم إلى الجنة أو إلى النار .

وسنبحث في هذا الأمر إن شاء الله تعالى مفصلاً في بحث الشفاعة ، استناداً على الآيات القرآنية ، ونبين كيفية الحقوق بالأئمة والقادة يوم القيامة ودخول الجنة أو النار ، علماً بأن الروايات الواردة في هذا المجال روايات شتقة ومتضمنة للكثير من المعارف . أمّا في هذا المجال فستتطرق لذكر بعض المطالب في بيان كيفية الكتاب ؛ فقد ورد في القرآن الكريم :

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا^١

أي أَن من لم يفتحوا أعين بصائرهم في الدنيا ، فقضوها عُميةً لا يبصرون شيئاً من الأمور المعنوية ، أسرى شهواتهم وهواجسهم النفسانية ، سيكونون في الآخرة عُميةً ، لا يهتدون سبيلاً .

وقد وردت في هذه الآيات عبارة وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا بدلاً من عبارة مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشْمَالِهِ ، أي أَن

١- الآيات ٧١ و ٧٢ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

الشمال المقابل لليمين ليس إلا الشقاء وعمى الباطن الضلال . تقول الآيات : إنا ندعو كل جماعة بواسطة إمامهم ، وإن كتاب من يُعطون كتابهم من جهة أيمانهم كذا وكذا ... فالإمام - إذأ - غير اليمين وجهة السعادة ، وغير الكتاب وصحيفة الأعمال . وسيُدعى السعداء بواسطة إمامهم ، فيصلهم كتابهم من جهة سعادتهم ؛ ومثل الإمام مثل المغناطيس الذي يجذب - ضمن مجاله المغناطيسي - جميع الأشياء المماثلة لطبيعته ، وكما يجتذب المغناطيس ذرات الحديد ولا يجتذب ذرات النحاس والنيكل والخارصين ، فإن أئمة الحق والعدل يجتذبون أتباع الحق والعدل ، أما أئمة الباطل فيجتذبون المنحرفين المعتدين أتباع الباطل .

ذرّه ذرّه كاندرين ارض و سماست

جنس خود را همچو كاه و كهرباست

معهه نان را می کشد تا مستقرّ

می کشد مرآب را تفّ جگر

چشم جذّاب بتان زین کویهاست

مغز جویان از گلستان بویهاست

ز انكه حسّ چشم آمد رنگ كش

مغز و بینی می کشد بوهای خش^١

١- «مثنوی» ج ٦ ، ص ٦٠١ ، السطر ١١ إلى ١٥ ، طبعة ميرخاني .

يقول : «كلّ ذرّة في الأرض والسماء تجذب نظائرها كما تجتذب الكهرياء القشّ .

المعدة تجذب الخبز إلى داخلها ، وحرارة الكبد تجتذب الماء إليها .

والعين تبحث عن الحسان المعبودين ، أمّا العقل فيفتش عن روضة العطور .

ذلك لأنّ حسّ البصر يجتذب الألوان إليه ، بينما الأنف والعقل يجتذبان العطور

الفوّاحة» .

زين كَششها اي خدای راز دان

تو به جذب لطف خودمان ده امان^١

وبينما يختلط الجميع في عالم الكثرة والاعتبار في الهيئة الظاهرية ، فإنهم يفترقون - بلحاظ النزعات الباطنية - إلى طوائف وفرق وملل متفاوتة ، فتتبع كل طائفة إماماً معيناً . وسيدعو الله تعالى يوم القيامة - الذي تبرز فيه الحقائق وتتجلى - كل طائفة بإمامهم ، فيصل كتاب السعداء إليهم من جهة السعادة ، ويُدعون بواسطة إمام الحق والسعادة . أما الأشقياء فيصلهم كتابهم من جهة الشقاء ، ويدعون بواسطة إمام الباطل والشقاء .

ومن هنا فإن إمام الحق السعيد له صفة السعادة وهي اليمين ، وهذا اليمين (أي السعادة) هو نعت الإمام وصفته . لذا فإن تفرّيع فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ هو تفسير لـ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنْاسٍ بِإِمْئِهِمْ .

تقول الآية : إِنَّ الْإِمَامَ بِاعْتِبَارِهِ يمثل مركز اجتذاب مَنْ يشاكلونه ويماثلونهم في السخية ، فإنَّ مَنْ لهم سَخِيَّة مشهودة في الرحمة والعافية سيدعون بواسطة إمام الحق . أما إمام الباطل الجائر الشقي ، فإنه سيدعو بصفة الشقاء من يشاكله ويجانسه فيجمعهم حوله .

تقول الآية : بِإِمْئِهِمْ ولا تقول إلى إمامهم . كما تقول في شأن الكتاب : كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا^٢ فلا تستخدم تعبير بكتابها . فهي - إذاً - قد استعملت باء السببية بالنسبة إلى الإمام ، بينما استعملت لفظ إلى بالنسبة إلى الكتاب . فتكون الدعوة بالإمام غير الدعوة إلى الكتاب .

١- يقول : «فيا إلهي ! يا عالم السرّ والخفيات ! آميناً بجذبة لطفك من هذه الجذبات والنزعات» .

٢- الآية ٢٨ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

ويستفاد من ورود جملة وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى في الآية الواردة في سورة الإسراء بدلاً من جملة وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَنَّ أصحاب الشمال لا نور لهم في الآخرة، وأنهم وإمامهم عُمَي لا يبصرون، التابع والمتبوع من أهل الشقاء عُمَي بأجمعهم. التابع والمتبوع كلهم يذهبون إلى جهنم. العالم هناك بالنسبة إلى الأشقياء عالم العمى وفقدان البصيرة والضلال وانعدام النور، وعالم الحرمان من التطلع إلى آيات الله وجماله. وقد تكرر في القرآن الكريم تعبير «ضَلَّ» بالنسبة إلى أهل الشقاء؛ أي أنهم سيضيعون ويفنون ويعجزون عن المقاومة في عالم الأنوار.

وقد جعل العُمَي في هذه الآية مقابل أصحاب اليمين ليفهم أن أصحاب اليمين هم أصحاب النور والبصيرة في عالم المعنى والتجرد، إذ إنهم امتلكوا البصيرة في الدنيا، وستجلى هذه البصيرة فيهم يوم القيامة في هيئة إبصار ملكوتي. وحين تشرع في التفصيل فتذكر أن السعداء يُساقون إلى السعادة بواسطة إمامهم، وتُجعل - في المقابل - على الأشقياء يوم القيامة إمام الباطل وكتاب عماهم، كتاب الشقاء، فيتضح بجلاء أن أئمة الباطل لا نور لهم.

السعداء ذوو نور، والأشقياء والضالون ذوو عَمَى وظلمة، سواء في ذلك إمامهم ومأمومهم.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^١، إلى أن يصل إلى الآية الشريفة:

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ

١- الآية ١٢، من السورة ٥٧: الحديد.

معرفة المعاد (٧) صحيفة الأعمال ، ومعنى وصولها من جهة اليمين أو من جهة الشمال

رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ^١.

والمراد بالنور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين ويوصلهم من جهة أيماهم (أي من جهة السعادة) : أئمتهم الذين يحصلون بواسطتهم على النور الذي يهتدون به في طريقهم ، ويقومون - على ضوء هُده - بجميع أعمالهم الصالحة في الدنيا .

فأئمة اليمين - إذاً - هم أئمة الرحمة والكرامة والفضل والسعادة والنور ؛ أمّا أئمة الشمال فأهل الظلمة والنكبة والذلّ والعمى والمحنة . والناس طائفتان ، طائفة تتجه نحو السعادة فتصبح أصحاب اليمين ، وأخرى تتجه نحو الشقاء فتصبح أصحاب الشمال العمي الذين يُعطون كتابهم من وراء ظهورهم ، فتتصاعد صرخاتهم بالويل والثبور ، ثمّ يقدمون إلى جهنّم فيصلّونها داخرين .

في تلك الجهة أناس تسعى بين أيديهم أشعة النور فتضيء طريقهم إلى الجنة ؛ وفي هذه الجهة ظلّمت بعضُها فوق بعض^٢ ، وأناس غارقون في الظلمات المتراكمة الثقيلة ؛ وكلّ يقتفي أثر إمامه ويلحق به .

وقد ورد التعبير في سورة الواقعة (٥٦) بِأَصْحَابِ الشِّمَالِ مقابل أَصْحَابِ الْيَمِينِ السعداء :

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ... وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ، كما ورد التعبير عنهم أحياناً بأصحاب المشأمة والنكبة : وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وأحياناً أخرى بأهل الكذب والضلال :

١- الآية ١٩ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٢- الآيات ٩٠ إلى ٩٤ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

في تفسير آية : مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ

المجلس ٤٢

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ * فَتَزَلَّ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ
جَحِيمٍ .^١

فالمكذب هو الذي يعقل ويكذب ، أما الضال فهو غير المهتدي ،
الذي لا حظَّ له من عالم الحقائق ، ولا سبيل له إلى نشأة الأنوار .
المكذبون الضالون وأصحاب الشمال وأصحاب المشأمة هم - إذاً -
طائفة واحدة ، وهم الذين عجزوا عن السير قدماً في عالم الحقائق ، والذين
انغمروا في عالم الآراء والأفكار الشيطانية ، وانصرفوا إلى متعهم منساقين
بالهوس النفساني والغفلة . وسيضيع أمثال هؤلاء في غمرتهم ويموتون
ويدفنون هناك . ألم نقرأ عنهم في سورة الحاقة :

مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ؟

فهؤلاء هم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة الذين اعتمدوا في
الدنيا على ثرواتهم وقومهم وعشيرتهم ، واتكّلوا على المقام والسلطة
والرعيّة والجيش والدرهم والدينار ، خُيِّلَ لهم أَنَّ عالم الاعتبار موصول
بذلك العالم ، وأنَّ ما يعتمدون عليه هنا سينفعهم هناك ، وأنَّي لذلك أن
يتحقّق ، لأنَّ هذا العالم عالم الاعتبار ، أما ذلك العالم فعالم الحقيقة ؛ وهما
عالمان متعاكسان متضادّان .

هذا العالم عالم المجاز ، أمّا ذاك فعالم الواقعيّة ؛ ومن هنا فإنَّ الموقع
الذي كسبه الإنسان هنا سيضيع ، والدرجة التي اتخذها لنفسه ستضلّ ، لأنَّها
لا تمتلئ سبيلاً إلى تلك النشأة الأخرى . كما أنَّ الملايين التي حصل عليها
هنا سوف لن يحمل منها - ولن يقدر أن يحمل منها - ذرّة واحدة ، كما أنّه

١- الآيات ٩٠ إلى ٩٤ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

معرفة المعاد (٧) صحيفة الأعمال ، ومعنى وصولها من جهة اليمين أو من جهة الشمال

لن يستطيع أن يصطحب معه ناصراً واحداً عند مجيء عزرائيل ، أو أن يستعين به على أقل تقدير ، ولو ناصره في هذه النشأة جميع أهل العالم .
وستراهم يعترفون آنذاك : مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ .

ثم إن هذه الطوائف ستلحق بأئمتها مع جميع خصوصياتها ، فيلحق المؤمنون بأئمتهم الذين يسرون في عالم النور بأعين قريرة ، متجهين إلى عالم الحقيقة .

فالمؤمن حين يتحرك في الدنيا ، فإنما يتحرك وباطنه متجه إلى الله تعالى ، وحين يقوم بعمل ما ، فإنه يفعله وقلبه متجه إلى الله سبحانه . فهو يصوم ويتاجر ويجاهد متجهاً إليه تعالى ، حتى أنه يذهب إلى بيت الخلاء وباطنه متجه إليه سبحانه .

ألم ترد أدعية خاصة يقرأها الإنسان عند دخوله بيت الخلاء وعند مكثه فيه وعند خروجه منه ، وأنّ عليه ذكر الله سبحانه في ذلك الموضع أيضاً ؟

أي أنّ على الإنسان أن لا يغفل عن الله لحظة ولا آناءً واحداً، حتى في ذلك الموضع . المؤمن يتجه إلى ربه باستمرار سائراً نحو الأمام ، ملتفتاً إلى المسير الذي يطويه لحظة بعد أخرى . فالمؤمنون يلحقون بأئمتهم الذين يتقدمونهم في مسيرتهم إلى الأمام .
يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ .

فهناك عالم النور ، حيث النور يسطع من وجود الإمام وكيانه . فهو نور ، ونفسه القدسية نور محض ، والمؤمنون يتحركون خلفه فيصِلون ويلحقون .

ويمكن الآن فهم الروايات والأخبار الواردة بأنّ مَنْ عمل العمل

الفلائي كان معنا، ومَن عمل العمل الفلاني كان في جوار رسول الله والأئمة وبرفقتهم، ساكناً في جنان الخلد؛ لأنَّ في عالم اللـهوق معية صرفة .
أما الذين يتبعون القادة الظالمين الجائرين وفراغة العصر الداعين الناس إلى عبادتهم وطاعتهم، فيجعلونهم أصناماً يعكفون على عبادتها، فإنهم سيجدون المعية مع أئمة الجور يوم القيامة ويلحقون بهم، فيحشرون جميعاً إلى جهنم وبئس المصير :

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.^١

فكيف - يا ترى - ستتحرّك يوم القيامة هذه الطائفة المسيئة ذات السيرة الرديئة ؟ لقد ذكرنا بأنهم سيُدعون بواسطة إمامهم : نَدْعُوا كُلُّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ .

أما كيفية سيرهم والتحاقهم بأئمة الجور، فقد جاء في القرآن الكريم : يَقْدُمُ قَوْمَهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورَدَهُمُ النَّارَ.^٢

يسير الإمام الجائر في المقدمة فيتبعه قومه، وبواسطته يصل إلى أتباعه كتائبهم، فماذا يعني قولنا بأنهم يُعطون كتابهم من وراء ظهورهم ؟ وأي جهة هي «وراء ظهورهم» ؟

جاء في سورة النساء :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا.^٣

١- الآية ٣٧، من السورة ٨: الأنفال .

٢- الآية ٩٨، من السورة ١١: هود .

٣- الآية ٤٧، من السورة ٤: النساء .

والمطموس يعني الممحي والمندرس ؛ أي أننا سنمسح وجوه أصحاب النار ، الأئمة منهم والأتباع ، بحيث تختلط أعينهم وأنوفهم وشفاههم وتمحي ، فتستحيل وجوههم صفحات ممحاة من مدرسة ، ثم نقلب وجوههم إلى أفقيتهم ، فتمسي أبدانهم إلى الأمام ووجوههم إلى الخلف . ولأن الأئمة من أصحاب جهنم ، فإن أتباعهم سيتوجهون نحو أئمتهم بوجوه مقلوبة إلى القفا ، ومن ثم فإن كتابهم الذي يُعطى لهم من قبل أئمتهم ، سيعطى لهم من ورائهم . ومن الجلي أنه لو شاء أحد أن يعطي كتاباً لشخص ذي وجه مقلوب إلى قفاه ، فإنه سيعطيه إياه من وراء ظهره . إن عالم الحقائق والأنوار متجه إلى الإمام نحو عالم التجرد والإطلاق ، ونحو عالم النعمة والرحمة ، وعالم القرب والمنزلة ، والعوالم اللامتناهية وغير المقيّدة .

أما عالم الشهوة والغضب والوهم الذي هو من لوازم عالم المادة والطبع أظلم العوالم ، فيقع - بطبيعة الحال - في المؤخرة باعتبار كثافته وثقله . فأهل الدنيا مشغوفون بها ، فيتحرّكون إلى الأمام في مسيرهم إلا أن قلوبهم متجهة نحو المادة وآثارها ، فتكون النتيجة انقلاب وجوههم إلى الخلف .

يخلد أهل الدنيا إليها ، ويتعاملون مع الأموال تعاملًا مجازيًا ، ويولعون باللهو واللعب ، إلا أن السير باتجاه الله والموت وعوالم التجرد التي تعقب هذا العالم ، هو سير حتمي وليس اختياريًا ، فانقضاء الزمن ومجيء الأجل يحرك المرء كلّ لحظة نحو الله سبحانه ، شاء المرء أم أبى ، بيد أن باطنه سيبقى ملتفتاً إلى الدنيا . تتحرك النفس باتجاه الله سبحانه ، أما وجه الإنسان فمتوجه نحو الدنيا . وحين يحين يوم الجزاء يوم تُبلى السرائر ، وتجلّى حقيقة الحوادث الواقعة في هذا العالم ، فإن هذه الصورة

تمثل ظهور الإمام والمأموم المشغوفين بالدنيا والمغمورين في الغفلة . ومع أن المسير تجاه الله تعالى ، إلا أن الباطن متوجه نحو الأرض : وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ^١ ، متوجه إلى الأرض وشهواتها .

فالتوجه القلبي والحقيقي هو إلى الأرض ، أما السير الجبري الحتمي فإلى الله تعالى . وهو سير اضطراري عام لجميع الأفراد . فالوجهة الاختيارية للإنسان تريد الاتجاه إلى الله والحق بالمؤمنين والسير قدماً إلى عالم النور والوصول إلى الجنة بالرغم من أن الالتفات إلى الدنيا ، وأمثال هؤلاء يُعطون كتابهم من وراء ظهورهم .

وبما تقدم يتبين أن المكذبين والضالين يلحقون بأئمتهم ويذهبون معهم إلى جهنم ، ويُعطون كتابهم من جانب الشمال ، جانب الشقاء ، فيدركون بوضوح وبالوجدان ذلّ ونكبة أعمالهم وفقدان بصيرتهم .

بينما يلحق المؤمنون ذوو العمل الصالح بأئمتهم في عالم النور ويُعطون كتابهم من جانب اليمين بسبب الإمام الحق ، حيث يُستنسخ لهم نسخة من عالم الوجود وكتاب التكوين تدلّ على حقيقة العمل وجلوته الملكوتية ، فيحيطون بكلّ أعمالهم ، ويوقى كلّ امرئ ما عمل من أعماله الموجودة بأجمعها في الكتاب المبين والإمام المبين ، سواءً في ذلك أعمال الصالحين أم أعمال الطالحين .

وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ^٢ .

ولإيضاح هذا المطلب نقول : إنّ لدينا جسداً وروحاً ، وهذا الجسد وهذه الروح ليسا في معزل عن بعضهما ، بل هما أمران مرتبطان يُقال

١- مقطع من الآية ١٧٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢- النصف الثاني من الآية ١٢ ، من السورة ٣٦ : يس .

لمجموعهما «أنا» .

وحين نقول : «هتّى فراشاً للنوم لأنّ السيّد حسن يريد النوم !» فإنّ هذا الفراش إنّما يبسط لجسده ، وهو - من ثم - فراشه المبسوط لأجل استراحة جسده وسلامته .

ثمّ نقول : «اقرأ القرآن ليستفيد السيّد حسن منه» ونقصد بطبيعة الحال روحه التي ترتاح لذلك . فنحن ندعوها «السيّد حسن» بلحاظ العلاقة بين الروح والجسد . أي أنّ لفظ «الإنسان» يُطلق على كلّ واحد من مراتب النفس ودرجاتها النازلة من الجسد والقوى .

إنّ الكتاب المبين يمثل نقلاً من عالم الوجود ، ونسخة حقيقية وواقعية منه ، لكن هذه النسخة تشير إلى حقيقة عالم الوجود . أي أنّ هذه الموجودات الخارجيّة تمثّل قالب هذا الكتاب ، أمّا روحه فهي الإمام المبين (أي مقام الولاية) الذي يجسّد روح وحقيقة جميع الموجودات على نحو التجرّد والانبساط .

ولو مثلنا لذلك ، فإنّ لنا روحاً ولهذا العالم روح ، فحقيقتنا هي روح بدننا ، أمّا حقيقة جميع العوالم التي أوجدها الله تعالى فليست إلّا الإمام ، وهو معنى الأسماء الحسنى الكلّيّة الإلهيّة .

فعالم الوجود - إذّا - له روح ونفس هي الولاية والإمام ، وهي معنى وكُلّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ .

أي أنّ الإمام المبين هو روح جميع الموجودات . ومهما عملتم من عمل فإنّ الأرض ستستلمه وتسجّله ، لأنّ روحها تحت سيطرة الإمام المبين والكتاب المبين .

وبصورة عامّة فإنّ الإنسان لم يُستثنَ من سلسلة الموجودات الكائنة التي تشكّل هذا الكتاب ، فهو وأفعاله جزء من هذا الكتاب . وعليه أن

لا يرتكب حتى انذنب الصغير، إذ سيأتي يوم ويرى هذه الذنوب والمعاصي الصغيرة التي لم يأبه لها ولم يعبأ بها، وقد تراكمت في ذلك الكتاب المبين فصارت أشبه بالتل: **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**.^١

روى الكليني في «الكافي» بسنده عن ثعلبة، عن زياد قال:

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (الصَّادِقُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ بِأَرْضِ قَرْعَاءَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: ائْتُوا بِحَطَبٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ بِأَرْضِ قَرْعَاءَ مَا بِهَا مِنْ حَطَبٍ! فَقَالَ: فَلْيَأْتِ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا قَدَرَ عَلَيْهِ. فَجَاءُوا بِهِ حَتَّى رَمَوْا بِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هَكَذَا تَجْتَمِعُ الذُّنُوبُ. ثُمَّ قَالَ: وَإِيَّاكُمْ وَالْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ طَالِبًا، أَلَا وَإِنَّ طَالِبَهَا يَكْتَتِبُ «مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ».^٢

هذا بشأن تسجيل الأعمال وتدوينها؛ أما في مقام الولاية (الإمام المبين وروح العالم) فقد نقل البحراني في «تفسير البرهان» عن الشيخ في كتاب «مصباح الأنوار» رواية جديرة بالتأمل:

رَوَاهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: كُنْتُ سَائِرًا فِي أَغْرَاضِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ مَرَرْنَا بِوَادٍ، وَنَمَلُهُ كَالسَّيْلِ سَارَ. فَذَهَلْتُ مِمَّا رَأَيْتُ، فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ جَلَّ مُحْصِيهِ! فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ وَلَكِنْ قُلْ جَلَّ بَارِيهِ! فَوَالَّذِي صَوَّرَكَ إِنِّي أَحْصِي عَدَدَهُمْ وَأَعْلَمُ الذِّكْرَ مِنْهُمْ وَالْأَنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.^٣

١- النصف الثاني من الآية ٢٩، من السورة ٤٥: الجاثية.

٢- «تفسير البرهان» ج ٢، ص ٨٨٦، الطبعة الحجرية؛ ج ٤، ص ٦، الطبعة الحروفية.

٣- «تفسير البرهان» ج ٢، ص ٨٨٦، الطبعة الحجرية؛ ج ٤، ص ٧، الطبعة الحروفية.

كما روى في «تفسير البرهان» عن الشيخ في «مصابيح الأنوار» عن
عمار بن ياسر قال: كُنْتُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ
فَمَرَرْنَا بِوَادٍ مَمْلُوءٍ نَمْلًا، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! تَرَى يَكُونُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ
اللَّهِ يَعْلَمُ كَمْ عَدَدُ هَذَا النَّمْلِ؟

قال: نَعَمْ يَا عَمَّارُ؛ أَنَا أَعْرِفُ رَجُلًا يَعْلَمُ كَمْ عَدَدُهُ وَكَمْ فِيهِ ذِكْرٌ وَكَمْ
فِيهِ أَنْثَى!

فَقُلْتُ: مَنْ ذَلِكَ - يَا مَوْلَايَ - الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: يَا عَمَّارُ! مَا قَرَأْتَ
سُورَةَ يَسَّ «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ»؟
فَقُلْتُ: بَلَى يَا مَوْلَايَ. قَالَ: أَنَا ذَلِكَ الْإِمَامُ.

وينقل في «تفسير البرهان» في هذا الموضوع، في تفسير الآية وكل
شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ. روايات عديدة دالة على أن المراد بالإمام
المبين هو أمير المؤمنين عليه السلام، كما ذكر في حديث المفضل أنهم
الخمسة الطيبة. وعلى كل تقدير فإن المراد بذلك هم جميع الأئمة الطيبين
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد اتضح في مباحثنا السابقة في هذا
الكتاب «معرفة المعاد»، وفي مباحثاتنا المفصلة في كتاب «معرفة الإمام» أن
من يطلع على مقام الولاية يعلم أن الإمام فوق الزمان والمكان، وأن له
هيمنة على جميع الموجودات الزمنية والمكانية، وعلماً بكل ما وجد
ويوجد، لأن نفسه الناطقة فوق الزمان، ولأن وجوده عقل محض.

وقد جاء في كثير من الروايات أن الأئمة الأطهار عليهم السلام
مطلعون على جميع عوالم الدنيا، السابقة منها والحالية والمستقبلية؛ أي أن
الولاية (التي هي مقام العبودية المحضة) هي من القرب بحيث لا يفصل
بينها وبين حضرة الحق تعالى أي فاصل، وحين يختص أحد بذلك المقام
فإنه يحصل على إحاطة علمية وحقيقية بجميع موجودات العالم.

عسى أن يأتي اليوم الذي نعرف فيه الإمام إن شاء الله تعالى وندرك فيه حقيقة هذه المسألة ، وندرك أن العالم جسم يمثل الإمام روحه ، وأن هذه الروح شاعرة عالمة مدركة ، بحيث تكون جميع أعمال الإنسان في محضر من الإمام ومشهده ، لأنه الكتاب المبين والكلمة الإلهية التي يحصي الله تعالى فيها كل شيء .

ولقد أنشد ابن الفارض في ذلك إنشاداً لا أبدع منه ولا أروع :

١ - فَسِرْتُ إِلَى مَا دُونَهُ وَقَفَّ الْأَلَى

وَضَلَلْتُ عُقُولَ بِالْعَوَائِدِ ضَلَّتْ

٢ - فَلَا وَصَفَ لِي وَالْوَصْفُ رَسْمٌ كَذَاكَ إِلَّا

سَمٌ وَسَمٌ فَإِنْ تَكْنِي فَكَنْ أَوْ ائْتَبِ

٣ - وَمِنْ أَنَا إِيَّاهَا إِلَى حَيْثُ لَا إِلَى

عَرَجْتُ وَعَطَّرْتُ الْوُجُودَ بِرَجْعَتِي

٤ - وَعَنْ أَنَا إِيَّايَ لِبَاطِنِ حِكْمَةٍ

وظَاهِرِ أَحْكَامٍ أُقِيمَتْ لِدَعْوَتِي^١

١ - «ديوان ابن الفارض» التائية الكبرى ، ص ٧٧ ، البيت ٣٢٤ فما بعد من التائية .

وشرح الأبيات بقلم المصنّف كالتالي :

(١) فسرتُ في طريق الفناء في الذات ومقام الجمع ، فبلغتُ إلى حيث وقف السابقون من العلماء والحكماء دون الغاية وإلى حيث هلكتُ عقولٌ بضلالها بلحاظ المنافع والعوائد .
(٢) وإذا وصلتُ هناك لم يبقَ لي عينٌ ولا أثر ولا وصف ولا صفة ، لأنَّ الوصف أثر والاسم علامة ، بينما لم يبقَ ما له أثر أو علامة ؛ فإن شئتُ الإشارة كنايةً دون تصريح ، فكُنْ أَوْ ائْتَبِ .
(٣ و ٤) ثمَّ عرجتُ من مقام فناء عين التفرقة وبقاء أثرها إلى مقام فناء العين والأثر ، إلى حيث لا مقام فوقه ، ثمَّ عدتُ من عروجي ومقامي ذلك إلى مقام التفرقة والجمع وحقيقة العبودية ، فعطّرتُ عالم الوجود برجعتي من خلال الحكمة الخفية والأحكام الظاهرية التي أُقيمت بدعوتي .

- ٥ - وَمِنِّي أَوْجُ السَّابِقِينَ بِزَعْمِهِمْ
حَضِيضُ نَرَى آثَارَ مَوْضِعٍ وَطَأْتِي
٦ - وَأَخِرُ مَا بَعْدَ الْإِشَارَةِ حَيْثُ لَا
تَرْقِي اِزْتِفَاعَ وَضَعُ أَوَّلِ خُطَوَتِي
٧ - فَمَا عَالِمٌ إِلَّا بِفَضْلِي عَالِمٌ
وَلَا نَاطِقٌ فِي الْكَوْنِ إِلَّا بِمِدْحَتِي
٨ - وَلَا غَرَوْ أَنْ سُدْتُ الْأَلَى سَبَقُوا وَقَدْ
تَمَسَّكْتُ مِنْ طَهَ بِأَوْتَقِ عُرْوَةٍ

- (٥) وَأَنْ غَايَةَ سِيرِ الَّذِينَ خُيِّلَ لَهُمْ أَنَّهُمْ سَبَقُوا إِلَى ذُرْوَةِ الْكَمَالِ هُوَ حَضِيضُ مَا وَطَأْتُهُ
قَدَمِي فِي رَجوعي .
(٦) وَأَخِرُ نَقْطَةٍ بَعْدَ الْإِشَارَةِ حَيْثُ لَا سَبِيلَ لِلرَّقِيِّ فَوْقَهَا ، هِيَ أَوَّلُ مَوْضِعٍ لِقَدَمِي
وخطاي .
(٧) فَلَا عَالِمٌ فِي عَالَمِ الوجود إِلَّا وَصَارَ ذَا عِلْمٍ بِفَضْلِي ، وَلَا نَاطِقٌ فِي الْعَالَمِ إِلَّا وَهُوَ يَلْهَجُ
بِمِدْحِي وَالثناء عَلَيَّ .
(٨) فَلَا عَجَبَ أَنِّي فَفَقْتُ السَّابِقِينَ وَحَزْتُ السِّيَادَةَ عَلَيْهِمْ ، لِأَنِّي تَمَسَّكْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ
طَهَ بِأَوْتَقِ عُرْوَةٍ وَتَمَسَّسْتُ .

الْمَجْلِسُ الثَّلَاثُونَ

الإمام المبين. وكتاب التكوين، ونسخة صحيفة الأعمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
 ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
 إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءِثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ
 أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ^١
 سبق أن ذكرنا أن للعالم الكلّي بدنًا وجسدًا ونفسًا كما للإنسان بدن
 ونفس ، وأن بدن الإنسان ونفسه أنموذج من بدن ذلك العالم الكلّي ونفسه .
 وكما تحصل في بدننا تدابير معيّنة ، وتقوم أعضاؤنا وجوارحنا بأعمال
 معيّنة تبعاً لحياة نفسنا وتدابيرها وإرادتها واختيارها ؛ فإنّ تغييرات
 وحوادث تحصل في العالم الكلّي وعالم الخلقة بواسطة حياة تلك النفس
 الكلّية الحاكمة على ذلك الجسد . وتُدعى تلك النفس الكلّية المسيطرة على
 العالم بالإمام ، أي الإمام المبين ، كما يُدعى عالم الخلقة وبنائوه الشامخ
 - العلويّ منه والسفليّ - بالكتاب المبين .
 وقد دُعي بالكتاب باعتباره مجموعة كلمات لكلّ منها دلالة على ما

١- الآية ١٢ ، من السورة ٣٦ : يس .

جبله الخالق في ذلك الموجود وما أودعه من أسرار ، فجعله مظهراً لذاته وصفاته وكاشفاً عنها ، بنفس الطريقة التي يُقرأ فيه الكتاب الخارجي المتضمن لمجموعة كلمات حاكية عن المعاني الموجودة في ذهن كاتبه وكاشفة عنها .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الموجودات الخارجية التي يحكي كل منها بدوره عن تلك الذات المقدسة الخالدة التي أوجدته . وبهذا اللحاظ فإن كل واحد من الموجودات هو كلمة الله ، ومجموع هذه الموجودات يُشكل كتاب الله تعالى .

لذا فإن الإمام - وهو مقام الولاية الكلية الأعلى من الزمان والمكان - يمثل روح كتاب الخلقة والوجود وحقيقتهما . من هذا المنطلق فإن للإمام سيطرة على جميع الأفراد بما فيهم أهل الجنة والنار ، لأن جميع الموجودات منطوية في تلك الحقيقة الكلية للولاية . فليس الأشقياء والجهنميون معزولين عن ذلك الكتاب ، ولا سيطرة الإمام وولايته قاصرة عن أن تشملهم وتعمهم ، لكن الاختلاف يتجسد في أن أصحاب اليمين والسعداء يصلون إلى أئمتهم ويلحقون بهم ويرافقونهم إلى الجنة . إلا أن جميع هذه الأمور - من حيث المجموع - تخضع لسيطرة وعلم وحياة وإرادة تلك الولاية الكلية التي ترسل أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى جهنم . وتتضح هذه الحقيقة بجلاء من الروايات المستفيضة من العامة والشيعية : **عَلَيْ قَسِيمِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ**^١ . وشرح هذه الجملة ذات المعاني الراقية يحتاج إلى كتب مطولة .

١- أوردنا في الجزء الأول من دورة «معرفة الإمام» بيانات عن سند هذا الحديث ودلالته .

إنّ ذلك الكتاب الأصليّ هو تلك الموجودات - من ملكيّة وملكوّيّة - التي تجسّد ظهور حقائق أعمال الإنسان . أمّا خصوص نتائج الأعمال التي يشاهدها الناس يوم القيامة (أي كتابهم وصحيفة أعمالهم) فتُستنسخ من ذلك الكتاب الأساس :

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^١.

وعلى هذا الأساس يجري استنساخ نسخة من الكتاب المبين الواقع تحت سيطرة روح الولاية الكلّية فيما يتعلّق بأصحاب اليمين ، فتتشخّص الأعمال المرتبطة بهم في ذلك الكتاب المبين ، كما يجري استنساخ نسخة لأصحاب الشمال والأشقياء ، ويعني ذلك أنّه سيتشخّص القدر المتعلّق بكلّ منهما من الكتاب المبين ، فيُدعى الأشقياء إلى كتابهم ، والسعداء أيضاً إلى كتابهم . وهذه الدعوة تحصل بواسطة إمامهم الذي ينبغي أن يلحقوا به ويرافقونه إلى الجنّة أو إلى النار ، سواء كان إمام الحقّ أم إمام الباطل . وجميع أئمة الحقّ وأئمة الباطل الذين كانوا السبب في دعوة أصحاب الجنّة وأصحاب النار مندكّون ومنطوون في ذلك الكتاب المبين وفانون في تلك الولاية الكلّية .

وقد تبين - إذاً - بجلاء معنى : هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، كما تبين معنى الإمامة والولاية الكلّية ومقامها . أمّا الأئمة الجزئيّون فينضوون بأجمعهم تحت مقام الولاية ويحتلّ كلّ منهم مقامه فيه . وسنذكر إن شاء الله تعالى في بحث الأعراف منزلة الأفراد القائمين على الأعراف والمشرفين على جهنّم والجنّة كليهما .

ونلاحظ أنّ كثيراً من الآيات القرآنيّة قد عدّت الإمامة والولاية واحدة

١- النصف الثاني من الآية ٢٩ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

في المصداق ، أي أنها عدت الإمام ولياً ، بيد أنها لم تعد كل ولي إماماً . فقد ورد - مثلاً - في الآية الشريفة الواردة في ولاية رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام :

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ^١ . التعبير عن إمامتهم بالولاية ، إلا أن الله تعالى لم يعبر في أي موضع من القرآن الكريم عن ولايته بالإمامة ، كما لم يعبر عن نفسه بالإمام : هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ^٢ .

وليس لدينا أي تعبير ينسب الإمامة إلى الله عز وجل ، والسر في ذلك هو ضرورة وجود سنخية بين الإمام والمأموم ، لأن مفهوم الإمام هو الأسوة والقُدوة والقائد ، بينما المأموم هو المقتدي والمتأسي الذي ينبغي له الاقتداء في جميع أفعاله بالإمام . لذا ينبغي في الإمامة والمأمومية والائتمام وجود سنخية ومثابغة بين الإمام والمأموم ، أي أن جميع الأفراد الذين يقتدون بالإمام هم من البشر ، فتعين أن يكون النبي والإمام - بدورهما - من البشر : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ^٣ .

ومن ثم فلا إشكال في التعبير عن مقاماتهم بالإمامة ، وبأن لهم مقام الولاية إضافة إلى مقام الإمامة . أما الذات القدسية للحق المتعال فلا مسانحة لها مع المخلوق ، لذا فلا ندعو الله إماماً ، كما ليست الإمامة من مقامات الله ولا من صفاته وأسمائه ؛ إلا أنه تعالى ولي ، لأن الولاية تعني كشف الحجاب بين شيئين بحيث لا يفصل بينهما ما ليس منهما ومن سنخهما .

١- الآية ٥٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢- الآية ٤٤ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣- الآية ١١٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

وقد عبّر عن القُرب بين شيئين بهذه العناية بتعبير الولاية .

ومن هنا فإن إزالة الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، بحيث لا يبقى من العبد شيء في البين ، وبحيث يندك العبد ويفنى ويصل إلى مقام العبوديّة المطلقة ، سيوجب صدق معنى الولاية بالنسبة إلى ذلك العبد .
وقد عبّر عن القُرب بين شيئين بالولاية ، كولاية الوليّ والمولّى عليه ، والولاية على الصغير ، والولاية على الأموال والأعراض ، وعبّر عن ولاية الله على جميع الموجودات بالولاية التكوينية ، وعلى عباده المقربين بالولاية التشريعية .

وسيلحق المؤمنون يوم القيامة بأئمتهم ويخضعون لولايتهم ؛ كما سيلحق الكفار بأئمتهم ويخضعون لولايتهم ، دون أن تعني التبعية والخضوع للولاية تصرف أولئك الأولياء بأوليائهم كما يحلو لهم ، أو إدخالهم إياهم بإرادتهم الجنة أو النار ؛ بل معناها خضوع الأتباع لولاية أئمتهم وانقيادهم لأوامرهم ونواهيهم في الدنيا وهي ولاية ستجلى يوم القيامة في خضوعهم لولاية أئمتهم دون أن يمكنهم تجاوزها وتخطيها .
ولدينا الكثير من الأخبار التي تبين هذا المعنى وتُظهر كيفية تصرف الكفار مع أئمتهم يوم الجزاء ، حين يتّضح عجز أولئك الأئمة عن حل مشاكل أوليائهم وعن إيصالهم إياهم إلى بعض الدرجات والمقامات ، لأن ولايتهم تعني أن هؤلاء الأفراد قد سيقوا في الدنيا إلى جهات معينة فهم الآن ضمن تلك الجهات والحدود ، وأن ذلك السّوق والانسحاق سيتجلّيان الآن في هيئة أنواع العذاب البرزخي والتبعية البرزخية .

هنالك حيث يتقدّم فرعون قومه فيتبعونه ويدخلون جهنم فيركمون فيها ، لقد كان فرعون مقدّم في هذه النشأة ، وهو كذلك مقدّم في تلك . وكما تصدر قومه في دعوتهم لعبادة الأصنام وللفحشاء والمنكرات ،

فستصدّرهم هناك أيضاً ليصلى النار ويذوق صنوف العذاب .
وعليه ، فإنّ بحثنا هذا وقولنا بهيمنة أئمة الحق ذوي مقام الولاية على
جميع أئمة الحق وأئمة الباطل لا يتنافى مع ما ذكرنا سابقاً من أنّ الدعوة
إلى الكتاب غير الدعوة للإمام . لأننا ذكرنا أنّ كلّ أمة تُدعى إلى كتابها إنّما
تُدعى بواسطة أئمة الحق أو أئمة الباطل ، وعلة عدم المنافاة هي أنّ نسخة
من أعمال الأفراد سيجري استنساخها من الإمام المبين الذي يمثّل روح
الكتاب المبين :

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ^١
فأساس ذلك الكتاب الناطق بالحق هو اللوح المحفوظ الذي تُستنسخ
منه الأعمال ، وهو ذلك الأصل المتبوع والإمام المبين ومقتدى البشر الذي
تدور على محوره أمور العالم ، حيث يتسلّم أهل الجنة وأهل النار كتبهم
بواسطة هذا الإمام وهذا الكتاب . بيد أنّ ذلك الكتاب الذي يُدعون إليه ليس
هذا الكتاب المعين ، بل نسخة مستنسخة منه تصبح كالطائر الذي يلزم
عنق الإنسان ، وتدلّ على ذلك الآية القرآنية .
وَكَلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ .
فالناس - إذّاً - يُدعون إلى كتابهم بواسطة الكتاب الأصل الذي يمثّل
الإمام المبين روحه ، وهي نكتة جديرة بالتأمل .

وخلاصة الأمر أنّ الناس صنفان : أصحاب اليمين وأصحاب
الشمال ؛ ولا تعني تسمية أصحاب اليمين أنّهم يُعطون كتبهم بأيمانهم ،
كما لا تعني تسمية أصحاب الشمال أنّهم يعطون كتبهم بشمالهم ؛ بل
المراد بذلك أنّ كتب الصنف الأوّل تصلهم من جانب السعادة والرحمة

١- الآية ٢٩ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

والعافية ، بينما كتب الصنف الثاني تصلهم من جانب الشقاء والشؤم واللؤم ؛ وأنّ صحيفة العمل هي نفس عمل الإنسان الذي جرى استنساخه ، ليواجه الإنسان بكلّ ما فعله في دار الدنيا .

وقد عبّرت الآيات القرآنيّة الواردة في أرجاء القرآن الكريم ، والتي تحدّثت عن إعطاء الأفراد كتابهم يوم القيامة ، عبّرت عن جهة الخير والرحمة باليمين ، وعن جهة الذلّ والنكبة والشقاء بالشمال ووراء الظهر ، مع أنّنا نعلم أنّ بعض آيات القرآن قسّمت الناس إلى ثلاثة أقسام ، وأنّ هناك فئةً ثالثة غير الفئتين الأوليين :

وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ *
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ *
أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ^١.

فالمقربون هم الذين سبقوا جميع القوافل وفازوا بقصب السبق عليهم ، وهم المقربون إلى حريم حضرة الحقّ تعالى . فأصحاب اليمين يُعطون كتابهم عن يمينهم ، وأصحاب الشمال يُعطون كتابهم عن شمالهم أو من وراء ظهورهم ، أمّا السابقون فليس لديهم كتاب أساساً . ومع أنّهم سبقوا أصحاب اليمين وحظوا بمقامات القرب الرفيعة ، إلّا أنّهم لا يُعطون كتاباً ، وهو ممّا يستدعي العجب ، لأنّ أصحاب اليمين يحصدون نتائج أعمالهم ، ويوفّون كلّ ما فعلوا في الدنيا ، ويرون أنفسهم في المراحل التي اكتسبوا فيها ملكاتهم وصفاتهم . أمّا بالنسبة إلى المقرّبين فليس هناك شيء ، من هذا القبيل ، فهم لا يُعطون كتاباً وصحيفة عمل ، ولم يرد في القرآن الكريم ما يُشير إلى إعطاء المقرّبين كتاباً .

١- الآيات ٧ إلى ١١ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

فما هو - يا ترى - ثواب هؤلاء الشرفاء الذين حظوا بقصب السبق من بين جميع أفراد البشر ؟

لدينا آيات قرآنية استثنت المقرّبين (أي المخلصين ، بفتح اللام) ، وقد ذكرنا بالتفصيل في بعض الأبحاث السابقة أنّهم طائفة مستثناة من كثير من الأمور ، كما أنّ الحكم العامّ للجزاء والثواب والإحسان الذي يُعطى للمحسنين لا يشملهم . ونتطرّق فيما يلي إلى ذكر ذلك بإجمال .

لدينا الآية القرآنية الكريمة : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ^١ .
والآية القرآنية : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ^٢ .

وباعتبار أنّ الآية المباركة : كُلُّ مَنَ عَلَيْهَا فَإِنَّ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ،^٣ قد ذكرت أنّ جميع من على الأرض فإنّ وميت إلا وجه الله ، فيتّضح أنّ الآمنين من الفرع والهلاك المسبّب عن نفخ الصور هم الأفراد الذين يدعون بـ «وجه الله» .

كما ورد في موضع آخر : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ^٤ .

أي أنّ العباد الذين أتمّوا دورة الإخلاص وتخطّوا مقام المخلصين (بكسر اللام) وتجاوزوا المجاهدات النفسانية فصاروا مطهّرين منزّهين ،

١- الآية ٨٧ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٢- الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٣- الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٤- الآيتان ٨٢ و ٨٣ ، من السورة ٣٨ : ص .

لا سبيل للشيطان للوصول إليهم . يُضاف إلى ذلك أن المخلصين هم الذين يحمدون الحق تعالى كما هو أهله :

سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ^١.

أي أن جميع الأفراد - عدا هذه الفئة - لا يحمدون الله ولا يشنون عليه كما هو أهل له من الحمد والثناء .

ولدينا أيضاً : فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ^٢.

أي أن جميع الناس يُحْضَرُونَ للحساب والعرض في محضر الحق تعالى عدا عباد الله المخلصين .

وأساساً فإن أهوال يوم القيامة وزمن الحساب المتطاوّل لخمسین ألف سنة ، وسائر مواقف القيامة لا تشمل المخلصين والمقربين ولا حضور لهم فيها ، وعليه يتضح أنه ليس لهم صحيفة أعمال ، وحيث لا قيامة لهم ، فلا يمين ولا شمال ولا حساب ولا كتاب . لماذا ؟ لأن صحيفة الأعمال تتعلق بالأعمال ، والحساب يتعلق كذلك بالأعمال .

وغالباً ما يكون المقصد من أعمال الناس هو الحصول على نتيجة وجزاء ذلك العمل - خيراً كان أو شراً - لذا تعطى لهم صحيفة أعمالهم ليوفون حقيقتها الملكوتية .

أما عباد الله المخلصين فلم تكن أعمالهم لتحقيق أيّ قصد وهدف معيّن ، بل كانت خالصة لوجه الله الكريم - وكلامنا هنا يخصّ المقربين والمخلصين - وما فعلوه فلم يفعلوه بأنفسهم ، بل كان الله تعالى هو الفاعل لتلك الأعمال . أفله كتاب وصحيفة أعمال ؟!

١- الأبتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافات .

٢- الأبتان ١٢٧ و ١٢٨ ، من السورة ٣٧ : الصافات .

إِنَّ مَنْ تَخَطَّى مرحلة الإخلاص وفني في ذات الله وتمخّض وجوده
وسره من شوائب الاثنيّية ، وانتمى إلى عالم التوحيد المطلق ، فقد انتفى
تعيّنه ووجوده فليست له بعد آثار وجوديّة وصحيفة العمل من جملتها .
المخلّصون وما أدراك ما المخلّصون ، أولئك الذين انتهى قوس
صعودهم في معرفة ذات الحقّ وطّي درجات القرب ، فامحوا في ذات
الحضرة الأحديّة . على أنّ حركتهم لم تكن في حال النزول وطّي قوس نزول
مراتب ما دون الذات ، ليعودوا إلى تلك المرتبة ويفنوا فيها ، بل كانت بداية
حركتهم من الذات ، ثمّ إنهم شرعوا بطّي قوس الصعود في العالم الأدنى (أي
عالم الطبع) ثمّ تخطّوا الأسماء والصفات الإلهيّة وفنوا فيها وصولاً إلى الفناء
في ذات الحقّ تعالى . وهؤلاء المخلّصون يسكنون حرم الله ، ويحظون
بقربه والأنس به ، وهو وليّهم . فمن أيّ جهة إذاً سيُعطون كتابهم ؟ في حرم
الله سبحانه لا وجود لزمان ومكان ولا جهة ولا جانب ولا يمين ولا شمال
وجنوب ولا أعلى وأسفل ، إذاً فكيف ستكون صحيفة الأعمال ؟

فإن كانت تفصيلاً للحقيقة الملكوتية للأعمال ، للزم ظهور حقائق
الأعمال في الصقع الربوبي وفي جهة ذات الأحديّة ، بيد أنّه ليس في
محضر الله وفنائه صورة وشكل ومادة ومعنى ، ولا من تفصيل وتجزئة . لذا
لا وجود هناك لكتاب وصحيفة عمل ، وعموماً لا يوجد للمقرّبين كتاب .
ونلاحظ أنّ القرآن لم يذكر لهم كتاباً ولا صحيفة عمل .

لقد وصل عباد الحقّ المخلصين خلال طيّهم لطريق السلوك إلى
حيث فنوا في ذات الحقّ تعالى ، وفنيت أسماؤهم وآثارهم ، فلم يبق منهم
عينٌ ولا أثر ، فلقد فنيت صفاتهم في صفات الحقّ ، وفنيت ذواتهم في
ذات الحقّ ، فهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً من إرادة واختيار وفعل ، فقد
صار الحقّ في وجودهم المريد والمختار والفاعل . إذ سلّموا كلّ وجودهم

إلى الله تعالى ، فصار سبحانه هو الوجود في وجودهم . ولقد تخطوا وجودهم في مقابل وجود الحق سبحانه ، ووهبوا أنفسهم له ، فأصبح الله تعالى هو جزأؤهم وهو ديتهم .
ولقد جسدت الأبيات المعدودة التالية في وصف سيّد الشهداء عليه السلام هذه الحقيقة أبدع تجسيد :

شاهان همه به خاک فکنند تاجها
تا زیب نيزه شد سر شاه جهان عشق
بر پای دوست سر نتوان سود جز کسی
کو را بلند گشت سر اندر سنان عشق
از لامکان گذشت به یک لحظه بی بُراق
این مصطفی که رفت سوی آسمان عشق
شاه جهان عشق که جانانش از آلت*
گفت ای جهان حسن فدای تو جان عشق
تو کشته منی و منم خونبهای تو
بادا فدای تو کون و مکان عشق^١

١- «دمع السجوم» هامش ص ١٩٦ .

يقول : «ألقي الملوك إلى الأرض تيجانهم ، حين زين الرمح رأس ملك عالم العشق .
ولن يمرغ أحد جبينه على قدمي الحبيب ، إلا الذي رفع رأسه عالياً على رمح العشق .
لقد تخطى اللامكان في لحظة بلا بُراق ، هذا المصطفى الذاهب إلى سماء العشق .
ولقد قال ملك عالم العشق منذ «آلت» * يا عالم الحسن فذاك روح العشق .
أنت قتيلي وأنا ديتك ، فليكن فداك . - إذاً - عالم العشق .
* - إشارة إلى الآية القرآنية ١٧٢ ، من السورة ٧ : الأعراف : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ
مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى - الْآيَة .

وهذه الأمور ممّا يختصّ بها المقرّبون ، فهم - إذاً - لا يمتلكون كتاباً .
وعليه : فما هو مصير كدحهم وأعمالهم في الدنيا وصلاتهم وصيامهم
وجهادهم ، وما تحمّلوه من مصائب وشدائد ومحن ؟
لمن خلق الله الحور العين والجنان والنساءم والأنهار الجارية ،
والأنهار الأربعة : نهر العسل المصفّى ، ونهر الخمر الذي جعل لذة
للشاربين ، ونهر اللبن الذي لا يتغيّر طعمه ، ونهر الماء الذي لا يأسن ؟
ولمن عين الزنجيل والماء الممزوج بالكافور ؟
ولمن عين السلسيل وماء الكوثر ؟

إنّها لهم ، ولكن ليس في حال الفناء ، بل في حال البقاء بعد
الفناء وفي مقام جمع الجمع . أي أنّهم سيتمتّعون بهذه النعم في عين الفناء
والاستغراق في الذات الأحديّة ، وسيحظون خلالها بالتمتّع بجمال الله . كما
خلّقت هذه النعم لأصحاب اليمين المتلذّذون بها بدون الاستغراق في الذات
الأحديّة .

وخلاصة القول أنّ هذه النعم هي في الحقيقة جزاء الحركة والسلوك
ولا تشمل من في الحرّم ، فالعشق والحماس والحركة تكون في مرحلة
السلوك ، أمّا في مرحلة العرفان فليس هناك من عشق ولا حماس . لذا فإنّ
من يصبح - بعد طيّ مرحلة السلوك - عارفاً بالله تعالى ومن عباد الله
المقرّبين المخلّصين ، فلا حركة له بعد ، إذ ليس في مرحلة العرفان أيّ حزن
أو فرح ، أو خوف أو أمل ، ولا وجود للإحساس بالعلم أو القدرة أو
الوجود .

ولقد أجاد ابن الفارض في وصف بعض حالات المخلّصين عند
الفناء :

- ١ - أَمَمْتُ إِمَامِي فِي الْحَقِيقَةِ فَالْوَرَى
وَرَائِي وَكَانَتْ حَيْثُ وَجَّهْتُ وَجْهَتِي
- ٢ - يَرَاهَا أَمَامِي فِي صَلَاتِي نَاطِرِي
وَيَشْهَدُ فِي قَلْبِي إِمَامَ أُئِمَّتِي
- ٣ - وَلَا غَرَوْ أَنَّ صَلَّى الْإِمَامُ إِلَيَّ أَنَّ
ثَوْتُ فِي فُؤَادِي وَهِيَ قِبْلَةُ قِبْلَتِي
- ٤ - وَكُلُّ الْجِهَاتِ السَّتِّ نَحْوِي تَوَجَّهَتْ
بِمَا تَمَّ مِنْ نُسْكِ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ
- ٥ - لَهَا صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أَقِيمُهَا
وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِي صَلَّتْ
- ٦ - كِلَانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى
حَقِيقَتِهِ بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ^١

١- «ديوان ابن الفارض» التائية الكبرى ، ص ٦٠ فما بعد ؛ البيت الأول هو البيت ١٤٨

من التائية .

(١) حين استغرق وجودي في الوجود المطلق وفي ذات الحضرة الأحديّة ، فقد زال رسم الاثنيّين بيني وبين إلهي ، لذا فقد ائتممت في صلاتي - في حقيقة الأمر - بإمامي الذي هو ذات الحقّ ، ووجَّهت وجهي إليه فأضحت جميع الموجودات ورائي ، الإمام منهم والمأموم . ولأنّه صار في قلبي ، فأينما وجَّهت وجهي كانت تلك وجهتي .
(٢) تراه عيني أمامي في صلاتي ، ويشهد قلبي أنّه إمام أئمتي .
(٣) ولا عجب أن صَلَّى الإمام بأتجاهي ، لأنّ الله تعالى استقرّ في قلبي ، فذاته القدسيّة جلّ وعلا هي قِبْلَةُ قِبْلَتِي .

(٤) وتوجَّهت نحوِي الجهات الستّ (اليمين والشمال ، والأمام والخلف ، والأعلى والأسفل) بجميع الآثار والخصائص الموجودة فيها من العبادة والحجّ والعُمْرة .
(٥ و٦) صلاتي التي أُقيمها في مقام إبراهيم أُقيمها له ، وأشهدُ في ذلك المقام أنّه

- ٧- مُنِحتُ وَلَاهَا يَوْمَ لَا يَوْمَ قَبْلَ أَنْ
بَدَتْ عِنْدَ أَخْذِ الْعَهْدِ فِي أَوْلِيَّتِي
٨- وَهَمْتُ بِهَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ حَيْثُ لَا
ظُهُورَ وَكَانَتْ نَشْوَتِي قَبْلَ نَشَأْتِي
٩- فَأَفْنَى الْهَوَى مَا لَمْ يَكُنْ ثُمَّ بَاقِيَا
هُنَا مِنْ صِفَاتِ بَيْنِنَا فَاضْمَحَلَّتْ
١٠- فَأَلْفَيْتُ مَا أَلْقَيْتُ عَنِّي صَادِرَا
إِلَيَّ وَمِنِّي وَارِدَا بِمَزِيدَةٍ
١١- وَشَاهَدْتُ نَفْسِي بِالصِّفَاتِ الَّتِي بِهَا
نَحَجَّبْتُ عَنِّي فِي شُهُودِي وَحَجَبْتِي

☞ صَلَّى لِي ، لِأَنَّ الْأَشْبَاحَ الظَّاهِرَةَ ظِلَالٌ سَاجِدَةٌ لِلْأَرْوَاحِ الْبَاطِنَةِ ، وَلِأَنَّ الْمَحَبَّ - بِاعْتِبَارِ الْجَمْعِ - هُوَ عَيْنُ الْمَحْبُوبِ ، وَبِاعْتِبَارِ التَّفَرُّقَةِ غَيْرُهُ ، وَلِأَنَّ التَّفَاتِ الْمَحَبَّ إِلَى الْمَحْبُوبِ فَرَعُ التَّفَاتِ الْمَحْبُوبِ إِلَى الْمَحَبِّ . فَيُمْكِنُ الْقَوْلُ - إِذَا - إِنَّا كِلَانَا مُصَلِّيانَ نَسْجُدُ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ فِي مَقَامِ حَقِيقَةِ جَمْعِهِ .

(٧) لَقَدْ مُنِحتُ مَقَامَ قَرِيبِهِ وَوَلَايَتِهِ فِي أَوَّلِ نَقْطَةِ إِيجَادِي وَنَشَأْتِي ، حِينَ ظَهَرَتِ الْأَشْيَاءُ بِطَرِيقِ الْمَعْلُومِيَّةِ مِنْ ذَاتِ الْحَقِّ ، وَتَشَكَّلَ عَالَمُ الْأَمْرِ قَبْلَ عَالَمِ الْخَلْقِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الْيَوْمَ بَعْدُ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَخَذَ الْعَهْدَ فِي عَالَمِ الْمِيثَاقِ .

(٨) وَلَقَدْ وَلِهَتْ بِمَحَبَّتِهِ وَتَحَيَّرْتُ فِي عَالَمِ الْأَمْرِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِدَاتِي وَلَا لَصِفَاتِي ظُهُورٌ فِي عَالَمِ الْخَلْقِ ، فَنَشَوْتِي وَسُكْرِي بِهِ وَجَدَا قَبْلَ نَشَأْتِي فِي هَذَا الْعَالَمِ .

(٩) فَأَفْنَى ذَلِكَ الْهَوَى الَّذِي وَجَدْتُهُ فِي عَالَمِ الْأَمْرِ تَجَاهَ رَبِّي ، تِلْكَ الصِّفَاتُ الَّتِي حَدَّثَتْ بَيْنَنَا فِي عَالَمِ الْخَلْقِ (وَالَّتِي لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ فِي عَالَمِ الْأَمْرِ) ، فَاضْمَحَلَّتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ وَفَنَتْ ، فَصُرَتْ مَعَ تِلْكَ الذَّاتِ الْقُدْسِيَّةِ كَمَا كُنْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ .

(١٠) وَبَعْدَ أَنْ اِضْمَحَلَّتْ صِفَاتِي فِي عَالَمِ الْفَنَاءِ ، عُدْتُ إِلَى عَالَمِ الْبَقَاءِ فَشَاهَدْتُ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي أَلْقَيْتُهَا وَتَخَلَّيْتُ عَنْهَا لَزِيادَتِهَا ، قَدْ صَدَرَتْ مِنِّي إِلَيَّ وَوَرَدَتْ عَلَيَّ . ☞

١٢ - وَأَنْتَى الَّتِي أَحْبَبْتَهَا لَا مَحَالَةَ

وَكَانَتْ لَهَا نَفْسِي عَلَى مُجِئِي

١٣ - فَهَامَتْ بِهَا مِنْ حَيْثُ لَمْ تَدْرِ وَهِيَ فِي

شُهُودِي بِنَفْسِ الْأَمْرِ غَيْرُ جَهُولَةٍ

١٤ - جَلْتُ فِي تَجَلِّيْهَا الْوُجُودَ لِنَظَرِي

فَفِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ أَرَاهَا بِرُؤْيَةٍ

وأنتى للمقربين والمخلصين الغارقين في بحار أنوار الذات الأحديّة ، والمدهوشين بكلّ وجودهم في التجليات الذاتيّة ، أن ينشغلوا بالآثار والتجليات الصفاتيّة عن ذواتهم ؟ إذ الانشغال بذواتهم - بعد بقائهم بالله تعالى - هو عين الانشغال بالذات ، إلّا أنّه قبل البقاء موجب للمحبوبيّة عن الذات ، فهو لا يمثل إلّا سداً لطريق الوصول بالنسبة إلى السالك الذي يلتهب عشق الله في كلّ كيانه ووجوده ويذّبه كالشمع ويجعله يصرخ : **وَاجْعَلْ قَلْبِي بِحُبِّكَ مُتِمِّمًا**^١ وما الذي يفهمه عاشق الله - يا ترى - من الحوريّة ؟ وما الذي يدركه من جنّات تجري من تحتها الأنهار ؟

١١) وشاهدت نفسي (حال شهودي) بصفاتها التي احتجبت بها عني الذات الأحديّة المقدّسة .

١٢) وشاهدت أنّ نفسي - يقيناً وضرورةً - هي الذات ، وأنّ نفسي في معرفة الذات قد أحالتني على نفسي .

١٣) فتولّّيت به نفسي فجأة خلال بحثها عنه ، بينما كان - في الحقيقة - مشهوداً لي ، ولم يكن هذا الأمر خافياً عن نفسي .

١٤) فكشفت تلك الذات القدسيّة في تجلّيها في الوجود المطلق الستار أمام عيني ، فصرت أراها عياناً في كلّ مرّتي ومُشاهد .

١ - من فقرات دعاء كميل الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام يكثر قراءته ، ثمّ علّمه لكميل بن زياد النخعي .

فهو يركل كل نية وقصد - غير لقاء الله تعالى - بنداء :
إِلَهِي ! مَا عَبْدْتُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ وَلَا طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ بَلْ وَجَدْتُكَ
أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ .^١

ويدرك أن المضممار الوحيد للعمل والطاعة والعبادة هي في وجودية ذات الحق تعالى ، فيحظى - في هذا الميدان - بقصب السبق على أهل العالم .
وحين يُنهي امرؤ ما تحصيلاته الدراسية ، فما الذي سيعنيه - بعد - وقوفه في مصاف أطفال الصف الأول الابتدائي ؟

إن عبادة الحق وطاعته على أساس من الخوف من النار والطمع في الجنة ليست عبادة للحق ، بل عبادة للنفس وقواها النفسانية . وعليه فإذا عَبَدَ أحد ما الله سبحانه بهذه النية ، فسيُعطي كتابه من تلك الجهات ، أما مَنْ عَبَدَ الله تعالى لذاته القدسية العديمة الجهة والتعين ، فمن أين سيعطي كتابه ؟ إن كتابه وصحيفة عمله يجسدان نفس واقع الأمر وحقيقته ، أي الذات القدسية للحق تبارك وتعالى . لقد بادل السالك العاشق نفسه بالله تعالى لا بالآثار والنعم ، ولم يعبد إلا ذاته المقدسة ، فكانت جنته هي اندكاكه في الذات القدسية والمحو والفناء في الأنوار القدسية والتجليات الذاتية .

ووفقاً للآية الشريفة : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ

١- «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٥١١ ، طبعة الكمباني . من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام . وقد نقل المجلسي هذا الكلام عن «شرح نهج البلاغة» لابن ميشم البحراني ، ج ٥ ، ص ٣٦١ ، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الحكمة ٢٣٧ من باب الحكم : «إِنَّ قَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فَتَلَكَ عِبَادَةُ التَّجَارِ ، وَإِنْ قَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ رَهْبَةً فَتَلَكَ عِبَادَةُ الْعَبِيد ، وَإِنْ قَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ شُكْرًا فَتَلَكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ» . ثم نقل المجلسي رحمه الله عن ابن ميشم قوله : أي لأنه مستحق للعبادة . ثم يقول ابن ميشم : وقال عليه السلام في موضع آخر : إلهي ! ما عبدتك خوفاً من نارِكَ ... إلى آخره .

بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ^١، فَإِنَّ الذَّاتِ الْقُدْسِيَّةَ لِلْحَقِّ تَعَالَى سَتَكُونُ جَنَّتَهُ الْعَالِيَا.

من كه امروزم بهشت نقد حاصل می شود

وعدة فردای زاهد را چرا باور کنم^٢

ولا تعني مقولة «إِنِّي بادلْتُ نفسي بالله تعالى» اكتسابي شيئاً من صفاته وأسمائه ، وادّعائي لنفسي ألوهيته ، فذاك ادّعاء باطل ، بل تعني تصديقي وإذعائي واعترافي بأنّي لا شيء مقابل نور الله ، وأنّ أسمائك - يا إلهي - هي الأسماء العظمى ، وصفاتك كذلك . ولقد كان يخيّل لي حتّى الآن أنّي ذو أثر وصفة ، وأنّي سرقتُ قدرّاً من صفاتك وأسمائك فنسبْتُها لنفسي . وكان يخيّل لي حقيقة أنّ لي وجوداً وأصالة واسماً وصفةً ، لكنّي - وقد طويت المسير بحبك ومن أجل لقائك فقبلتني وأعزرتني - قد أدركتُ أنّي لا شيء وأنّي لا أملك شيئاً ، وأدركتُ أنّ ذلك القدر من الوجود الذي كنت أعدّه لنفسي كان نابعاً من الفرعونية ، لأنّك أنت إلهي في عالم الوجود لا غيرك .

نیست جز فقر در طیلسانم نیست جز عجز طیّ لسانم
سفله تر از همه ناکسانم راست گویم خسی از خسانم
پرده زین سو بدان سو هوایم^٣

١- الآية ١١١ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢- «ديوان حافظ الشيرازي» ص ١٥٧ ، طبعة پژمان .

يقول : « حين أحصل اليوم على الجنة نقداً ، فلماذا أُصدّق وعد الزاهد حين يُحيلني على الغدّ ؟ » .

٣- «ديوان حبيب» للمرحوم آية الله الحاج الميرزا حبيب الله الخراساني ، ص ٥٤ ،
فما بعد ، وهذه الأشعار مقتطفات من أشعاره .

من ز خود هست و بودی ندارم من ز خود ربح و سودی ندارم
من ز خود تار و پودی ندارم من که از خود نمودی ندارم
بیخودانه چسان خود نمایم

بنده را پادشاهی نیاید از عدم کبریائی نیاید
بندگی را خدائی نیاید از گدا جز گدائی نیاید
من گدا من گدا من گدایم

بنده ام گر بخویشم بخواند رانده ام گر ز پیشم براند
آستانم چو بر در نشاند پاسبانم چو بر ره بماند
هر چه گوید جز او را نشایم^۱

« يقول : « لا شيء إلا الفقر في طيلسانى ، وإلا العجز طي لسانى .. ولأقل الحق ، فأنا
أسفل من كل السفلة ، وأتفه مقاماً من التافهين

يتقاذفني هواي من صوبٍ لآخر»

۱- يقول : « لا أملك لنفسي وجوداً ، ولا أملك من نفسي خسارةً ولا ربحاً .. ولا أملك في
نفسي سدىً ولحمة* ، ولا أثراً ومظهراً .

فأنا - إذاً - أظهر نفسي عبثاً

لا يليق رداء الملوكة بالعبد ، ولا تليق الكبرياء بالعدم المحض .. ولا تليق الألوهية
بالعبد ، ولا يجدر بالشحاذ إلا الاستجداء

أنا شحاذ أنا شحاذ أنا شحاذ

إن دعاني إليه كنت عبده ، ولو نهرني كنت طريداً شريداً .. ولو أوقفني حاجباً لصقت
ببابه كالإطار ، ولو توقف في الطريق كنت حارساً وخفياً

إذ لا يجدر بي إلا أن أكون ما يدعوني»

* سدى : تعني خيوط الطول للنسيج - لحمة : تعني خيوط العرض منه (المنجد) .

گر بخواند بخویشم فقیرم ور براند ز پیشم حقیرم
گر بگوید امیرم امیرم ور بگوید بمیرم بمیرم
بندۀ حکم و تسخیر رأیم

از عدم حرف هستی شاید دعوی کبر و مستی شاید
خاک را جز که پستی شاید از فنا خودپرستی شاید
من فنا من فنا من فنا

بندۀ ام ره به جائی ندارم عقل و تدبیر و رائی ندارم
در سر از خود هوائی ندارم ره به دولت سرائی ندارم
در گه دوست دولت سرایم

بندۀ ام با دو صد عیب و علت عجز و خواری و زاری و ذلت
با همه شرمساری و خجلت ای خداوند اقبال و دولت^۱

۱- يقول : «لو دعاني باسمي كنت فقيراً ، ولو طردني كنت في ذاتي حقيراً .. لو دعاني
أميراً صرْتُ حقاً أميراً ، ولو أمرني بالموت مِتُّ وفنيت
فأنا لحكمك عبد ولرأيك قِنٌّ * مملوك
لا يليق بالعدم حديث الوجود ، ولا يليق به ادعاء الكبر والسكر .. لا يليق بالتراب إلاّ
الذلّ والضعّة ، ولا يليق بالفناء عبادة النفس
أنا عدم أنا عدم أنا عدم
أنا عبدٌ ليس لي حيلة أو سبيل ، ولا عقل لي ولا رأي ولا تدبير .. لا ادعاء لي في
نفسي ، ولا سبيل لي إلى بلاط السلطان
لأنّ فناء الحبيب عندي بلاط السلطان
أنا عبدٌ تُعَدُّ بالمئات عيوبي ، وعجزي وذليّ وهواني .. ولكن ، أيّها الإله المهيمن ،
* قِنٌّ : عبد مُلِك هو وأبواه (المنجد) .

نیست جز بر درت التجایم

من اگر با تو همراه باشم از دل خویش آگاه باشم
در ره بندگی شاه باشم در صف کائنات باشم
تو مرائی اگر من ترایم

ای غمت مایه شادمانی یاد روی تو روز جوانی
وصل تو دولت جاودانی تار زلف تو سبع المثنی
لعل دلجویت آب بقیام^۱

وهناك طائفة أخرى ليس لهم صحيفة أعمال - عدا المقرّبين والمخلصين -
فمن هم ؟

ذكرنا أنّ المقرّبين هم الذين ارتقوا إلى الذروة فتخطّوا المراتب
واجتازوا الاسم والأثر ، وارتفعوا إلى ما فوق مستوى العمل ، وفي المقابل ،
هناك طائفة أخرى انحطّت إلى أن أصبح أفرادها أدنى درجة من البهائم ،

☞ الحاكم ، مع كلّ عاري واستحيائي

١- يقول : «ليس لي - إلا إلى بابك - التجاء

لو قدّر لي أن أكون معك ، ولو أدركت ما في نفسي .. لكنك في طريق العبوديّة ملكاً ،
وكنت في مصاف من كان لله

أنت أنا ، لو كنت أنا أنت

يا من غمك مدعاة للسرور ، وذكرى طلعتك أيام الشباب .. يا من وصلك حكومة
دائمة ، وطرتك السوداء سبع المثنی
يا قوتك المحبوبة لي ماء البقاء والخلود

حيث أضاعوا من وجودهم جميع صفات الله وأسمائه ، وانغمروا في الشهوات ، مصرّين على غفلتهم وإعراضهم عن الله تعالى ، فتخطّوا بذلك مرتبة العمل وترسّخت القبائح والمنكرات في وجودهم وأصبحت جزءاً من ذواتهم .

لقد أفسد هؤلاء سرائرهم وبواطنهم من خلال إصرارهم على إنكار الله ورسوله وعدائهم للصالحين من عباد الله ، ونصب العداوة لهم ، فتسبّب ذلك في سريان القبائح من ظواهرهم إلى بواطنهم ، وصار وجودهم منبعاً للشُرور ومصدراً ترشح عنه المنكرات والجنايات الظاهرية والباطنية .

وأمثال هؤلاء لا كتاب لهم ، لأنّ الكتاب وصحيفة الأعمال لمن قبائحه ضمن حدود الأعمال ، لا في مرتبة ذاته وفي درجة كينونة ماهيته وحقيقته . وقد عبّرت الآيات القرآنية عن هؤلاء الأفراد بالذين حبّطت أعمالهم ، أي الذين أبطلت أعمالهم : **أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** .

وأصحاب هذه الطائفة جهنميّون بحيث إنّهم يجسّدون حقيقة جهنّم وُصّلها ، إذ ليست جهنّم إلّا ظهوراً لذواتهم . كما أنّ دركاتهم ومراتبهم أسفل وأكثر عمقاً من دركات جهنّم وأهلها العاديين ، فإذا بدرت - مثلاً - خيانة من عقيد في الجيش ، فإنّه لا يُسجن مع الجنود العاديين الخائنين ، بل يُساق إلى سجنٍ يتناسب مع درجة جرمه وجنائته .

وعليه فليس لهؤلاء كتاب ، ولا يعطون كتابهم من جهة الشقاء .

أمّا أصحاب اليمين فهم من المحسنين ، إلّا أنّ إحسانهم لم يسر إلى ذواتهم وبواطنهم ، لأنّهم لم يبيعوا أنفسهم لله بيعاً تامّاً ، وإلّا لكانوا من المقرّبين . لو كان التفاتهم إلى الحقّ قد بلغ درجة كبيرة ، وغفلتهم كانت قليلة يسيرة ، فهم إذاً من السعداء .

وأمّا أصحاب الشمال فهم الذين غالباً ما اتّبعوا سبيل المعاصي

والجرائم في دنياهم ، إلا أنهم كانوا يعملون أعمالاً حسنة أحياناً ، وربما كانوا من أهل الخير ، غير أن حبّهم لله تعالى لم يبلغ درجة كبيرة ، فاستحقوا العقاب على أعمالهم السيئة ، وصار عليهم أن يضلوا النار - ولو إلى مدة - جزاءً وفاقاً .

وأما من أنكروا الحق ووجدوه من الأساس ، فلن يؤاخذوا على أعمالهم ، بل على حقيقتهم .

ولدينا في الروايات أن الحبط ليس سارياً بشكل دائم ، فما الذي يعنيه ذلك يا ترى ؟ إنه يعني أن كل عمل من الأعمال الذميمة لا يمحو الأثر الحسن للأعمال الصالحة . فلو صلينا اليوم صلاةً - مثلاً - وحصلنا على ثوابٍ ما ، ثم أذنبنا بعد ذلك ذنباً ، فإن ذلك الذنب لن يمحو أثر تلك الصلاة ، وستبقى تلك الصلاة محفوظة مع ذلك الأثر في موضعهما ، كما سيبقى الذنب وأثره محفوظين في موضعها .

ومن ثم فإن الأعمال الحسنة والأعمال السيئة لا تحبط بعضها ، وستُحفظ الأعمال الصالحة في مواضعها إلى يوم القيامة ، كما ستُحفظ الأعمال الطالحة في مواضعها ، إذ ينبغي مجازاة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعقاب .

وسيتعرّض المذنبون لأهوال المحشر وشدائده ، وللوقوف في ساحة العرض ، وللمكث في جهنم في خاتمة المطاف مقابل الأعمال السيئة التي اجترحوها ، وصولاً إلى تطهيرهم وتزكيتهم ، ثم يدخلون الجنة بعد ذلك جزاءً على ما فعلوا من الأعمال الحسنة .

فالحق - إذًا - أن لا يُفسد عمل معيّن يقوم به المرء إثر عمل آخر ، وعلى الإنسان أن لا يقنط أبداً من رحمة الله ، فإن أذنب وهاله ذنبه ، فلا يقولن إن جميع أعماله الحسنة التي قام بها قد حبطت وذهبت أدراج

الرياح .

يَبْدُ أَنَّ هنالك بعض الموارد يسري فيها قانون الحبط وهي مستثناة من هذه القاعدة العامة بحيث إذا ما فعل الإنسان عملاً معيناً فإن جميع أعماله ستضيع وتحبط بلا استثناء .

وأحد هذه الموارد : الشرك بالله تعالى واعتبار غيره مؤثراً في الذات أو الصفة أو الفعل .

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^١

وعلة الحبط في هذا المورد أَنَّ الأعمال الصالحة لها وجود حسن في عالم التوحيد ؛ وحين ينظر امرؤ ما إلى الحق المتعال بغير نظرة التوحيد ، حيث يعدّ له شريكاً في عمله وينسب أفعال الحق وآثاره الأصلية الأصيلة إلى الغير الذي ليس في حقيقة الأمر سوى ظلّاً لله وفقيراً إليه ، وليس له وجود حقيقي ، بل اعتباطي فانّ ، فمهما بدا في الظاهر عظيماً وكبيراً إلا أنّه سيفقد قيمته في عالم الواقع والحقيقة .

مثّل هذا الشخص مثّل غلام يسعى بجّد في خدمة مولاه ، فيكنس البيت ، ويسقي الأشجار والورود ، ويرشّ فناء الدار بالماء ، ويُشعل أعواد البخور في أرجاء البيت ، وينثر العطر وماء الورد هنا وهناك ؛ لكنّه بالرغم من كلّ هذه الخدمات يضمّر لمولاه صاحب الدار حقداً وعداوة ، وينتظر الفرصة لقتله واغتياله . فهل تكون لهذه الخدمات قيمة عند مولاه ؟

لقد كان كنس السجّاد وتعطير الغرف من أجل الراحة ؛ أمّا إذا قرّر ذبح صاحب البيت على هذه السجاجيد وضمن هذه الغرف ، فهل سيكون

١- الآية ٦٥ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

لعمله هذا من قيمة عند مولاه ؟

والنتيجة الحاصلة فإن كل عمل خير سيكون محكوماً بالبطلان إذا اقترن بالشرك الذي هو بمثابة إعلان الحرب على المالك الأصلي للعالم .

الثاني : الكفر ؛ أي أن من يكفر بالله ورسوله ، وينكر حقائقه رسول الله ورسائله ، فإن أعماله ستحبط ، لأن إنكار الرسول المرسل من قِبَلِ الله تعالى بمثابة إنكار المرسل سبحانه :

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ^١

ولهذه الآية نظائر أخرى في القرآن الكريم تتحدث عن موارد الكفر .

الثالث : الارتداد ؛ أي العودة عن الإسلام ، والكفر بعد الإيمان .

وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^٢

ومن الجدير هنا أن نذكر معنى الارتداد وآثاره بإجمال ؛ فالمرتد هو الذي يرجع عن الإسلام ، وفيه حالتان ، إما أن يعود المرتد إلى الإسلام من جديد ، أو يبقى مصرّاً على ارتداده .

أما في الحالة الأولى ، وهي عودته إلى الإسلام من جديد بحقيقة التوبة ، فإن توبته ستكون مقبولة ، ومصيره إلى الجنة ، سواء أُجري في حقه حكم الإسلام أم لم يُجرَ ، لأن إجراء حكم الارتداد لا علاقة له بقبول التوبة الصادقة . فالتائب فيما بينه وبين الله تعالى ستكون توبته مقبولة بلحاظ الواقع ، سواء في ذلك كان المرتد رجلاً أم امرأة ، فطرياً أم ملتياً .

١- المقطع الأخير من الآية ٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢- المقطع الأخير من الآية ٢١٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

أما بلحاظ الظاهر ، أي بلحاظ إجراء حكم الإسلام الظاهري ، فإن المرتد على صنفين :

الأول : المرتد الفطري .

والثاني : المرتد المَلّي .

فالمرتد الفطري هو الذي انعقدت نطفته من أبوين كلاهما أو أحدهما مسلم ، فيكون انعقاد نطفته على فطرة الإسلام وجبلته ، لأنّ الطفل يتبع أشرف الأبوين ، أي المسلم من الأبوين - سواء الأب أم الأم - فيكون الطفل تابعاً له في إسلامه وغير تابع للآخر الكافر ، حتّى لو كان الكافر أباه .

ومن هنا فإنّ من تنعقد نطفته من أبوين مسلمين ، أو من أب مسلم أو أم مسلمة ، فإنّ نطفته ستنعقد في الإسلام . فإن ولد الطفل في هذه الحالة ثم أدرك سنّ البلوغ وصار مسلماً ثم ارتدّ عن الإسلام ، فسيكون قد ارتدّ عن فطرة الإسلام ، أي عن الفطرة والجبلّة التي طُبِعَ عليها . فإن ثبت ارتداده في محكمة شرعية عند حاكم مسلم ، كان جزاؤه القتل . هذا إن كان المرتد رجلاً ، أمّا لو كان المرتد امرأة ، فإنّ الحاكم المسلم لا يأمر بقتلها ، بل يأمر بحبسها وضربها على الصلوات في مواعيدها حتّى تفيء من الكفر إلى الإسلام .

أما المرتد المَلّي ، فهو المرتد الذي انعقدت نطفته من أبوين كافرين ، ثم نشأ وترعرع حتّى حان بلوغه فاعتنق الإسلام . سواء في ذلك أسلم أبواه وهو صغير فتبعهما في إسلامهما ، أم بقيا على كفرهما فتبعهما في الكفر ثم أسلم بعد بلوغه وتمييزه . فإن ارتدّ كافراً بعد إسلامه دُعي بالمرتد المَلّي ، أي المرتد بعد بلوغه عن ملة الإسلام وشريعته ، لا عن فطرة الإسلام وجبلته .

فإن تاب هذا المرتد وعاد بنفسه إلى الإسلام ، فلا يُحكم بقتله في المحكمة الشرعية ، سواء كان المرتد رجلاً أم امرأة . أمّا لو لم يَتُب وأصرّ على كفره فإنه لا يُقتل بل يُستتاب ، فإن تاب قبلت توبته ، وإن أصرّ على ارتداده فإن كان رجلاً قُتل ، وإن كان امرأة حُبست وأُجري بحقّها أحكام المرتدة الفطرية حتّى تُسلم أو تموت في الحبس . وبطبيعة الحال فإنّ جميع هذه المسائل هي بلحاظ حكم الإسلام الظاهريّ وإجراء الحدّ ، والتأديب من زاوية القوانين الجزائية الإسلامية ، أمّا بلحاظ الباطن فإنّ المرتد لو تاب وعاد إلى إسلامه ، فإن توبته ستكون مقبولة ، ومصيره سيكون إلى الجنة حتّى لو أُجري في حقّه الحكم الظاهريّ للإسلام فحُبس أو قُتل .

أمّا لو مات المرتد أو قُتل دون أن يتوب ، حبّطت أعماله وخُلد في جهنّم مدحوراً .

وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^١

أي أنّ جميع الأعمال الحسنة التي فعلوها في الدنيا ستحبط آثارها الدنيوية والأخروية .

الرابع : التكذيب بآيات الله ولقائه .

هناك فئة من الناس يكذبون بالله ولقائه ، ويحبّون أن يكتشفوا خللاً في نوااميس الدين وقوانينه ، ويسعون جاهدين للعثور على إشكال في القرآن الكريم أو في كلام رسول الله والأئمّة الطاهرين عليهم السلام ، ويقولون في تكذيبهم لآيات الله ولقائه : إنّ طريق الله مسدود ، وأن لا معنى للقاء الله والمعاد .

١- الآية ٢١٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

وإن كانوا يدعون الإسلام ويتلبسون بردائه ، إلا أنهم يقولون مثلاً :
« لقد فاه النبي بهذا الكلام الذي لا حقيقة له لمصلحة ما . إننا نعتقد بالإسلام ،
لكنه في وضعه الحالي دين ما قبل ألف وأربعمائة سنة ، لا يصلح لهذا
العصر ، وينبغي تغيير أحكامه وفق أحكام الغرب المعاصرة المقبولة » .
ويقولون : « لقد كان نبي الإسلام مفكراً ونابعة من النوابع ، وقد أراد
إصلاح المجتمع لذا تحدّث عن الجنة والحدود ليكشف الناس عن الاعتداء
وتخطي العدالة ، ولينصرفوا للعبادة على أمل نيل تلك النعم ، وحباً للفوز
بتلك اللذات . كما أنه تحدّث عن نار جهنم ليخافوا فلا ينحرفوا عن صراط
العدل في المجتمع ، لكن كلّ ذلك لا حقيقة له ولا أصالة » . وهؤلاء ممن
ستحبط أعمالهم مهما كانت ذات منفعة عامة .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا .^١
ولهذه الآية الشريفة نظائر أخرى في القرآن الكريم .

لقد تحدّث المتأثرون بالغرب من أصحاب ربطات العنق عند
التوقيع على قوانين النهضة الدستورية باسم حرّية القلم والبيان ، وشرعوا
بنشر السخافات في الجرائد ، فكان أول حديثهم السخرية بالنبي والأئمة
والدين والإيمان والقرآن . وكانوا يكتبون كلّ يوم فصلاً مشبعاً في هذا
المجال .

أوردت جريدة « ناهيد » - ولا أعلم هل صاحبها على قيد الحياة أم لا -
أشعاراً تحطّ من قدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتهزأ به ، ومنها

١- الآيات ١٠٣ إلى ١٠٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

هذا البيت :

جار زد آن جارچی مسخره الدنيا مزرعة الآخرة^١
كما صدرت في «كلكتا» جريدة «الحبل المتين» وأوردت كل مرة فصلاً
في التهجم على الدين والنبى والإيمان ، وفي انتقاد مجالس العزاء والبكاء
على سيد المظلومين : سيد الشهداء عليه السلام ، وفي السخرية من حجاب
النساء المسلمات وعقتهن . فتأملوا في أشعار «إيرج ميرزا» وكيف أغرم
بصور الغرب وثقافته بحيث صار يعتبر عري المرأة دليلاً على حرّيتها
وتكاملها ورقّتها .

ولقد سخر هؤلاء بالعلماء والفقهاء ، بحيث وصل الأمر بالمرحوم
الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني رحمة الله عليه - الذي كان من زعماء
النهضة الدستورية والموقعين عليها - إلى العزم على السفر من النجف إلى
إيران ، فأرسل برقية من مائتي كلمة تفيض بالتهديد يقول فيها : فليذهب
عشاق مدينة العشق إلى باريس وليبعدوا عن البلاد! والمقصود من مدينة
العشاق مدينة «عشق آباد» التي كانت مقراً لهذه الفرق الضالة . وإثر هذه
البرقية جرى إبعاد دعاة التحرر وإخراجهم بأجمعهم من إيران من أجل
تهدئة الأوضاع ، والحديث في ذلك طويل .

ثم عزم رحمه الله على السفر إلى إيران ، فقبل إنه في الليلة التي قرّر
السفر فيها دُس له السم ففارق الحياة صبيحتها ، لماذا ؟ لحرف الأفكار عن
مجراها الأصيل . الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ^٢
ولقد ارتكبوا ما ارتكبوا فحرموا الجميع طوال سبعين سنة - باسم

١- يقول : «نادى ذلك المُنَادِي المُضْحَك : الدنيا مزرعة الآخرة» .

٢- مقطع من الآية ١٤٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

الحرية - من حقوقهم البديهة، وانها لوا بالهراوات على رؤوس الناس ليكفوا عن الأصالة والحقيقة، وسعوا إلى إشغالهم وخداعهم بألفاظ الحرية الجوفاء التي لا محتوى لها. فهؤلاء أعمالهم حابطة، وليس لهم يوم القيامة كتاب. مثل فعلهم كمثّل عود ثقاب تشعلونه في مخزن للكتب، فهو كافٍ لإحراق الجميع. ولو كان المرء عالماً مثقفاً مجدداً قد دَوّن عدّة كتب، فإنّ عود ثقاب واحد كافٍ لجعل ذلك طعمة للحريق في لحظة واحدة. ولو حزم المرء كتبه الخطيّة في صرة ثمّ ألقاها في النهر، فإنّ تلك الكتب التي دَوّنت خلال فترة مائتي سنة - مثلاً - ستكفيها لحظة واحدة لتغرق وتضيع. وهذا هو معنى الحَبْط وكيفيته.

فلا عجب - إذاً - من أنّ عملاً صغيراً له القدرة على إتلاف عمل مائتي سنة، إذ إنّ كلمة كفر واحدة يتفوّه بها المرء، تجعله كافراً جهنمياً، وزلزلة واحدة من على قمة جبل أو إهمالاً وعبثاً بسيطاً يمكن أن يهوي به إلى قعر وادٍ مخوف تنسحق فيه عظامه، فيُقبّر هناك إلى الأبد. الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^١.

إنّ أخسر الناس وأفرغهم وفاضاً هم الذين تنتهي جميع نشاطاتهم ومساعيهم وآمالهم الشخصية في الحياة الدنيوية الوضيعة، فيُخيل لهؤلاء المساكين أنّهم كانوا منشغلين بأعمال الخير، مع أنّهم سيخرجون صفر اليدين لأنّهم لم يفعلوا شيئاً في سبيل الله تعالى لينفعهم في عاقبة الأمر، ولأنّهم لم يتنازلوا عن شخصياتهم وغرورهم وعُجبهم، ولم يعملوا من أجل نيل رضا الله عز وجل، وطَيّ طريق لقائه والتقرّب لساحته.

فكانت العاقبة أن صارت أعمالهم لا تساوي في عالم الحقائق ومعيّار

١- الآية ١٠٤، من السورة ١٨: الكهف.

الواقع شروى نقير ، ولو كانت أعمالاً ضخمة مقبولة عند عامة الناس ، لأنها صدرت من نفوس مستكبرة ، ولأنها استهدفت كسب الوجاهة لدى الناس . وستضيع أعمال أمثال هؤلاء وتفنى في العاقبة ، ولن يكون لهم ثمة عمل ليذكر في كتابهم .

وسنذكر في بحث الميزان إن شاء الله تعالى أن ميزان بعض الناس ثقيل ، وميزان البعض الآخر خفيف ، أما هذه الفئة فلا ميزان لها مطلقاً :
فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا^١.

والعلة في ذلك أنهم كانوا يعترضون على الله ورسوله ، ولأن السعي واللاهات خلف الشهرة والجاه منعهم من الاستسلام لأمر الحق تعالى ، وأعمى أبصارهم عن مشاهدة الحقيقة ، فصارت تلوح خلال كلامهم مطالب تُفصح عن إنكارهم وعنادهم .

يقولون : نحن نعتقد بالقرآن ، بيد أننا لا نفهم هذه الآية :
الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ^٢.
ويكذبون ، لأنهم يدركون معناها ويفهمونها حق الفهم ، إذ ليست هذه الآية بمعزل عن سائر الآيات القرآنية ، كما أنها لم تنزل بلغة أخرى مختلفة .

وقد نشرت قبل أيام مقالة في جريدة «اطلاعات» اليومية^٣ ، طبعت في أربعة أو خمسة أعداد تضمنت ترجمة لوصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام كتبها في «حاضرين» ، وكانت

١- مقطع من الآية ١٠٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢- الآية ٣٤ ، من السورة ٤ : النساء .

٣- جريدة «اطلاعات» العدد ١٥٩٢٣ ، ١٦ مرداد ، سنة ٥٨ ، ص ٩ .

الترجمة جيّدة وسلسة ، إلا أنّ المترجم قد ارتكب سرقة خلال الترجمة ، فحذف فقراتها الأخيرة التي تتحدّث عن حجاب النساء ولم يذكر اسمه :
 وَاكْتَفَى عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ
 اسْتَطَعَتْ أَنْ لَا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فافْعَلْ^١ . وهي سرقة صريحة في وضوح النهار .
 ونتساءل : لو أردتم ترجمة كلام أمير المؤمنين لقليل إنكم تقومون
 بترجمة كلامه ، إلا أنكم لا تعتقدون بهذه الفقرات ، وأن مفاد هذه الفقرات
 هي على عاتق أمير المؤمنين وليس على عاتقكم . أمّا حين تقومون بترجمة
 هذه الوصيّة من بدايتها إلى نهايتها ثم تُسقطون منها الفقرة التي لا تنسجم
 مع ذوقكم ، فإنّ ذلك يُعدّ سرقة وتصرفاً في كلام الآخرين .

هذا هو التأثير بالغرب الذي تفوح روائحه العفنة من مسيرة خمسمائة
 فرسخ . يقولون : إنّنا لا نفهم آية : وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ^٢ .
 ونجيب : لا شك أنكم لا تفهمون ، ليست هذه الآية فقط ، بل وكثيراً
 من الآيات القرآنيّة الأخرى ، ولو كنتم تفهمونها حقّ الفهم لا اعتقدتم بها
 ولعلتم بمضمونها . إنكم لم تمسوا القرآن ولم تشموا عباقراً من عبيره ،
 ولا تفهمون ما يتعارض مع طبعكم .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ^٣ .

ونظير هذه الآية ، الآية رقم ٨ ، من نفس السورة : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا
 مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ^٤ .

١- «نهج البلاغة» الرسالة ٣١ ، الفقرة الأخيرة .

٢- مقطع من الآية ٢٢٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣- الآية ٩ ، من السورة ٤٧ : محمد .

٤- الآية ٢٨ ، من السورة ٤٧ : محمد .

وخامساً : من الأمور التي تسبب إحباط الأعمال ، التجاسر على النبي والأئمة ومقام الولاية وما شابه ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ^١.

فلو قال رسول الله - مثلاً - افعل هذا الأمر ولا تفعل ذاك ! فلا تصرخ قائلاً : ليس هذا بالصواب ! وحين يجلس رجلان عند رسول الله فيُصغي إلى كلامهما ، فلا تتدخل وتقول بصوت عالٍ خشن : إن هذا صادق في كلامه ، وذاك كاذب . ولا تقل أمام رسول الله : «إننا سنفعل هذا الأمر ولا نفعل ذاك» ، لأنّ عليك أن تدرك أنّه رسول الله ، وأنّ التقدّم عليه في الرأي والقول والفكرة تقدّم على الحقّ ، وأنّ هذا التقدّم هو عين الضلال ، ومدعاة لإحباط مشوباتك وأعمالك ، مهما كنت غافلاً وتحسب أنّ صراخك ورفعك صوتك وتقديمك رأيك أمر يرتبط بشخصيتك ومقامك .

سمعتُ أحد الثقات يقول : «ذهب أحد المعتمين يوماً لعيادة المرحوم العلامة الأميني رحمه الله في منزله المؤقت في طهران في منطقة «بيچ شميران» ، وكان العلامة صاحب «الغدير» مريضاً قد رقد على ظهره وثقل عليه المرض ، فتحدّث معه وكان من بين كلامه أن قال له : سماحة الشيخ ! إذا لم يكن المرء محبّاً لأبي الفضل العباس - مثلاً - فمن أين سيتأثر إيمانه سلباً ؟

فتغيّر حال العلامة ونهض جالساً بالرغم من مرضه وقال :

١- الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

«دع عنك أبا الفضل عليه السلام ! فلو لم يكن لديك حب لخيطان حذائي ، أنا الخادم من خدام أبي الفضل بسبب خدمتي لأبي الفضل ، لأكتبوك - والله - على وجهك في نار جهنم !» .

وإلى هنا ننهي البحث عن صحيفة الأعمال وتطائر الكتب ، وستحدث في المجلس القادم إن شاء الله تعالى عن موضوع الشهادة . هذا وقد بقي من هذا البحث نكتة في آية الطائر نجعلها خاتمة البحث .
وآية الطائر هي الآية الكريمة :

وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتْهُ طَيْرُهُ فِي غُنْفِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا^١.

وهذه الآية الشريفة لا تقول : ونخرجه يوم القيامة كتاباً ، بل تقول : وَنُخْرِجُ لَهُ... كِتَابًا ؛ والسّر في ذلك هو أنّ أعمال الإنسان التي يفعلها كلّ ساعة وكلّ يوم لها صورة خارجيّة ولها أثر نفساني ، وهذا الأثر والنتيجة والحاصل النفساني - لا نفس الأعمال - هو الذي يلزم نفس الإنسان .
افرضوا - مثلاً - أنّ نجّاراً يقوم بصناعة سرير وكرسيّ من الخشب ، فإنّ ما سيبقى في نفس النجّار ، الأثر الذي حصل في نفسه نتيجة هذا العمل ، والأمر على هذا النحو بالنسبة إلى الحائك الذي يحترف حياكة السجّاد ، والبناء الذي يبني مسجداً ، حيث إنّ أفعالهم لن توجد في نفوسهم في صورها الخارجيّة ، وما سيلزم نفوسهم إنّما هو روح تلك الأفعال وحقيقتها . ويتمثل المراد بتعبير طَيْرُهُ فِي غُنْفِهِ بهذه النتيجة والأثر النفسي للعمل .

على أنّ الإنسان يشاهد يوم القيامة نفس الأعمال التي فعلها في

١- الآية ١٣ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

الدنيا ، إذ إنَّ طائر الإنسان يلزمه في الدنيا وعند الموت وفي البرزخ وفي المحشر ، وسيُشاهد المرء يوم القيامة بهذه النفس - التي يلزمها هذا الطائر - عين عمله وقد نُشر للعيان ؛ ومفاد آية : **وَنُخْرِجُ لَهُ... كِتَابًا هُوَ نَفْسُ مَفَاد آيَةٍ : وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ^١** . ويستفاد من آية : **أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** .

إنَّ هذا الكتاب هو غير الكتب والصحائف العادية التي تُعطى للناس فيقرأونها ، ولو كانت كذلك لأمكن لجميع الناس قراءتها ومحاسبة بعضهم البعض الآخر . ولكن يتّضح من قوله **أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** أنَّ المراد هو الاطلاع والهيمنة والتسلّط الذي يحصل لكل نفس على أعمالها . فالمراد - إذاً - من أمر «أَقْرَأْ» هو قراءة النفس المنسجمة مع ذلك العالم . وهذه الآية في مصافّ الآية الشريفة : **يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ^٢** .

فهنيئاً للذين سلّموا قلوبهم إلى الله سبحانه ، وجعلوها سجلّ تدوين تجليات الحقّ الجمالية والجلالية ، وللذين يخلو كتابهم من غير الله وذكره . نسأله تعالى بحقّ الأطهار والواصلين إلى حريم قدسه أن يعبر بنا من الغفلة والحُجب الظلمانية والنورانية ، وأن يجعل قلوبنا مركزاً للحقّ ، فلا يدوّن في صحائفنا غير ذلك المحبوب الأزليّ الأبديّ .

رهى باشد از این ماتم به آن سور

نمی دانم که نزدیک است یا دور^٣

١- الآية ١٠ ، من السورة ٨١ : التكوين .

٢- الآية ١٣ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

٣- «ديوان حبيب» للمرحوم الميرزا حبيب الله الخراساني ، ص ١٩٩ .

بود دل منزل حقّ ليك ما را
 بود تا دل حجابی سخت مستور
 برو ویرانه کن دل را که چون دل
 شود ویرانه گردد بیت معمور
 طواف و سیر گرد خانه دل
 بود حجّی که مقبول است و مشكور
 گناهی جز خودی نبود چو خود را
 رها کردی تو در ذنب تو مغفور
 بخوان از دفتر دل هر چه خواهی
 که دل را خوانده ایزد لوح مسطور
 بدین دفتر شود اسرار حقّ ثبت
 که خوانندش به مصحف رقّ منشور
 در این مُصحف که انسانست نامش
 بخوان از سورة دل آیه نور^۱

«يقول : «هناك طريق من هذا المآتم إلى ذلك الحفل البهيج ، لكنني لا أعلم أبعيدة هي
 الشقة أم قريبة» .

۱- يقول : «إنّ القلب منزل الحقّ ، لكننا محجوبون عنه بحجاب وستر مستور .
 فاذهب وخزّب القلب ، فسيصبح في خرابه كالييت المعمور .
 وطف حول منزل القلب ، فهو حجّ مقبول ومشكور .
 ليس لك - إلّا نفسك - ذنب ، فإنّ تخلّيت عنها صار ذنبك مغفوراً .
 واقرا في دفتر القلب ما شئت ، إذ دعاه الله لوحاً مسطوراً .
 فهو دفتر تُسجّل فيه أسرار الحقّ ؛ دفتر دُعي في القرآن رقاً منشوراً .
 فاقرا في هذا المصحف المسمّى إنساناً ، وانلو من سورة القلب آية النور» .

دل است آن وادی ایمن که گوید

اَنَا الله ، حَقَّ در او ، از آتش طور^١

بمحمّد وآله الطاهرين ، وصلى الله عليهم أجمعين ، وارحمنا

برحمتك يا أرحم الراحمين .

١- يقول : «القلب هو الوادي الأيمن الذي يقول من نار الطور - إذ الحقّ فيه - أنا الله» .

المجلس الرابع والأربعون

الشهادة على الأعمال، ومواصفات الشهود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
 ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
 وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَاءَ بِالنَّبِيِّينَ
 وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.^١

لقد انتهى بحثنا حول الكتاب وصحيفة العمل ، ونتحدث الآن حول
 موقف آخر من مواقف القيامة ، وهو موقف الشهادة ، حيث تدل آيات
 القرآن الكريم والروايات الواردة من مصادر النبوة والإمامة على أن من
 مواقف القيامة موقفاً يُشهد فيه على أعمال الإنسان وينبغي أن نرى أولاً ما
 معنى الشهادة ، وكيفيتها ؛ - وثانياً - ما هي الأمور التي تجري الشهادة في
 شأنها ، - وثالثاً - من هم الشهداء وما هي الشروط التي يجب أن تتوفّر
 فيهم .

يستفاد من الآية التي مرّت في مطلع البحث أن الكتاب يُوضع فيوتى
 بالأنبياء والشهداء للشهادة ، بينما تكون الأرض قد خرجت من ظلّمتها

١- الآية ٦٩ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

وعتمتها فأشرفت . ثم يُقضى بين الناس في حضور الأنبياء والشهداء ومع وجود الكتاب ، دون أن يلحق بأحد حيف أو جور .
وكما ذكرنا سابقاً فإن ذلك سيحصل : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ،^١
أي يوم تُبَدَّلُ الأرض بأرض أخرى فتظهر روحها وحقيقتها مشرقة
مضيئة ، ثم تُنشر مجدداً الأعمال التي فعلها الإنسان على هذه الأرض
فتطوى الواحد تلو الآخر ويختل للإنسان يومذاك أنها ضاعت .
فيتبدل يومئذ ذلك الخفاء والعممة نوراً وإضاءة وإشراقاً . أي أن ذلك
الكتاب وتلك الأعمال التي فعلها الإنسان على الأرض ستظهر وتشرق
وتتجلّى .

ثم يؤتى بالأنبياء والشهداء للشهادة على أعمال الإنسان ، فيُقضى
بينهم . أي يُقضى على الإنسان بالحكم الذي يجسد نتيجة أعماله التي
ارتكبها ، ثم يُعرض للجزاء المنسجم مع ذلك الحكم .
والشهادة تعني الحضور ؛ والشهيد والشاهد بمعنى واحد ، ويُقال
للشهيد في المعركة شهيداً لأنه يحضر في محضر الحق تعالى حين يرحل
عن الدنيا، فيصبح حياً مخلداً ؛ أو أنه بمعنى اسم المفعول - لأن القتل
بمعنى المقتول - أي أن الملائكة تحضره عند موته ، فهو مشهود أمام
صفوف ملائكة الرحمة ، وهذا هو معنى الشهادة .

عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ^٢

وتدعى الشهادة شهادة لأن الشاهد يحضر فيشهد ؛ لذا يقال للشاهد
شهيداً . وللشهادة مرحلتان : مرحلة التحمل ، ومرحلة الأداء .

١- الآية ٤٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٢- مقطع من الآية ٤٦ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

فإن أراد المرء الشهادة في أمر معين ، فعليه - أولاً - أن يذهب فيرى ذلك الأمر ويشاهد عياناً خصوصياته التي يريد الشهادة بشأنها ، ثم عليه بعد ذلك أداء الشهادة عند القاضي . ويُدعى الذهاب والرؤية والاطلاع على تلك القضية تحملاً للشهادة ، بينما تدعى الشهادة عند القاضي أداءً للشهادة .

وإذا شاء شخص ما الشهادة في الموضوعات المختلفة ، فالواجب أن يكون مطلعاً على حقيقة تلك الموضوعات ، فإن شاء - مثلاً - الشهادة عند القاضي أنه رأى زيداً في الساعة الفلانية وفي المكان الفلاني ، فينبغي له أن يكون قد رأى زيداً في تلك الساعة وذلك المكان . وسيدعى ذهابه إلى ذلك المكان ورؤيته زيداً هناك في تلك الساعة تحملاً للشهادة ، لأنه حصل من خلال ذلك على علم واطلاع في ذلك الشأن ، ثم إنه يأتي إلى القاضي فيشهد بما رأى ، لأن الرؤية هي موضوع الشهادة .

أما لو أراد أداء الشهادة بأنه رأى زيداً يصلي ، فإن قيدا قد أُضيف في هذه الحال إلى أساس الرؤية . وينبغي أن يكون قد تحمّل الشهادة على هذه الكيفية . أي ينبغي أن يكون قد ذهب فرأى زيداً يصلي ، ليأتي - من ثم - فيشهد بذلك ، فإن كان قد رأى زيداً في غير حال الصلاة ، عجز عن الشهادة بأنه رآه يصلي .

ولو أراد كذلك أداء الشهادة عند القاضي بأنه رأى زيداً يصلي مؤدياً مستحبات الصلاة ؛ كأن يكون قد ارتدى عمامةً وبسط سجادة يصلي عليها ، وتختّم في يده اليمنى بخاتم من عقيق ، وكان نظره في صلاته إلى موضع سجوده ، وغير ذلك من المستحبات ، فينبغي أن يكون قد شاهد زيداً يصلي مع جميع هذه الأوصاف والخصوصيات . فيمكنه - بعد ذلك - الشهادة بكل واحدة من الخصوصيات التي عاينها ، من التعطر ولبس الخاتم وغير ذلك . فإن لم يكن قد عاين واحداً من تلك الخصوصيات ، تعذرت

عليه الشهادة في تلك الخصوصية .

ولو شاء - مثلاً - أن يشهد عند القاضي بأنّ زيداً كان يصلي مؤدياً جميع الآداب المستحبة والخصوصيات المذكورة بحضور قلب والتفات كامل إلى الحق تعالى ، بحيث إنّ فكره وذهنه ملتفتان إلى الله تعالى ، وأنه نوى بعمله ذاك القربة إليه سبحانه ، لا رياءً وسمعةً ولا خدعةً وتصنعاً ، وأنه كان يصلي لله وفي سبيل الله بحضور قلب والتفات ذهن ؛ فإنّ عليه أن يرى زيداً حال الصلاة مع تلك المستحبات ، ويرى - كذلك - أنّ لزيد حضور قلب والتفات ذهن إلى الله تعالى وفي سبيل الله ، ليأتي - في المرحلة اللاحقة - فيشهد عند القاضي ، وإلاّ تعذرت عليه الشهادة .

ومن الجلي - بطبيعة الحال - أنّ مثل هذه الشهادة على حضور قلب زيد في الصلاة لا تتيّسر لأيّ كان . فأتى للمرء أن يعلم أنّ زيداً كان يصلي بحضور قلب ؟! إذ لو كان زيد قد أصلح ظاهره ووقف تجاه القبلة للصلاة ، ناظراً إلى محلّ سجوده ؛ فإنّ ظاهره الحسن لا يدلّ على التفات ذهنه وحضور قلبه . فقد يخضع البدن وتسكن الحواس ، إلاّ أنّ الذهن يبقى مضطرباً مشوشاً .

ويجب على من يريد الشهادة على حضور قلب زيد في الصلاة أن يكون مطلعاً على قلب زيد ، عالماً بالخطرات المارة على ذهنه ، وإلاّ تعذرت عليه الشهادة بذلك .

وبعد أن اتّضح هذا الأمر نشرع بالكلام عن شهادة الأنبياء والشهداء يوم القيامة حين يريدون الشهادة على أعمال الناس . فأتي شهادة هي يا ترى ؟

أيشهدون بأنّ زيداً وقف للصلاة متّجهاً إلى القبلة ؟ أم يشهدون بأنّه صلى صلاة صحيحة بحضور قلب والتفات ذهن وقصد قربة ؟

من الواضح أنَّ الأمر الأخير هو المقصود، إذ لا قيمة لنفس الصلاة لو جُرِّدت من روحها وشُرَاطِها المعنويّة. فصلاة الرياء صلاة مرفوضة وغير مقبولة. فالصلاة التي يضطرب الذهن خلال جميع حركاتها وسكناتها وأقوالها وأفعالها، حتّى خلال تكبيرة الإحرام فيها، والتي يكون المرء خلالها هدفاً لهجوم الأفكار والخواطر المشوّشة مرفوضة وباطلة. وعلى هذا الأساس فإنّ الخصوصيّات الواقعيّة لهذه الصلاة ولهذا الصيام والحجّ والجهاد ولكلّ عمل يفعله الإنسان يجب أن تكون مشهودة للشاهد، وأن يكون الشاهد حاضراً أثناء وقوع الواقعة ليتحمّل الشهادة قبل أدائها. ويتوجّب أن يتحلّى بهذه الخصوصيّة، من يتحمّل الشهادة على أعمال الإنسان يوم القيامة. ونلاحظ - من جهة أخرى - أنَّ القرآن الكريم يقول بأنّ الشهداء والنبيّين يشهدون على عمل الإنسان، فيجب - إذاً - أن يكونوا حاضرين معه.

وحين يشهد الأنبياء والشهداء على كلّ واحد من أفراد الأُمّة، فيتّضح أنّهم حاضرون مع كلّ فرد في كلّ لحظة من حياته، الحاضر والغائب، الموجود والمعدوم. وأنّهم حاضرون في الخلوة والجلوة، والنوم واليقظة، والحركة والسكون، وفي الكسب والعمل، خارج البيت وداخله، وأنّهم مطلعون على جميع خصوصيّات أعمال الإنسان. وهذا الأمر لا يختصّ بفرد واحد أو فردين، بل يشمل جميع أفراد الأُمّة، الغائب منهم والحاضر. وإنّا نرى أنّ الأفراد العاديّين عاجزون عن الشهادة في جميع شؤون الحاضرين حولهم وخصوصيّاتهم فضلاً عن الغائبين، وكذلك عاجزون عن بيان خصوصيّات الشهادة على النوايا القلبيّة والوجه الباطني والحققيّ للأعمال خلال الأزمنة والأمكنة القريبة، فضلاً عن الأزمنة والأمكنة

المتباعدة .

إذاً فشهادة الأنبياء والشهداء على أعمال أمهم ، بما فيهم الحاضر والغائب ، القريب والبعيد ، شهادة على حقيقة أعمالهم لا على ظاهرها ، وذلك ممّا لا يتيّسر لكلّ أحد .

ويجب أن يكون الشهود ممّن يستوي لديهم الغيب والحضور ، والخفاء والعلن ، والقريب والبعيد ، والظاهر والباطن ليتمكنهم تحمّل الشهادة وأدائها في المرحلة اللاحقة . أي أن يكونوا ممّن لهم اطلاع على الضمائر والسرائر ، وعلى الأسرار والأفهام ، مثل اطلاع الإنسان على نفسه . إنّنا مطالعون على أنفسنا وعلى نوايانا وأعمالنا ، ونعلم ماذا فعلنا في الساعة الفلانية والمحلّ الفلانيّ ، وماذا كانت نيتنا ، وقصدنا من ذلك العمل ، ونعلم مدى حضور قلبنا أثناء الصلاة التي صلّيناها ، وهل كان سلامنا على زيد لله تعالى أو لقصد دنيويّ ، ونعلم قصدنا من الاحترام والتبجيل الذي أبديناه لفلان ، ولو خفي ذلك على أصحابنا ورفقائنا .

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ^١

ويجب أن يكون أولئك الشهداء المقتدرون الذين يشهدون يوم القيامة مطلّعين على أعمال كلّ فرد من أفراد الأُمّة الذين يريدون الشهادة عليه ، أكثر من اطلاع ذلك الفرد على نفسه .

وتتضح أجوبة هذه المسائل تلقائياً من المطالب التي أوردناها سابقاً وذكرنا فيها أحوال المقرّبين والمخلصين وخروجهم عن حدود الزمان والمكان وبلوغهم مقام التجرّد ، وأن لا سبيل للشيطان عليهم ، وأن ليس لهم حساب ولا كتاب ولا عرض ولا حضور ، وأنّهم يجدون سيطرة

١- الآيتان ١٤ و ١٥ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

علمية وحقيقية على عالم الإمكان وعالم الخلقة .

أي أن الذين يمكنهم الشهادة هم الذين تخطوا مضيق الجهات وعالم الطبع والنزعة المادية وحب الدنيا ، والذين تجاوزوا الأمور التي تحجب النفس وتحصر مدركاتها بالأمور التي تربط الإنسان بالخارج عن طريق الحواس الظاهرية ، حيث لا تنحصر حواسهم بالحواس الخمس الظاهرة ، فقد صارت حاستهم السادسة يقظة فعالة ، وتفتحت بصائرهم وأصبحت أرواحهم ذات سيطرة وهيمنة .

وبعبارة أخرى فإنهم يمثلون موجودات تعيش في هذا العالم أو ارتحلت عنه ، إلا أنها تمتلك إحاطة علمية بجميع الموجودات ؛ ولو لم تكن كذلك لتعذرت عليها الشهادة بهذه الكيفية . وينبغي أن يكون الأمر كذلك ، لأن الأفراد الذين يشهدون يوم القيامة ، إنما يشهدون بإذن الله تعالى ، إذ لا حق لأحد في الكلام ذلك اليوم إلا بإذن الحق تعالى وتقديس :
يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ^١.

ومن هنا فمن المسلم أن أولئك الشهداء الذين يريدون الشهادة ، إنما يشهدون بإذن الله تعالى ، وهذا الإذن ليس إدناً شكلياً . بل ينبغي - إضافة إلى الشرف الحاصل للمأذون بالكلام بإذن الله سبحانه - أن يكون له قدرة على الكلام بصورة صحيحة في عالم التكوين والحقيقة ، وينبغي له - إذ

١- الآيات ١٠٥ إلى ١٠٨ ، من السورة ١١ : هود .

يريد الشهادة - أن يكون قد سبق له تحمّل الشهادة . أمّا من لم يتحمّل الشهادة ولم يتحمّل أعمال العباد بالكيفيّة التي ذكرت بجميع وقائعها وخصوصيّاتها وسرائرها وبواطنها ، فكيف سيمنّكه أداء الشهادة ؟ لأنّ الشهادة في ذلك العالم هي الشهادة بالحقّ .

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ
وَقَالَ صَوَابًا^١.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ^٢.

وسيّأتي إن شاء الله تعالى في بحث الشفاعة اللاحق، أنّ أصحاب حقّ الشفاعة هم الذين يشهدون بالحقّ . فمن هنا ينبغي أن تكون هذه الشهادة بالحقّ وعن علم ، وكون الشهادة عن علم يلزم أن تتبعها الشفاعة .

وعلى هذا الأساس فإنّ الذين يشفعون عند الله تعالى هم أصحاب الشهادة أي الذين يشهدون بالحقّ ، والذين لهم علم واطّلاع على حقيقة ما يشهدون به . وربما يعسر بداية الأمر تصوّر كيفيّة مجيء شخص واحد وشهادته على أعمال ملايين البشر ؟ أيّ ذهن هذا ؟ أيصبح ذهن الإنسان ماكنة حساب إلكترونيّة (الحاسوب) ليمنّكه يوم القيامة الشهادة على أعمال جميع البشر من زمن آدم إلى يوم القيامة في كلّ لحظة وكلّ مكان وبهذه الخصوصيّات .

إنّ أجهزة الحاسوب تعجز عن إنجاز هذا العمل ، لأنّها قادرة على حلّ بعض المسائل الرياضيّة ، أمّا الإخبار عن البواطن والضمائر فأمرٌ خارج

١- الآية ٢٨ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

٢- الآية ٨٦ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

عن عهدها إذ لا شأن لها إطلاقاً بالواطن، لأنها آلات مادية وستتضح هذه المسألة بمثال واحد إن شاء الله تعالى .

عندما يذهب الطفل إلى المدرسة فتعطونه كتاباً وتقولون له : اقرأ هذا الكتاب ! فإن كان يعرف القراءة ، فإنه سيقراه سطرأ فسطراً بتأنٍ وتأخير ، ينظر إلى السطر الأول فيقرأه ، ثم السطر الثاني والثالث والرابع ، وربما يصل إلى السطر الرابع أو الخامس فينسى مطالب السطر الأول ، إذ لا يمكن لذهنه احتواء جميع المطالب .

وحين يريد حفظ شعر معين - مثلاً - فإنه يحفظ البيت الأول ، ثم يصل إلى البيت الثاني فينقطع ارتباطه مع البيت الأول ، ثم يحفظ البيت الثالث فيزول ارتباطه مع البيت الثاني . ثم يتوجب عليه أن يتذكر الشعر من القرائن والأشباه وبالترتيب ، فإن شاء قراءة البيت الخامس - مثلاً - فعليه قراءة البيت الأول حتى يصل إلى البيت الخامس .

وعلى هذا الأساس فإن الأطفال الذين يحفظون قصيدة طويلة لا يمكنهم تلقي المعنى والمفهوم الموجودان في تلك القصيدة ، ولا إدراك خلاصة المطالب وإجمالها . أما الكبار فليسوا على هذه الشاكلة . إذ إنهم لو قرأوا قصيدة من ألف بيت ، كتائية ابن الفارض ، ثم سُئلوا بعد ذلك عن مضمون القصيدة ، لقالوا إن المضمون كذا وكذا ، وإن القصيدة تدور حول الموضوع الفلاني . كما أنكم لو قرأتم كتاباً خلال ليلة واحدة ثم سُئلت عن محتويات الكتاب لذكرتموها بالتفصيل . ولو وُضعت أمامكم صفحة مكتوبة فنظرت فيها من أعلاها إلى أسفلها ، لذكرتم ما كُتب فيها ؛ ولو سُئلت ماذا كان في الجريدة المسائية لأجبتكم عما فيها إجمالاً .

وكل ذلك بواسطة سعة الذهن وإحاطته التي تمكنه من ضم المطالب المتفرقة بسرعة ، ثم الحكم عليها . أما الطفل فيفتقر إلى مثل هذه السعة

والإحاطة .

وهذا الأمر ينطبق كذلك على العلوم الإلهية التي يستلزم تحصيلها بذل الجهود ، ومن ثم فإنّ الأفراد الذين لم يضعوا أقدامهم في هذا المضمار ستبقى علومهم محدودة ضمن دائرة إدراكاتهم العادية ، أما حين يتعرّفون على الحكمة العملية ويسيروا في ميدان الرياضات الشرعية ويخطّون - بحول الله وقوته - في طريق السير والسلوك إلى الله تعالى بقدم صدق وعزم راسخ متين ، فإنّ علومهم ستقترن بالتقوى والنور ، وسيوجب ذلك نشأة العلوم الخفية والأسرار الكامنة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَثَهُ
اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^١.

ومن هنا فإنّ العمل والتهديب وتزكية النفس وتنزيه القلب من صدا حبّ الدنيا والعلائق والعوائق المانعة من إشعاع نور الأحديّة في القلب ، وتصفية الباطن وغسل صفحة الضمير والذهن من غير الله تعالى سيؤدّي إلى تجلّي نور الله سبحانه .

جاء في الرواية : اتَّقُوا فَرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ^٢.
أفهل من العسير ، إذا ما شاء الله سبحانه ، إيجاد علم معرفة أعمال العباد والاطّلاع على سرائرهم وضمائرهم ؟ كلاً ؛ إنّ الله تعالى عالم بخفايا ومكنونات كلّ موجود من الموجودات ، كما أنّ من ساروا في طريق رضا الله تعالى وبلغوا مقام القربة إليه ، فصاروا من المقربين والمخلصين والمنزّهين ، صاروا يرون بنور الله وبإذنه ، وصار علمهم علم الله سبحانه ،

١- «بحار الأنوار» ج ٩٢ ، ص ١٧٢ .

٢- «بحار الأنوار» ج ٦٧ ، ص ٧٤ .

لا علماً منفصلاً عن علمه سبحانه .

لقد صقل هؤلاء قلوبهم ، وأناروا بنور المجاهدة أرواحهم ، فصفت عن الغلّ والغش والظلمة . وحين يشرق نور الله فيهم ، فإنّ كلّ صفحة من الموجودات والكائنات الخفية والظاهرة ستتصوّر وتجلّى فيهم كما تنعكس الشمس في المرآة الصقيلة وفي الماء الصافي الساكن بلا موج . لكأنّ فيهم شمساً لا تتفاوت بلحاظ الجمال والتلألؤ والإشراق مع الشمس الحقيقية ، شمساً من آثارها بعث الحرارة والنور والدفع .

وحين ينجلي القلب وينصقل فسيتجلّى فيه الجلال والجمال الإلهيين والأسماء الملكية والملكوتية الإلهية . فالمؤمن - إذأ - يرى وينظر عندها بنوره ويتحمّل الشهادة ويؤدّيها . وكذلك المخلصون والمقربون الذين لهم هذه الصفات ، وحتى البعض ممّن خطى خطوات في طريق معرفة الحقّ تبارك وتعالى واكتسب صفاءً يتناسب مع مسافة الطريق الذي طواه والإخلاص الذي اكتسبه ، إلّا أنّه لم يصل مقام المخلصين ، فإنّه سيتمكّن من تحمّل الشهادة وأدائها بنفس القدر الذي اكتسب والحدود التي طوى .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُون * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ^١

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ^٢

وقد ذكرنا أنّ الكتاب ليس ورقة مكتوبة تُعطى للإنسان في يده ، بل هو عبارة عن حقيقة أعمال الإنسان التي قام بها في عالم الوجود فدونها

١- الآيات ١٨ إلى ٢١ ، من السورة ٨٣ : المطففين .

٢- الآيات ٧ إلى ٩ ، من السورة ٨٣ : المطففين .

عالم الخلقة وكتاب التكوين ، حيث يُستنسخ منه ذلك القدر المتعلق بالإنسان فتصبح تلك الأعمال الخاصة بكل شخص مشهوداً لديه ، سواء كان ذلك الفرد مؤمناً أم كافراً . كتاب المؤمنين يأتيهم من قبل أئمة الحق ، أي أنّ أئمة الحق يدعون المؤمنين بكتبهم ، كما أن كتب الفجار والكفار تأتيهم من قبل أئمة الباطل ، حيث يدعو أولئك الأئمة مأمومهم إلى كتبهم من جهة الشقاء .

وقد ذكر أنّ جميع ذلك منطوي في الإمام المبين ، وأنّ جميع الكتب التي تصل من قبل أئمة الحق ومن قبل أئمة الباطل تنطوي تحت هيمنة مقام الولاية الكبرى الإلهية وإشرافها .

وينبغي العلم بأنّ مقام الشهادة مختصّ بأئمة الحق ، وأنّ أئمة الباطل لا قدرة لهم على الشهادة ، ويمكنهم فقط دعوة أممهم إلى كتبهم . والعلة في ذلك أنّ أئمة الحق في جهة النور والإشراق والعلم والحياة :

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ^١.

أمّا أئمة الباطل فليس في جهتهم إلّا الظلمة والعمى والجهل والبلاء

والضيق :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ^٢.

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا^٣
وحين يكون أئمة الباطل عمياناً ، فكيف يشهدون على أعمال

١- صدر الآية ٢٥٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- مقطع من الآية ٢٥٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣- الآية ٧٢ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

أتباعهم؟ مثلهم كمثل أعمى يقود أعمى آخر، ثم يأتي ثالث فيقودهما معاً، ويأتي رابع فيقود الثلاثة وهكذا...

ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ لَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^١.

ومطلع هذه الآية كالتالي: أَوْ كَظَلَمْتُ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ.

وشتان بين من يخلق بالطائرة في عنان السماء فوق الغيوم، متحركاً في هدى ضوء الشمس الساطع، ينظر إلى العالم فيرى مشرقه ومغربه وفضاءه المشرق وأرضه، وبين من يغوص تحت الماء في عمق عشرة آلاف متر، قد طبقت عليه اللجج المتراكمة، وتلاطم فوق رأسه الموج والطوفان، وحجبت الغيوم السوداء الكثيفة السماء فأظلم منها البحر! وأنى له أن يرى سبيله في أعماق ذلك البحر الخضم المظلم!

إنّ الأسماك التي تعيش في أعماق البحر لا أعين لها، إذ ليس هناك من نور لتحتاج إلى أعين للإبصار. ولو فرضنا أنّ سمكة من أسماك السطح ذهبت إلى أعماق البحر وتمكنت من مقاومة ضغط الماء مدة من الزمن، فإنّها ستفقد بصرها في النتيجة. ويُقال إنّ الإنسان لو بقي ستة أشهر في موضع لا منفذ فيه للنور، فإنّ من المسلم أنّ عينه ستفقد إبصارها ويصاب بالعمى.

بلى، هذه هي نتيجة الظلمات وثمرتها. يقول القرآن الكريم: إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ لَهَا.

وإذا كان أئمة الباطل بلا نور، وكانت أممهم - بدورها - بلا نور، فبأي

١- النصف الثاني من الآية ٤٠، من السورة ٢٤: النور.

شيء سيشهدون يا ترى ؟ وحين يُغلق في وجوههم سبيل العلم ، فلن يكون لهم اطلاع على باطن أحد ولا معرفة لسر أحد ، إذ ليس هناك إلا الظلمة فوق الظلمة .

ومن هنا فإنّ المقربين ذوي النور والعلم والدراية هم الذين يمكنهم تحمّل الشهادة وأداءها . وقد ورد في الآية القرآنية الكريمة :

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^١ .

إنّ أعمالنا ليست خافية على الله عزّ وجلّ ، إلّا أنّ العجيب أنّها ليست أيضاً خافية على النبيّ وعلى المؤمنين . فكيف - يا ترى - يرافق النبيّ والمؤمنون عمل الإنسان ويسايرونه في الزمان والمكان بحيث يرون ذلك العمل ويشهدون عليه ؟

نعم ، إنّ المؤمنين الحقيقيّين يتبعون سنّة رسول الله وسيرته ، فيرون الإنسان ويطلعون على أعماله في الغيب والشهود .

ولم يكن أصحاب رسول الله بأجمعهم ذوي صفاء ووفاء ، بل كان فيهم منافقون مردوا على النفاق ، وكانوا يحذرون من إثارة الفتن وإفشاء الكثير من الأسرار التي لديهم خوفاً من أن ينزل الوحي في اليوم التالي فيُخبر رسول الله ، وكذلك خوفاً من أن يفضحهم رسول الله . وحين كان الوحي ينزل فيكشف لرسول الله بعض أعمالهم ، فكانوا يتساءلون : مَنْ أخبرك بهذا ؟ فيقول صلى الله عليه وآله : أخبرني ربّي ، أنبأني ربّي !

وقد جاء في سورة التحريم أنّ بعض نساء رسول الله كنّ يفشين بعض أسرارهنّ إلى خارج بيته ، مع أنّ رسول الله أخذ عليهنّ عهداً بأنّ

١- الآية ١٠٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

لا يُبْحَنُ بِذَلِكَ لِأَحَدٍ .

وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ^١.

ولقد تعاونت تلك المرأة مع إحدى أزواج رسول الله على إفشاء سره ، فنزلت هذه الآية : إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ^٢ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ^٣.

وقد أورد الزمخشري في تفسيره «الكشاف» : «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ» خَطَابٌ لِحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِتْفَاتِ لِيَكُونَ أَتْلَغَ فِي مُعَاتَبَتَيْهِمَا . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنْهُمَا حَتَّى حَجَّ وَحَجَّجْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَّ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ فَسَكَبْتُ الْمَاءَ عَلَى يَدِهِ فَتَوَضَّأَ ، فَقُلْتُ : «مَنْ هُمَا» ؟ فَقَالَ : «عَجَبًا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ» ! كَأَنَّهُ كَرِهَ مَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : «هُمَا حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ»^٤ .

إِنَّ النَّاسَ يَتَصَوَّرُونَ عِنْدَمَا يَذْهَبُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

١- الآية ٣ ، من السورة ٦٦ : التحريم .

٢- المقصود به علي بن أبي طالب عليه السلام وفقاً لروايات العامة والشيعة .

٣- الآية ٤ ، من السورة ٦٦ : التحريم .

٤- «تفسير الكشاف» ص ١٥٠١ من الجزء الثاني . طبعة كلكتا ، سنة ١٢٧٦ هجرية ، وهي أقدم طبعة لـ «الكشاف» مطبعة ليسبي ؛ وص ٤٧١ في الطبعة الأولى للمطبعة الشرفية سنة ١٣٠٧ ؛ وص ٥٦٦ في طبعة دار الكتاب الإسلامي - بيروت ، لبنان ، سنة ١٣٦٦ . وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» ذيل الحديث : هذا حديث مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وسلم إلى البيت ويأوي إلى فراشه فإنه يرقد كمثلي أي جسم معدني جامد ، وأن جميع حواسه وإدراكاته وإحساساته تعتمد على جسمه المادي وتعامل مع العالم الخارجي حين يكون مستيقظاً فقط ، بينما الأمر ليس كذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وآله يقول بأن عينه تنام إلا أن قلبه لا ينام . أي لا فرق بالنسبة إليه بين اليقظة والنوم ، وبين الغيب والشهادة ، ولا فرق بين وجوده في المنزل أو في المسجد ، ولا بين حياته أو موته ، لأن كل ذلك بالنسبة إليه يقظة وشعور وعلم وإدراك وحياة .

مَيْتَنَا لَمْ يَمُتْ وَمَقْبُورُنَا لَمْ يُقْبَرْ .

أى صاحب وحي و قلب آگاه	دارای مقام لى مع الله
ای محرم بارگاه لاهوت	وى در ملكوت حق شهنشاه
ای برشده از حضيض ناسوت	بر رفرف عز و شوكت و جاه
وانگه ز سُرادات عزت	بگذشتى و ماند امين درگاه
ای پایة قدر چاکرانت	بالا تر از اين بلند خرگاه
از شرم تو زرد شد چهره مهر	وز بيم تو دل دو نیم شد ماه
این بوى بهشت عنبرين است	يا ذکر جميل تو در افواه ^١

١- «ديوان كمباني» للمرحوم آية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني ، ص ٩ و ١٠ .
يقول : «يا صاحب الوحي والقلب اليقظ الخبير ، ومن له مقام «لي مع الله» .
أيها المؤمن على حريم اللاهوت ، والمَلِك في ملكوت الحق .
أيها الخارج من حضيض الناسوت ، والمتربّع على رفرف العزّ والجاه والشوكة .
يا من تخطى سادات العزّ ، بينما توقّف عندها أمين الحرم الإلهي .
ويا من أدنى خدامك قدراً ، أعلى من ذروة هذا الكون .
طلعة الشمس صفراء خجلاً منك ، وقلب القمر منشقّ نصفين هلعاً منك .
أهذا عطر عنبر الجنة أم جميلُ ذكرك في الأفواه ؟ » .

از نیل تو پای وهم لنگ است وز دیل تو دست فهم کوتاه
فرموده به شانت ایزد پاک لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ^١

وسواء للإمام موته وحياته ، لأنه ليس موجوداً مادياً . ولا نرمي بذلك أنه ملك لا بشر ، بل الشيء المهم أنه - مع بشريته - قد نال هذا المقام وهذه الدرجة . ولو كان ملكاً لجعل الله تعالى حسابنا حساباً منفصلاً ، ولتمت لنا الحجة على الله تعالى يوم القيامة . إذ سنحتج لديه قائلين : يا إلهنا ! لقد خلقت أفراداً ملكوتيين عالمين بالغيب ، وخلقنا عبداً مبتلين بالمادة والطعام والأهل والولد والعيال ، فنحن عاجزون عن متابعة الأنبياء في أفعالهم .

يقول تعالى إن هؤلاء الأنبياء بشر مثلكم ، لهم أبدان وحواس ، فهم يحسنون بالابتلاءات ، ويعانون من أذى أممهم ، ويذوقون ألم الفقر والفاقة ، كما يدركون طعم اللذائذ ، بيد أنهم تخطوا جميع هذه الأمور بقوة التوكل والصبر والمصابرة ، وتحركوا في هذه المسيرة الصعبة فبلغوا مقصودهم .

أما أنتم فجلستم وتسمرتن في أماكنكم وتعلتتم بـ «ليت ولعل ولم وبم» وسوف وأنّ وأمثالها . ولقد كانوا أهل المجاهدة والمثابرة ، وكنتم أهل الكسل والفشل والتشاغل والتواكل .

وخلاصة القول : وَقُلِ اعْمَلُوا ، أي اعملوا ما شئتم أن تعملوا

١- يقول : «قدم الوهم عرجاء من أن تنالك أو ترقى إليك ، ويد الفهم قاصرة عن نيل أذيالك .

وقد قال^٢ بشأنك الخالق المنزه : لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ .

٢- إشارة إلى حديث : «لي مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل» . (م)

فلن يجبركم اليوم أحد على ترك أعمالكم ، فأنتم مختارون . ولكن !
فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

انتبهوا فإن الله سينبئكم بأعمالكم ، بأي لحاظ ؟ بلحاظ أن الرسول
والمؤمنين يطلعون على أعمالكم . وهذا يعني أن من طرق إخبار الله
الإنسان بعمله ، تحمّل الشهادات التي لرسول الله والمؤمنين على أعمال
الإنسان . فعلم رسول الله وعلم المؤمنين - إذأ - قد اندك في علم الله عز
وجل ، وهو أمر ينطوي على لطائف تبين إعجاز القرآن في بيان المعارف
الإلهية وكيف يعلمنا - بكلمات قصار معدودة - كتاباً من الحكمة والحقيقة .
وعندما تشرّفت في الصيف الماضي بزيارة مشهد المقدسة ، التقيت
بأحد علماء الحوزة العلمية في قم ، وكان قد قدم للزيارة ، فتلوت له آية من
القرآن الكريم تتحدث عن النهي عن ولاية الكفار ومودّتهم . وكانت فيها
نكتة ذكرتها له ، فتعجب كثيراً وقال : ما أعجب إعجاز القرآن ! لقد قرأت
هذه الآية من قبل مائة مرة ، بل ألف مرة ومرة دون أن ألفت إلى هذا
المعنى .

وكنْتُ - بدوري - لم ألفت إلى هذه النكتة سابقاً ، وصادف أن حللتُ
في أحد الفنادق ، وكان معي كراسة صغيرة أطلع فيها ، فلاحَت أمامي هذه
الآية الكريمة ، فأحسست عند رؤيتها بالعجب من معناها . وهي :
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا .^١

أي أنكم إذا تولّيتُم الكفار فإنهم سيُسلّطون عليكم ويصبحون ذوي

١- الآية ١٤٤ ، من السورة ٤ : النساء .

قدرة ومنعة فيجعلون أرواحكم وأموالكم ونواميسكم وأعراضكم في معرض الهلاك والبوار ، ويسترقونكم ويستعبدونكم ويذلونكم ويقضون عليكم .

والملفت للنظر هنا قوله إن قدرتهم وسلطتهم التي وردت عليكم هي قدرة الله تعالى . أَفَتَرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ إن قدرة الكفار وتسلطهم عليكم هي عين قدرة الله وسلطته ، فلا تعتبروا حولهم وقوتهم من قبل أنفسهم ، بل الحول والقوة والقدرة مختصة بالله تعالى ، فأنتم - بمودتكم للكفار وتوليكم لهم - قد جعلتم قدرة الله وسلطته عليكم ، وجعلتم أنفسكم منكوبين مخذولين باختياركم الوقوع تحت ضربات القدرة الجلالية الإلهية بأيدي الكفار الذين ليسوا إلا آلة مسخرة .

وقد ورد شبيه لهذه النكتة في الآية مورد البحث ، وهي أن رسول الله والمؤمنين يتحملون الشهادة على الناس ، الذين يساقون إلى ربهم فيكون إنبأؤه إياهم بأعمالهم بواسطة شهادة هؤلاء الشهداء كإنبأؤه هو بنفسه لهم ؛ كما أن تحمل الشهادة وأداءها من قبل رسول الله والمؤمنين هي عين شهادة الله .

يروى علي بن إبراهيم القمي (المقدم على محمد بن يعقوب الكليني) في تفسيره (وهو من نفائس التفاسير) عن الإمام الصادق عليه السلام :
 إِنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تُعْرَضُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ أَبْرَارِهَا وَفُجَّارِهَا ، فَاحْذَرُوا وَلَيْسَتْ حِي أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْْرِضَ عَلَى نَبِيِّهِ الْعَمَلِ الْقَبِيحَ .^١

وأورد العياشي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل

١- «تفسير القمي» ص ٢٧٩ و «المعاد» للعلامة الطباطبائي ، نسخة خطية ، ص ٤٠ .

عن المراد بالمؤمنين في الآية : وَقُلِ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ ، فقال : هُمُ الْأَيْمَةُ^١.

والأخبار الواردة في هذا المجال تفوق حد الاستفاضة ، وتخص بها
كتب الحديث والتفسير .

فلا تتصوروا أنّ كلّ من فاه بالشهادتين ، ثمّ انساق وراء الفسق
والفجور سيتمكّن - بانتحال الإيمان - من الإخبار عن بواطن الأعمال ، لأنّ
المراد بالمؤمنين في الآية هم الذين بلغوا مقام الإيمان الحقيقي ونالوا درجة
اليقين وارتقوا سلم الإنسانيّة وبلغوا مقام الكمال فصاروا من المقربين .
وقد جاء في العديد من الروايات أنّ الأعمال تُعرض على إمام العصر
عجلّ الله تعالى فرجه كلّ أسبوع ، فيفرح بصالح أعمال الناس ، ويحزن
على سيئها وطالحها .

وبطبيعة الحال فقد شوهد بين المؤمنين المتّقين العارفين بالله ، من له
اطّلاع على الغيوب والضمائر والسرائر ، ولكن بالطبع ليس بالدرجة
الموجودة لدى الإمام عليه السلام ، بل بمراتب أدنى وأقلّ .

وقد كان لي صديق من أهالي النجف الأشرف يُدعى الحاج
عبد الزهراء الكرعاويّ النجفيّ ، وهو ينتمي إلى قبيلة الكرعاويّ بيد أنّه
عاش في النجف منذ صباه وترعرع فيها . وكان رجلاً فطناً سريع الانتقال ،
حاضر البديهة ، وكان - في الوقت نفسه - متديّناً وعاشقاً من عشاق أبي
عبد الله الحسين عليه السلام . وكان كثير البكاء والتضرّع ، لذا كانت له
مكاشفات صوريّة ومثاليّة .

وكان مقرّ عمله في بغداد ، أمّا منزله ففي مدينة الكاظميّة . وكان

١- «تفسير العياشي» ج ٢ ، ص ١٠٩ .

يملك سيارة شخصية يقودها بنفسه . وقد اعتاد هذا الصديق على الذهاب إلى كربلاء للزيارة كل ليلة جمعة، وفي كثير من الأوقات كان يذهب إلى النجف لزيارة الحرم المطهر لأمير المؤمنين عليه السلام والقيام بصلة أرحامه في النجف .

وقد امتدت سوابق معرفتي به إلى ثلاث وعشرين سنة ، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى منذ سنة تقريباً ، رحمه الله .

وقد حصل في أوائل معرفتي به أن سافرت ذات صيف مع جميع العائلة وولدي للقيام برحلة نزور فيها المراقدة المقدسة ، فتشرفنا بزيارة سامراء لعدة أيام ، ثم قدمنا إلى الكاظمين عليهما السلام ، وقد كان الحاج عبد الزهراء مسافراً آنذاك بسيارته إلى النجف الأشرف ، فلم يكن موجوداً في الكاظمية حين وصلناها .

وفي اليوم التالي لوصولنا ، تشرفت حسب العادة بالذهاب إلى الحرم المطهر للكاظمين عليهما السلام عند طلوع الشمس ، وأثناء عودتنا من الزيارة لمح ولدي الأكبر - وكان آنذاك في الرابعة من عمره - بائع خضروات يبيع خياراً في أول أوانه ، فبكي وطلب مني أن أشتري له ، فامتنعت لأنه كانت لديه حالة تقيؤ وإسهال ، وكان تناول الخيار مضرّاً له ، فبكي وأصرّ على طلبه ، فلم ألقِ إلى بكائه بالاً ، فضربته على يده وانصرفنا . وعند غروب الشمس جاءني إلى الفندق أحد الأصدقاء الكربلايين ، فأخبرني أنّ الحاج عبد الزهراء قد عاد من النجف الأشرف ذلك اليوم ، وسألني إن كنتُ رغباً بمرافقته لزيارة الحاج والصلاة معه في بيته ، فقبلتُ وذهبنا مشياً على الأقدام إلى منزل الحاج الذي كان يقع آنذاك خارج الكاظمية في الضواحي الجديدة الملحقة بالمدينة . فشاهدت في الطريق حشداً من الناس وقد تجمعوا حول شيءٍ ما ، فاستفسرت من صاحبي عن

الأمر ، فقال إنهم يتفَرِّجون على التلفزيون ، وكان قد دخل حديثاً إلى الكاظمية . نظرت إليه من بعيد ، فشاهدتُ صوراً تتحرك على صفحة مضيئة ، فأخذتُ أحدثُ نفسي مندهشاً : ما هذا التقدّم الذي بلغه البشر بحيث صار يأتي بصور الأشخاص وأصواتهم من المناطق البعيدة ، فيعرضها أمام الأنظار في نفس اللحظة ؟!

ثم دخلنا إلى منزل الحاج فإذا هو قد فرش سجّادته في زاوية حديقة الدار وقد انشغل بالصلاة ، فصلّينا بدورنا . وبعد السلام والاستفسار عن الأحوال ، قال الحاج بعد أن مكث هنيئاً : إنّ الحق لا يمتزج بالباطل ، وفي النهاية سينفصل الحق إلى جانب والباطل إلى جانب آخر .

قلتُ : نعم ، هذا صحيح .

قال : الحق والباطل كالماء والزيت ، فلو مزجناهما معاً وخلطناهما لانفصلا من جديد ، بحيث يصبح الماء في الأسفل والزيت في الأعلى .

قلتُ : نعم ، هذا صحيح .

قال : أيّها السيّد محمّد الحسين ! أنت تعلم أنّ بإمكان الإنسان أن يصل بالتدبير والحيلة والمكر إلى جميع المناصب والمقامات ، فيصبح تاجراً ، ويصبح ثرياً ، ويصبح عالماً ومرجعاً ، وسلطاناً ورئيس جمهورية ، إلّا أنّ طريق الله عزّ وجلّ لا مجال فيه للحيلة أبداً .

قلتُ : نعم ، هذا صحيح .

فقال : لقد غادرتُ النجف صباح هذا اليوم ، وكنت أسير بسيّارتي متّجهاً إلى الكاظمية ، فرأيتُ فجأة أنّ من الممكن أن يكون المرء في الطابق العاشر من عمارة ما ، لكنّه قد يسقط - بأدنى غفلة - ويهوي إلى الطابق الأسفل دفعةً واحدة .

فأدركتُ أنّ جميع هذا الكلام والحوار كان من أجل إبلاغي أنّ

الضرب على يد الطفل الذي أراد الخيار لم يكن أمراً صحيحاً، وأنه كان ينبغي تهدئة الطفل بصبر وتأن، وأنه كان مطلعاً على أحوالنا وعلى طلب الطفل وضربي إياه، بينما كان جالساً في سيارته في الصحراء الممتدة بين الحلة وبغداد، إلا أنه لم يكن يريد القول لي بصراحة «لقد فعلت كذا».

فخاطبته في أعماقي دونما اختيار: **وَاللَّهِ لَقِصَّتْكَ أَعْجَبُ!**

والله إن رؤيتك ما فعلته - وأنت في صحراء النجف - وأنا في موضع يبعد عنك بأكثر من مائة كيلومتر أعجب عندي من قصة التلفزيون وأدعى للدهشة والاستغراب.

**وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ*
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ.^١**

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أنه حين يؤتى بالنبیین والشهداء يوم القيامة فيشهدون على أعمال الإنسان، فإن الله تعالى يجعل نفس العمل جزاءً لذلك العمل.

فشهادة هؤلاء - إذاً - ليست شهادة لسانية ولفظية، بل إن كيفية أدائهم لها تتجسد في جعل عمل الإنسان مشهوداً أمامه. ومن هنا فإنَّ تحمّل الشهادة ينبغي أن يكون هكذا. أي أنَّ النبیین والشهداء لا يحملون المطلب في أذهانهم فيتصورونه ويصدقونه بالشكل والوصف والكتابة، بل إنَّهم يحفظون في وجودهم في مقام التحمّل حقائق الأعمال، ثمَّ يعرضون يوم القيامة هذا الأمر المتحمّل ويخرجونه للأنظار ويُطلعون الإنسان عليه، كما أنَّ الجزاء المُعطى للإنسان إنما هو عين عمله: **وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ.**

١- النصف الثاني من الآية ٦٩، والآية ٧٠، من السورة ٣٩: الزمر.

كلّ ما في الأمر أن العمل يكون في صورته الحقيقية المملوكة ،
سواءً كانت صورةً للجنة : رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ؛ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ؛ لِقَاءُ اللَّهِ ؛ أو كانت صورةً للجحيم والعقارب والحيات والمناظر
المخوفة المهولة والمنازل المرعبة ؛ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَأَسْلُكُوهُ . وخُلاصة المطلب : وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

وليس هناك في عالم التكوين ذرّة من الظلم ، فكلّ سيُجزى بأعماله
فيراها مجبولةً بنفسه وروحه ، فيعتنقها لتأخذه إلى الجنة أو إلى النار .
إنّ الله تعالى ينبتّها - قبل فوات الأوان - إلى مقامات المقرّبين
والصدّيقين والواصلين إلى حريمه ، لأنّ الإنسان لا يرى عيّه أبداً ، بل
يعتبر نفسه محوراً للكمال ، فيقيس عليها جميع الأمور الواقعيّة ، ويجعلها
محوراً للواقعيّة والحقيقة ، ثمّ يقيس مقدار الحقائق وفق هذا المعيار ،
وليس ذلك بالأسلوب الصحيح .

وبالالتجاء إلى الله والإنابة إليه ، وبالبكاء والابتهاال والتضرّع إليه عزّ
وجلّ ، فإنّه تعالى سيوقف الإنسان على عيوبه ويبصره بها ، والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

الْمَجْلِسُ الْخَامِسُ وَالْأَنْعَامُ

شَرْطُ الشَّهَادَةِ: الْإِحَاطَةُ الْعِلْمِيَّةُ بِالْمَخْفِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
 ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
 وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْتَبُونَ^١.

العُتْبَى بمعنى الرضا؛ استعتب يستعتب : طلب الرضا؛ لذا فإن تعبير
 وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ يعني أن الكفار سيطلبون الرضا فلا يُقبل منهم،
 وسيعتذرون فلا يُجديهم اعتذارهم، وسيكلمون فلا يجد كلامهم أذناً
 صاغية . وكلامنا يتعلق بالكفار الذين لا يؤذن لهم بالكلام .

وهناك - في المقابل - طائفة شاهدة على الأعمال ، وذات مزايا
 وخصائص تتحمل من خلالها الشهادة وتؤديها .

والأمة بمعنى الجماعة ، فإن لم تُضف إلى شيء آخر ، صار معناها
 عاماً ، أما لو أُضيفت إلى شخص معروف أو إلى زمان أو مكان معينين ،
 فسيصبح المراد بها خصوص ذلك الأمر المضاف . كأمة محمد الدالة على

١- الآية ٨٤ ، من السورة ١٦ : النحل .

الجماعة المرتبطة بالنبي صلى الله عليه وآله ، وكأمة آخر الزمان ، وأمة الحجاز الدالتين على خصوص أولئك الأفراد .

وقوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ يَفِيدُ أَنْ شَاهِدًا سَيُبْعَثُ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ وَجَمَاعَةٍ ، دونما استثناء أو تعيين لزمان أو مكان أو نبي .

وينبغي أن نرى المزايا التي يتحلّى بها ذلك الشاهد المبعوث من كل أمة . وقد ذكرنا في المجلس السابق أنّ العلم والاطلاع يُعدّان أمراً لازماً في الشهادة ، وأنّ شهادة الشخص الذي يشهد على أمرٍ ما دون علم واطلاع تُعدّ شهادة باطلة ، وأنّه سيُدعى - تبعاً لذلك - شاهد زور ، أي شاهد بالباطل . فلو دُعي امرئ لم يطلع على واقعة معيّنة إلى الشهادة على تلك الواقعة ، فجاء وشهد لدى الحاكم ، كانت شهادته شهادة زور وشهادة بالباطل ، وسيكون قد ارتكب معصية كبيرة بأدائه تلك الشهادة .

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا^١

ويقال للشهادة شهادة - أساساً - لأنها تستلزم الحضور ؛ إذ تعني الشهادة : الحضور . ومن هنا فإنّ الشهادة على الأعمال في يوم القيامة تتوقف على كون الشاهد قد تحمّل أعمال الأفراد في الدنيا واطّلع عليها وعلم بها ، ثمّ إنّّه يؤدّي يوم الجزاء ما تحمّله .

بما أنّ الحكم بكون العمل حسناً أو سيئاً يحتاج إلى علم واطّلاع على كيفية ذلك العمل بما يتضمّنه من قصدٍ للقربة أو للخيانة ، ومن قصدٍ حسن أو سيئ ، ومن فعله في سبيل الله أو وصولاً للذة نفسانية ، فهو أمر يتعذّر على الأفراد العاديين الذين يعجزون عن أداء الشهادة في الأمور المعلومة المشهودة لديهم ، فضلاً عن الأفراد البعيدين والغائبين .

١- الآية ٧٢ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

وبناءً على هذا فينبغي للشاهد - حتماً - أن يستوي لديه أمر الغياب والحضور، القُرب والبعد، المكان والزمان؛ وأن ينظر على حدٍ سواء إلى الماضي والمستقبل، وإلى الأمكنة المختلفة، وأن يعلم بالبوطن والسرائر، ناهيك عن علمه بظواهر الأعمال، ليتمكنه تحمّل الشهادة وأدائها على النحو المطلوب، وإلا كانت الشهادة خارجة عن دائرة وجوده وإحاطة علمه.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.^١

والمخاطب في هذه الآية هم المسلمون، حيث يقول لهم الله: إننا جعلناكم جماعة معتدلة ذات سيرة معتدلة جميلة لا إفراط فيها ولا تفريط، وجعلنا أموركم على أساس الاعتدال والقسط والعدل، لتكونوا رقباء وشهداء على الناس، ناظرين إلى أعمالهم، شاهدين عليها. وليكون النبي الأكرم - بدوره - ناظراً إلى أعمالكم رقيباً عليكم وشاهداً.

وقد بحثنا مفصلاً في أنّ هناك مزايا وخصوصيات لازمة في الشهادة ومعدودة من شرائطها. فكيف - إذًا - يتوجه الخطاب في هذه الآية إلى جميع الأُمّة الإسلامية، أُمّة رسول الله، مع علمنا أنّ من بين هذه الأُمّة يوجد القليل فقط ممّن لهم علم واطّلاع على حقائق الأعمال ووقوف على السرائر والضمائر، ومع علمنا بأنّ غالبية الأُمّة تفتقر إلى الاطّلاع على مثل هذه الأمور؟ يُضاف إلى ذلك أنّ من بين هذه الأُمّة الفاجر والفساق. فكيف يخاطبهم الله تعالى: أنا جعلناكم أُمّة وسطاً ذات سيرة معتدلة حسنة وجعلناكم شهداء على الناس؟

لقد كان من هذه الأُمّة الضالّ والمضلّ والمنافق، وكان يزيد بن

١- مطلع الآية ١٤٣، من السورة ٢: البقرة.

معاوية وأبوه معاوية بن أبي سفيان يعدّان أنفسهما من هذه الأمة . أفيمكن أن يخاطب الله تعالى أمةً من بين أفرادها نماذج كهؤلاء ، فيمتدحها بأنّها أمةٌ وسطاً ، ويجعلها شاهدة على أعمال الناس رقيقة عليهم ؟ أيمن قبول هذا الأمر ؟ كلّاً بطبيعة الحال .

فعلى الرغم من عموميّة ظاهر الخطاب ، إلّا أنّ ملاك الخطاب الذي يتحقّق على أساسه الحكم والإنشاء هو ملاك خاصّ . وقد تعلق الخطاب العامّ بذلك الملاك وتلك الخصوصية التي يمتلكها أولئك الأفراد المعيّنون الذين هم بين الأمة والمحشورون معها ، من الحائزين على مستلزمات الشهادة .

ونظائر هذا الخطاب كثيرة في القرآن الكريم ، كما أنّها رائجة ومتداولة في العرف الأدبي وفي المحاورات الاجتماعية بين الفصحاء والبلغاء .

لنفرض - على سبيل المثال - أنّ حاكماً معيناً ينزعج ويتأثر من بعض أفراد رعيّته ، فيقول في خطابه : «إنّ رعيّتي لا يلقون إليّ بالاً ، ولا يهتمّون بكلامي» مع أنّ بعض أفراد رعيّته - لا جميعهم - قد عصوه وخالفوه ، لكنّه أورد الخطاب على نحو العموم ، فجعل الجميع في معرض اللوم والعتاب . أو كما يحصل في حزب أو جمعيّة ذات عنوان خاصّ يقوم بعض أفرادها بتصرّف ما ، فيتوجّه الخطاب إلى جميع الأعضاء ، سواء كان مدحاً وثناءً أم لوماً وعتاباً ، مع أنّ ملاك الخطاب خاصّ بأفراد معيّنين . وهذا المطلوب من موضوعات فنّ البلاغة والفصاحة في الأدب ، يستخدمه الفصحاء والبلغاء في خطاباتهم على اختلاف اللغات والأمكنة .

وقد جاء في القرآن الكريم - على سبيل المثال - :

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

تَرْنَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ،
فَكَازَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.^١

حيث يلاحظ في هذه الآية الشريفة أنّ القرآن الكريم قد امتدح
أصحاب النبيّ كثيراً، ووصفهم بالصدق والاستقامة والشدة، وبأنّهم
لا يتخطّون أوامر الله تعالى، فهم أشدّاء على أعداء الله، رُحماء مع محبّي
الله، دائبون على ركوعهم وسجودهم، يقيمون الصلاة في أوقاتها، يبتغون
ضالّتهم: لقاء الله ورضوانه وفضله، إلى الحدّ الذي ذكر أوصافهم موسى
وعيسى على نبيّنا وآله وعليهما السلام في التوراة والإنجيل.

أفكان جميع أصحاب النبيّ على هذه الشاكلة؟ أكانوا بأجمعهم
يستحقّون هذا المدح والثناء؟

لقد نزلت هذه السورة في المدينة بعد وقعة صلح الحديبية، أي بعد
السنة السادسة للهجرة، وكان هناك في المدينة من بين أصحاب رسول الله
منافقون يشكّلون السواد الأعظم من الصحابة، وقد نزلت في شأنهم آيات
كثيرة في القرآن الكريم.

ولقد كان المنافقون يتظاهرون بالإسلام، وكانت خطابات القرآن
العامة للمسلمين تشملهم، إذ كانوا يصلّون ويصومون، إلّا أنّهم كانوا
يضعون العصي في عجلة المسيرة، ويحاولون الحدّ من نفوذ الإسلام. وقد
ساعدوا الكفّار سرّاً في الحروب، وسعوا إلى إضعاف الإسلام والمسلمين
في الداخل، وكذلك إلى بثّ الرعب في صفوف المسلمين عند مواجهة

١- الآية ٢٩، من السورة ٤٨: الفتح.

العدوّ . ولدينا في القرآن الكريم سورة باسم سورة «المنافقون» .
ولقد عانى رسول الله من أذى منافقي أمته أكثر من معاناته من أذى
الكفار والمشركين بكثير ، مع أنّ الكفار والمشركين كانوا يوحّدون
صفوفهم في أغلب الغزوات - مثل غزوة الأحزاب - للقضاء على رسول الله
والمسلمين ، وكانوا يثيرونها حرباً شاملة تتآلف فيها جميع الطوائف لكسر
صولة الإسلام ، وتوحّد مساعيها لقمعه واستئصال جذوره . إلّا أنّ ضرر
المنافقين وأذاهم يبقى - مع هذا كله - أشدّ وأقسى على الإسلام ونبيّ
الإسلام . والشواهد التاريخية والأخبار والروايات الواردة في هذا المجال
تضيق على الحصر . لذا نشاهد الشدّة والقسوة في لحن الآيات القرآنيّة في
خطابها للمنافقين ، أولئك المنافقين الذين شكّلت قصّتهم فصلاً كبيراً من
تاريخ حياة رسول الله صلى الله عليه وآله .

والخلاصة ، فقد كان المنافقون يعدّون ضمن الصحابة . أفكان
القرآن الكريم يمتدح المنافقين ؟ كلاً بطبيعة الحال . إذ فضلاً عنّا ذكر ، فإنّ
لهذه الآية شواهد وقرائن دالة على أنّ المخاطب بها لا يشمل جميع
أصحاب رسول الله .

يقول القرآن : وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .
ومن الجليّ أنّ هذه الصفات لم تكن موجودة لدى المنافقين ، فقد
كانوا على العكس من ذلك أَشِدَّاءُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ رُحَمَاءُ مَعَ الْكُفَّارِ !
يقول القرآن : تَرْنَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ؛
بينما لم يكن المنافقون على هذه الكيفيّة ، يُضاف إلى ذلك أنّه لم يرد في
التوراة والإنجيل ذكر للمنافقين وصفاتهم ، ولم يأت فيهما حديث عن أبي
سفيان وعبد الله بن سلام ونظائرها ؛ والشاهد على ذلك ما جاء في آخر
الآية من الوعد بالمغفرة والأجر الجزيل لمن آمن من أصحاب النبيّ وعمل

صالحاً ، وليس لجميعهم .

ومجمل القول أن آية : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ تفيد - وفق هذا البيان - انطباعاً بأن المراد بالأمة الوسط في الملاك والمعيار ، خصوص الذين امتلكوا تلك الصفات ، أي الأشداء على الكفار ، الرحماء بينهم ، من أمثال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن مظعون وسلمان وأبي ذر الغفاري والمقداد ، وأصحاب رسول الله الذين استشهدوا في غزوة بدر مثل عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ، أو المستشهدين في غزوة أحد مثل حمزة سيّد الشهداء ونظائر هذه الأرواح المقدسة وطيور سدرة المنتهى المحلقة إلى الذروة ، فهم الذين كانوا أصحاب النبي . وقد تعلق الخطاب العام - بلحاظ شرف هؤلاء ومقامهم - بالأمة الإسلامية ، حيث جرى مدحهم بتعبير وَالَّذِينَ مَعَهُ .

كان هذا فيما يتعلّق بالآية الواردة في سورة الفتح ، فلننظر في الآية التي نبحث في شأنها : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .

لقد جعلناكم أمةً وسطاً معتدلة ، وشرفناكم بحيث صار رسول الله شاهداً عليكم بصورة مباشرة ودونما واسطة . فأنتم الشهداء على الناس ، ورسول الله الشاهد عليكم . فهو - إذاً - مقام شريف أن يُجعل الإنسان شاهداً على عامة الناس ويُجعل الرسول شاهداً عليه . ومن لا يمتلك هذا المقام فلا يصلح لمسؤوليّة تحمّل الشهادة وأدائها . ومن هنا فإنّ المراد بالأمة الوسط . الشاهدة على الناس ليس جميع الأمة ، بل أفراداً خاصين يحملون المزايا والخصائص المذكورة في معنى الشهادة .

وينبغي الآن أن نرى من هم هؤلاء الأفراد ؟

لدينا آية قرآنية أخرى نظير الآية السابقة :

هُوَ أَجْتَبَيْكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ
هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ^١.

وربما كان مضمون هذه الآية أوضح من سابقتها ، لأنها تقول : هُوَ
أَجْتَبَيْكُمْ ، بينما الآية السابقة تستخدم تعبير : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .
ويعني الاجتباء في العربية : الاصطفاء والاختيار ، كما يحصل عند
اختيار عدة تفاحات من شجرة تفاح أو من صندوق تفاح ، ويدعى كذلك
بالاستقاء وهو الاصطفاء والتطهير .

وللفظ الاجتباء دلالة كبيرة على الشرف والمنزلة الرفيعة ، لأن الله
تعالى هو المجتبي والمصطفى ، وهؤلاء الأفراد هم المجتوبون والمصطفون
من قِبَلِهِ عَزَّ وَجَلَّ .

كما ورد في هذه الآية : مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
قَبْلُ .

فَلِمَ فعل ذلك ، وَلِمَ سَمَّاكم أبوكم إبراهيم المسلمين ؟ فصارت لكم
هذه الشخصية والخصائص ، ليكون الرسول شاهداً عليكم وتكونوا شهداء
على الناس .

وينبغي الآن أن نرى من هم هؤلاء الشهداء الذين اجتباهم الله
وسمّاهم أبوهم إبراهيم المسلمين من قبل ، فصارت لهم هذه الخصائص
لتحمّل الشهادة وأدائها ، وأين سمّاهم المسلمين ؟

لقد دعا إبراهيم عند بنائه الكعبة بيت الله الحرام قائلاً :
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

١- مقطع من الآية ٧٨ ، من السورة ٢٢ : الحج .

وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^١.

أنت يا إلهنا عزيز ذو استقلال ، حكيم فعلك محكم متقن ، ندعوك ونسألك أن تستجيب دعاءنا .

وحين استجاب الله دعاء النبي إبراهيم : رَبَّنَا وَابْعَثْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، فجعل من ذريته أمة مسلمة ، فإن إبراهيم قد حكى عن إسلام الذرية ، كما في الآية : هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ . أي الذرية التي وجدت منه والتي رغب إلى الله في دعائه أن يجعلهم مسلمين . فلمن - يا ترى - يعود دعاء النبي إبراهيم في قوله : وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ؟ فقد دعى النبي إبراهيم بهذا الدعاء حين كان مشغولاً مع ابنه إسماعيل ببناء الكعبة ، فكانا يجلبان الصخر فيرصفانه على بعضه ، وبينان الكعبة التي دُعيت «بيت الله» في الموضع الذي تقع فيه حالياً .

والحق أن هذا الدعاء كان في شأن ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللذين كانا في مكة . فقد كان سياق الآيات قبل هذه الآية كالتالي : وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ^٢.

ثم يقول : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^٣.

١- الآيتان ١٢٨ و ١٢٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- الآية ١٢٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣- الآية ١٢٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

إلى أن يصل إلى هذه الآية : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.^١

والله وحده يعلم ماذا كان الأب والابن يدعوان سوياً بينما كانا منهماكين في بناء الكعبة ورفع قواعدها ، وماذا كانت حالات مناجاتهما وارتباطهما بخالقهما ، وأي لذة كانت لهما في حوارهما مع ربّهما . والقرآن الكريم يذكر لنا قدراً من تلك الأدعية في هذه الجملات ، حتى يصل إلى هذه الآية : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ.^٢ وعلينا أن نعرف أولاً أيّ إسلام هو ذلك الذي طلبه النبي إبراهيم في دعائه ؟ أهو هذا الإسلام العادي الذي ينتمي إليه الناس ، والذي يتلبسون به بمجرد تفوّهم بالشهادتين ؟ أكان إبراهيم - وهو من أنبياء أولي العزم وذوي الكتاب والشرعة - يدعو للحصول على مثل هذا الإسلام ؟ بالإضافة إلى أن النبي إبراهيم لم يدعُ بهذا الدعاء يوم كان صبيّاً غراً أوّل بلوغه ولا دعا به في مطلع رسالته ، بل حين صار شيخاً كبيراً قد تجاوز عمره مائة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة ، مرّ خلاله بأربعة وعشرين ابتلاءً واختباراً ، ونال درجة الإمامة التي تفوق درجة النبوة ، وكان من بين تلك الابتلاءات ذبح ولده إسماعيل ، وما مرّ به في أرض بابل حين حطّم الأصنام ورُمي بالمنجنيق في النار ثمّ أُبعد إلى أرض الأردن وفلسطين حيث قضى هناك مدّة طويلة يدعو إلى التوحيد ، ثمّ إرساله ابن أخيه أو ابن أُخته النبي لوط برسالته ودعوته . وبعد تحمّله شدائد ومحن من زوجته سارة التي لم تُنجب منه . وكانت سارة قد وهبته فتاة جميلة تُدعى هاجر كان ملك بابل قد أهداها

١- الآية ١٢٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- الآية ١٢٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

لها ، بيدَ أن إبراهيم - احتراماً لها لأنها ابنة خاله - لم يكن يقرب هاجر لتُنجب له أولاداً مع أنه كان قد بلغ من العمر عتياً دون أن يُولد له .
إلا أن سارة أذنت له بالزواج من هاجر لتُنجب له بعد أن رأت كبر سنّه وحرمانه من الأولاد ، فرزقه الله من هاجر ولداً سمّاه إسماعيل ، هو جدنا الأعلى .

غير أن سارة اغتمت من ولادة إسماعيل ، وكانت قد كبرت وشاب شعرها واحدودب ظهرها ، فجرى بينها وبين إبراهيم من الأمور ما جعل إبراهيم يصطحب هاجر وطفلها من فلسطين إلى أواسط صحراء الحجاز ، ثم يتركهما هناك ويرجع إلى فلسطين . وكان يأتيهما إلى مكة مرة أو مرتين في السنة فيتفقدهما ويعود ، حتى ترعرع إسماعيل وكبر فشرعاً سوياً ببناء الكعبة بيت الله .

إلا أن الله أنعم على سارة بولد أنجبته على كبرها وشيخوختها ، فجاء جبرائيل تصحبه الملائكة وقد نزلوا بالعذاب على قوم لوط ، فعرجوا على خيمة إبراهيم وبشروه بولد يولد له من سارة .

ولما طرق الخبر أسماة سارة قالت مدهوشة : يَوَيْلَتَيَّ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ قد شاب شعري واحدودب ظهري وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا قد فات أوان إنجابهِ !؟ فقالت الملائكة : الأمر لله وحده ، وهو الرحيم الكريم .

ثم من الله على إبراهيم بولد من زوجته سارة سمّاه إسحاق . ولقد مر إبراهيم بجميع هذه الابتلاءات ونظائرها حتى جاء إلى مكة ، وكان أمر الحج وقضية منى وذبح ولده وبناء بيت الله ، فدعا هذا النبي الكبير ربّه : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ .

فأيّ إسلام هو يا ترى ؟ إنه الإسلام الأعظم . أي أن إبراهيم دعا ربّه : رَبَّنَا اجعل أرجاء وجودنا وكياننا تسليماً لجلالك وعظمتك وكبريائك ، وأن

لا تكون فقط أعمالنا لك وحدك ، بل أرواحنا وأخلاقنا وديننا وإيماننا وعمرنا ووجودنا وموَدَّتنا وحياتنا كلّها لك وحدك بلا شريك .

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^١

هذا هو معنى الإسلام الذي رجاه إبراهيم من ربه ، ودعاه أن يشرف به نبينا الذي سيولد من نسله ، ويشرف به ذريّته .

وقد اتضح بذلك، المراد بالذريّة وإسلام الذريّة في الآية الشريفة :
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ .

ودعاء النبي إبراهيم : هُوَ اجْتَبَاكُمْ ؛ أي أن الله اصطفاكم واختاركم .
مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمُّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، أي هو الذي دعا لكم بهذه الدرجة والمرتبة من الإسلام ، وختمكم بهذا الختم ، وأعلمكم بصبغة الإسلام ، وسماكم المسلمين ودعا لكم .

وينبغي أن نرى من هم هؤلاء الأفراد من ذريّة إبراهيم الذين يمتلكون هذه الدرجة من الإسلام ، ويحوزون هذا القدر من الطهارة الباطنية ؟ يُضاف إلى ذلك أن إبراهيم وإسماعيل دعوا ربّهما - إضافة إلى دعائهما بشأن الإسلام الواقعي الأعظم والطهارة الباطنية - فقالا : وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا .

أرنا مواضع عبادتنا وكيفية نُسكنا وطريق عبوديتنا . علّمنا مناسك العبودية والدعاء إضافة إلى تلك الطهارة الباطنية والتسليم الحقيقي مقابل ذاتك المتّصفة بالعزّة والجلال والجمال والكبرياء والعظمة ، واهد ذريّتنا إلى الإسلام الحقيقي وطريق العبودية ، وابعث فيهم نبياً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويتلو عليهم آياتك ويزكّيهم ويهديهم إلى الرقي

١- الآية ١٦٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

والتكامل إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وبطبيعة الحال فإنَّ مقام عزة الله وحكمته يقتضي استجابة هذه الأدعية .

ويمكن تلخيص النتيجة الحاصلة من مجمل المطالب التي ذكرناها بعدة جمل : لأنَّ النبي إبراهيم دعا أولاً لإسلام ذريته ، ثم دعا لإراءتهم المناسك و لقبول توبتهم ، وبعدها دعا لبعث نبيٍّ منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويريتهم ويزكيهم . فيتضح أنَّ الدعاء اختصَّ بجماعة من قريش جمعوا بين طهارتهم الذاتية والإسلام الواقعي والتسليم المحض، مقابل الله عزَّ وجلَّ ؛ لأنَّ الإسلام هنا بمعنى الإسلام الوارد في الآية : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ، وهو دعاء صدر من إبراهيم عند نبوته وبعد اجتيازه الاختبارات العديدة ، وحين كان منشغلاً مع ابنه إسماعيل ببناء الكعبة .

فطلبه للإسلام في هذه الحال يتضمَّن معنى راقياً سامياً ودقيقاً ، وهو مقام التسليم والفناء في ذات الله والتوكُّل عليه ، وتفويض جميع الأمور وكلَّ الوجود إليه تعالى . فتكون إحدى صفات الذرية المصطفاة الجمع بين الطهارة المكتسبة الصفاتية ، من إراءة المناسك وقبول التوبة في جميع المراحل والوفاء بالعهد ، إضافة إلى شمولهم بلطف الله عزَّ وجلَّ ببعثة رسول الله ، وتلاوة آيات الله عليهم وتعليمهم الكتاب والحكمة في حداثها الأعلى وصولاً إلى مقام الكمال الإنساني .

ونعلم أنَّ جملة لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وجملة لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ تعليل لعبارة هُوَ اجْتَبَاكُمْ. أي أنَّ علَّة اجتباكم واصطفائكم هي: أن تكونوا شهداء على أعمال الناس والرسول شهيد على أعمالكم .

وبما تقدَّم ، فقد اتَّضحت هذه النتيجة وعرفنا بصورة عامَّة الخصائص التي تتحلَّى بها هذه الذرية ، ولا بدَّ الآن من تبيان مصداقها من خلال السِّنة

الصحيحة والروايات الواردة، ليتّضح أنّ هؤلاء الشهداء من قريش الذين لهم هذه الخصائص لا يمكن أن يكونوا إلا أئمة أهل البيت عليهم السلام. روي في «الكافي» و«تفسير العياشي» عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: نَحْنُ الْأُمَّةُ الْوَسْطُ وَنَحْنُ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَحُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ^١.

أي أننا وحدنا فقط الذين نمتلك هذه الخصائص في عالم الظاهر والباطن، وفي عالم الغيب والشهادة، وفي عالم التحمّل والأداء.

روي الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» بسلسلة سنده المتّصل عن سليم بن قيس، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

إِنَّ اللَّهَ إِيَّانَا عَنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»، فَرَسُولُ اللَّهِ شَاهِدٌ عَلَيْنَا وَنَحْنُ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ (عَلَى خَلْقِهِ - خ ل) وَحُجَّتُهُ عَلَى أَرْضِهِ؛ وَنَحْنُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ (فِيهِمْ): «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»^٢.

وروي ابن شهر آشوب في «المناقب» عن الإمام الباقر عليه السلام

ضمن حديث طويل قال:

وَلَا يَكُونُ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا الْأَئِمَّةُ وَالرُّسُلُ، فَأَمَّا الْأُمَّةُ فَإِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَسْتَشْهَدَهَا اللَّهُ وَفِيهِمْ مَنْ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى حُرْمَةِ بَقْلِ^٣.

١- هذا الحديث برواية بريد بن معاوية العجلي. وقد ورد في «الكافي» الأصول،

ج ١، ص ١٩١، الحديث الرابع؛ وفي «تفسير العياشي» ج ١، ص ٦٢.

٢- «شواهد التنزيل»، ج ١، ص ٩٢.

٣- «المعاد» (رسالة الإنسان بعد الدنيا) للعلامة الطباطبائي قدس سرّه، مخطوطة،

ص ٤١.

أليس بين أفراد الأئمة فاسقون ؟ فلو جاء أحدهم إلى قاضي الشرع فشهد أنه رأى زيداً وهو يسرق حزمة بقل من عمرو ، فهل ستقبل شهادته ؟

سوف لن تُقبل شهادته بطبيعة الحال باعتباره فاسقاً . فهي شهادة مرفوضة ولو كانت على حزمة بقل أو حزمة بصل أو حزمة ورق الشمندر فكيف إذاً سيشهد مثل هذا الشخص على أعمال الناس في يوم القيامة ؟

ورد في «تفسير العياشي» عن أبي عمرو الزبيدي عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قَالَ اللَّهُ : «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيُكَونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» ؛ فَإِنْ ظَنَنْتَ أَنَّ اللَّهَ عَنَى بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعَ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ ؛ أَفَتَرَى أَنَّ مَنْ لَا يَجُوزُ شَهَادَتُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ يَطْلُبُ اللَّهُ شَهَادَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقْبَلُهَا مِنْهُ بِحَضْرَةِ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ . كَلَّا لَمْ يَعْزِ اللَّهُ مِثْلَ هَذَا مِنْ خَلْقِهِ . يَعْنِي الْأُمَّةَ الَّتِي وَجَبَتْ لَهَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» ؛ وَهُمْ الْأُمَّةُ الْوُسْطَى وَهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ^١.

وحقاً ، فالأمر على ما قال عليه السلام . وكيف يمكن أن يأتي الله عز وجل يوم القيامة بأفراد فاسقين من هذه الأمة ، فيقول أمام الأنبياء كلوط وشعيب ويونس ودانيال ، وأمام جميع الأمم بأن هؤلاء هم شهداء أمة خاتم الأنبياء ؟

المراد بالأئمة الوسط هنا هم الأئمة ، دون أن يكون لفظ «الأئمة» قد استعمل في الأئمة . فالأئمة بمعنى الأئمة ، إلا أن مصداقها الواقعي منطبق هنا على خصوص الأئمة ، وعليه فقد جاء الخطاب عاماً بملك هذا المصداق .

١- «تفسير العياشي» ج ١ ، ص ٦٣ .

إِلَّا أَنْ حَقَّ وَرُودُ الْخُطَابِ بِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّاتِ مُخْتَصِّصًا بِالْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ هَذِهِ الْمَزَايَا ، وَهُمْ أُمَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَالْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي هَذَا الْمَجَالِ تَفُوقُ حَدَّ الْإِسْتِفَاضَةِ .

وبهذا البيان يتضح معنى الآية الشريفة :

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا *
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا.^١

على أَنَّ الآيةَ التاليةَ أوضحُ منها دلالةً وأكثرُ جلاءً : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ.^٢
وهي أكثرُ صراحةً من سابقتها ، لأنها تقول : يَوْمَ نَبْعَثُ ثُمَّ تقول : مِنْ أَنْفُسِهِمْ . وأولئك الأفراد المبعوثون هم الأئمة المصطفون من قِبَلِ اللَّهِ تعالى ، بعثهم من بين الناس للشهادة على أعمالهم .

يقول علي بن إبراهيم القمي في تفسيره في بيان عبارة «شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» : يَعْنِي عَلَى الْأَئِمَّةِ ، فَرَسُولُ اللَّهِ شَهِيدٌ عَلَى الْأَئِمَّةِ ، وَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ.^٣

وجاء في « الاحتجاج » للشيخ الطبرسي رحمة الله عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام ضمن حديث يذكر فيه أحوال أهل الموقف :
قَالَ : فَيَقَامُ الرُّسُلُ فَيُسْأَلُونَ عَنْ تَأْدِيَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي حَمَلُوهَا إِلَى أُمَمِهِمْ ، وَتُسْأَلُ الْأُمَمُ فَتَجْحَدُ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ

١- الآيتان ٤١ و ٤٢ ، من السورة ٤ : النساء .

٢- النصف الأول من الآية ٨٩ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣- «تفسير القمي» ص ١٢٧ .

أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلِنَسْتَلْزَنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَيَقُولُونَ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَتَشْهَدُ الرُّسُلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيَشْهَدُ بِصِدْقِ الرُّسُلِ وَتَكْذِيبِ مَنْ جَحَدَهَا مِنَ الْأُمَمِ فَيَقُولُ - لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ «بَلَى قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ، أَي: مُقْتَدِرٌ عَلَى شَهَادَةِ جَوَارِحِكُمْ عَلَيْكُمْ بِتَبْلِيغِ الرُّسُلِ إِلَيْكُمْ رَسُولَاتِهِمْ ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا»^١.

وأورد العياشي في تفسيره عن أبي معمر السعدي ، قال :

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: يَجْتَمِعُونَ فِي مَوْطِنٍ يُسْتَنْطَقُ فِيهِ جَمِيعُ الْخَلْقِ فَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ، فَيَقَامُ الرُّسُلُ فَيَسْأَلُونَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» ؛ وَهُوَ الشَّهِيدُ عَلَى الشُّهَدَاءِ ، وَالشُّهَدَاءُ هُمُ الرُّسُلُ^٢.

وجاء في كتاب «فضائل الشيعة» للشيخ الصدوق رضوان الله عليه

رواية رواها بسنده المتصل عن الثماللي :

قَالَ : قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى شِيعَتِنَا ، وَشِيعَتُنَا شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ ، وَبِشَهَادَةِ شِيعَتِنَا يُجْزَوْنَ وَيُعَاقَبُونَ^٣.

وخلاصة القول أن شهادة رسول الله على الأنبياء والأئمة عليهم السلام تقوم على أساس الدرجات والمقامات التي ينبغي مراعاتها ، لأنَّ

١- «الاحتجاج» ج ١ ، ص ٣٦٠ و ٣٦١ ؛ طبعة النجف ، ضمن احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على زنديق ادعى وجود تناقض في آيات القرآن .

٢- «تفسير العياشي» ج ١ ، ص ٢٤٢ .

٣- جزء «المعاد» للعلامة المجلسي رحمه الله عليه ، ص ٣٢٥ ، من أجزاء «بحار الأنوار» وهو الجزء السابع من الطبعة الحروفية

درجة رسول الله ومقامه في الذروة من السمو والرفعة ؛ أمّا مقامات الأنبياء والأئمة فأدنى منه . فيشفع الأئمة للأمة ويشهدون على أعمالهم ، لأنّ الناس العاديين لا قبل لهم بمقاومة نور الجلال دون واسطة وحجاب .
ومن هنا فإنّ ذلك النور يتنزّل بلحاظ المراتب والدرجات والمقامات ، فيأخذ كلّ نصيبه منه . لذا يمكن للإنسان الوصول إلى مقامات الرضا والتسليم أمام ذات الحقّ عن طريق التوسّل بالأئمة ، وبغير ذلك فإنّه سيبقى حائراً ضائعاً تائهاً إلى آخر عمره .

فَيَا رَبَّ بِالْخَلِّ الْحَبِيبِ نَبِيَّنَا رَسُولَكَ وَهُوَ السَّيِّدُ الْمُتَوَاضِعُ
أَنْلُنَا مَعَ الْأَحْبَابِ رُؤْيَيْكَ الَّتِي إِلَيْهَا قُلُوبُ الْأَوْلِيَاءِ تُسَارِعُ
فَبَابِكَ مَقْصُودٌ وَفَضْلُكَ زَائِدٌ وَجُودُكَ مَوْجُودٌ وَعَفْوُكَ وَاسِعٌ^١

خيال روى تو در هر طريق همره ماست

نسیم موی تو پیوند جان آگه ماست

بِرَغْمِ مَدْعِيَانِي كِه مَنَعِ عَشَقِ كَنَنْد

جمال چهره تو حجت موجه ماست

بین که سيب زنخدان تو چه می گوید

هزار يوسف مصري فتاده در چه ماست^٢

١- «ديوان ابن الفارض» ص ٢١٣ .

٢- «ديوان حافظ» ص ٣٩ ، طبعة پژمان .

يقول : «خيال طلعتك رفيقنا في كلّ درب ، ونسيم شعرك قرين أرواحنا .
وبرغم أنف المدّعين الذين يمتنعون العشق ويحظرونه ، فإنّ حُسن وجهك حجتنا
الوجيهة القاطعة .
فتطلّع إلى الغمّازة في ذنك إذ تقول بأنّ ألف يوسف مصري قد وقعوا في بثرنا .
(وصار لنا عاشقاً)» .

اگر به زلف دراز تو دست ما نرسد
 گناه بخت پریشان و دست کوتاه ماست
 به حاجب در خلوت سرای خاص بگو
 فلان ز گوشه نشینان خاک درگاه ماست
 به صورت از نظر ما اگرچه محجوب است
 همیشه در نظر خاطر مرقه ماست
 اگر به سائلی حافظ دری زند بگشای
 که سالهاست که مشتاق روی چون ماه ماست^۱

۱- يقول: «وإن عجزت أيدينا عن نيل جدائلك الطويلة، فذاك من طالعنا السيئ وأيدينا القاصرة.

فقل لحاجب بلاط خلوتك الخاص: إن فلاناً المنزوي أضحى تراب أعتابنا.
 وإنه - ولو كان محجوباً عن نظرنا في الظاهر - مائل على الدوام في خاطرنا المرقه.
 وإن طرّق الباب حافظ مُستجدياً فافتح له، فهو مشتاق منذ سنين لطلعتنا الشبيهة
 بالقمر!».

الْمَجْلِسُ السَّادِسُ وَالْأَنْعَامُ

شَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
 ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
 وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
 كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^١
 من بين الطوائف التي تحضر يوم القيامة للشهادة على أعمال الإنسان
 طائفة الملائكة . وقد بحثنا في المجلس السابق في كيفية شهادة رسول الله
 والأئمة الطاهرين عليهم السلام ، وسيدور بحثنا في هذا المجلس عن كيفية
 شهادة الملائكة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
 مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا
 يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ
 مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ

١- الآية ٦١ ، من السورة ١٠ : يونس .

نَفْسٍ مَّعَهَا سَاقِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ^١.

لقد خلقنا الإنسان ونعلم بجميع الهواجس والأفكار التي تعترية وتخطر في ذهنه ، والوساوس التي تعتمل في نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد الحيوي . وهناك ملكان جالسان عن يمينه وعن شماله يتلقيان الأعمال والألفاظ والأفكار التي تصدر منه ويسجلانها . والمراد عن اليمين والشمال ، جهتي السعادة والشقاء ، كناية عن أعمال الخير والسيرة الحسنة وعن أعمال الشر والسيرة السيئة ؛ تلك الأعمال التي تسوق الإنسان في نهاية المطاف إلى أصحاب اليمين أو إلى أصحاب الشمال . فهذان الملكان (عتيد ورقيب) يدوّنان كلّ ما يفعل أو يلفظ ، ولو كان كلمة واحدة .

ثم تأتي سكرة الموت بالحق ، ذلك الموت الذي كنت - أيها الإنسان - تفرّ منه وتناهى وتحيد ؛ ويُنفخ في الصور فهو يوم المعاد الذي تُسرّع فيه إلى لقاء الله وزيارة الحق تعالى . يؤمّئذٍ تجيء جميع النفوس والأرواح إلى ساحة الله وتقف في موقف عدله عزّ وجلّ .

كلّ نفس معها سائق وشهيد ، سائق تتحرّك النفوس إلى ذلك العالم على ضوء حركته وهديه ، وشهيد لم يطلع على جميع أعمالها وأفكارها فحسب ، بل دوّن كذلك تلك الأعمال وذلك السلوك ، وحفظ في ذاته وكيانه حقيقة العمل وهيئته بصورة كاملة ، من أجل أن يأتي في مثل هذا اليوم فيؤدّي شهادته بشأنها .

ولقد كنت - أيها الإنسان - في غفلة عن هذه الحقيقة ، فكشفنا عن بصرك حجاب المعنى ، فصار بصرك حاداً نافذاً . لذا صرت تشاهد حقائق

١- الآيات ١٦ إلى ٢٢ ، من السورة ٥٠ : ق .

ما وراء حجاب المادة والطبع . وليس ظواهر الأعمال والسلوك ووقائع الأمور والحوادث فحسب ، بل أضحيت تطلع على حقائقها وبواطنها ونواياها وملكاتهما وأخلاقها بلحاظ الخير والشر ، والسعادة والشقاء ، والحق والباطل .

لهذه الآيات دلالة على أن للإنسان ملكاً موكلاً به ، وأن لكل شخص ملائكة خاصين لتدوين أعماله وتسجيلها . وبطبيعة الحال فإن لكل من هؤلاء الملائكة الذين خلقهم الله تعالى وظائف ومهام خاصة . فبعضهم للعلم ، والآخر للحياة ، أما هذه الطائفة من الملائكة التي يذكرها عز وجل في هذه الآيات ، فهي طائفة الملائكة الذين يأتون يوم القيامة فيشهدون بما تحمّلوه في هذه الدنيا . أي أنهم يقومون بتدوين الأعمال ، الصالح منها والطالح :

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

فهذان المتلقيان يلزمان الإنسان على الدوام ولا ينفصلان عنه . وهما معه في نومه ويقظته ، وفي سكونه وحركته . حتى إذا لفظ الإنسان جملة ما ، دوناها على الفور . لا يعتريهما غفلة ولا نسيان ، ولا يطرأ عليهما تقاعس ولا فتور في القيام بوظيفتهما .

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .

وقد ذكر بعض الأعلام ، كصاحب «مجمع البيان» والعلامة الطباطبائي مدّ ظله السامي ، أن رقيب وعتيد ليسا اسمي علم لملكين ، بل هما صفتان بمعنى الحفيظ وبمعنى المعدّ المهيأ والحاضر والشاهد .

فهؤلاء الملائكة الحفظة المستعدّون يتسلمون كل جملة يلفظها الفم ، وكل قول يصدر من الإنسان ، خيراً كان أم شراً ، فيسجلونه ويدونونه .

كما ورد لدينا بهذا المضمون : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ *

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ.^١

يَبْدَأْنَا قَدْ ذَكَرْنَا فِي بَعْضِ الْأُبْحَاثِ السَّابِقَةِ أَنَّ لِكُلِّ صَنَفٍ الْمَلَائِكَةِ مَهْمَةً خَاصَّةً ، فَهَنَّاكَ مَلَائِكَةُ الْعِلْمِ ، وَمَلَائِكَةُ الْحَيَاةِ ، وَمَلَائِكَةُ الرِّزْقِ ، وَلِلْحِكْمَةِ وَالْحِفْظِ وَالْقُوَّةِ وَتَسْجِيلِ الْأَعْمَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَقَدْ كَلَّ صَنَفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِنْجَازِ وَظِيفَةٍ مَعَيَّنَةٍ عَلَى نَحْوٍ لَا يُمْكِنُهُمْ مَعَهُ تَخْدِيمَتُهُمُ الَّتِي هِيَ أَصْلُ خَلْقَتِهِمْ .

فَإِنْ كَانَ رَقِيبٌ وَعَتِيدٌ صِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ تَعْنِيَانِ الْحَفِيزَ وَالْحَامِيَةَ ، فَإِنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ تَدْلَانِ عَلَى ذَاتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ ، وَتُسَمَّيَانِ مَنَظَبَتَيْنِ عَلَى الْعِلْمِيَّةِ .

وَهَذَا بَدِيهِ ، إِذْ نَرَى الْيَوْمَ كَيْفَ تَسْجَلُ هَذِهِ الْأَلَاتُ الْمُخْتَرَعَةُ . - الرِّغْمُ مِنْ كَوْنِهَا مَادِّيَّةٌ لَا مَعْنَوِيَّةٌ رُوحَانِيَّةٌ - كَلِمَاتُ الْإِنْسَانِ وَصُورَتُهُ بِحَسْبِ يُمْكِنِهَا الْإِحْتِفَازُ بِهَذَا التَّسْجِيلِ قُرُونًا عَدِيدَةً ، فَيَنْبَغِي أَلَّا نَدَّعِ لِلشَّكِّ - إِلَى أَنْفُسِنَا فِي أَمْرِ قِيَامِ الْمَلَائِكَةِ الْإِلَهِيِّينَ الْأَحْيَاءِ بِتَسْجِيلِ الْأَعْمَالِ وَالصِّفَاتِ فَهَذِهِ الصُّورُ وَالْأَلْفَافُ يُمْكِنُ مَشَاهِدَتُهَا فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ الْخَاضِعِ لِسَيِّطَرَةِ الْمَلَكُوتِ وَالْمَعْنَى ، فَضْلًا عَنْ الْمَوْجُودَاتِ الْمَلَكُوتِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ الْمُهَيَّجَةِ وَالْمُطْلَعَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ .

إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ نَكْتَةً جَدِيدَةً بِالتَّأَمُّلِ ، وَهِيَ : هَلْ لِأُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبٌ مُخْتَلِفَةٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبٌ مُخْتَلِفَةٌ ؟

وَالْإِجَابَةُ : نَعَمْ ، إِنَّ لَهُمْ دَرَجَاتٌ مُخْتَلِفَةً . إِذْ إِنَّ بَعْضَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِثْلَ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَعِزْرَائِيلَ ، وَبَعْضُ الْآخَرِ أَتْبَاعُهُمْ وَجُنْدُهُمْ ، وَصَوْلًا إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْفَرَعِيِّينَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُ كُلُّ إِحْدِهِمْ

١- الْآيَاتُ ١٠ إِلَى ١٢ ، مِنَ السُّورَةِ ٨٢ : الْإِنْفِطَارِ .

ملكاً خاصاً منهم؛ ووصولاً إلى الملكين رقيب وعتيد الموكّلين بأعمال الإنسان .

على أنّ أعمال الإنسان ودرجاتها وكيفياتها متفاوتة بلحاظ الصحة ومقدار التقرب والخلوص في النية . فمعاصي الأفراد العاديين هي الذنوب التي يرتكبونها من زنا وكذب ولعب قمار وشرب خمر واعتداء على نوايس الناس وحقوقهم وأعراضهم ، وهي المعاصي التي يرتكبها عامة أفراد الناس .

لكنّ الأمر يختلف بالنسبة للمؤمنين ، إذ إنّ ملكة العدالة التي نشأت لديهم تردعهم عن ارتكاب أمثال هذه الكبائر ، فهم من الخواص ولهم أعمال خاصة . أمّا ذنوبهم فلها شكل آخر ، وهو الانشغال بغير الله عزّ وجلّ ، إذ إنّ التفاتهم إلى غيره سبحانه يُعدّ عليهم ذنباً .

فالخواصّ في مقام ودرجة لو غفلوا فيها عن الله تعالى ساعة في اليوم ، لتوجّب عليهم التوبة من ذلك ، لأنّ الالتفات إلى غير الله يعدّ عليهم ذنباً ومعصية .

وحين ترسخ هذه الصفة لدى المؤمنين بحيث تصبح من ملكاتهم ؛ ويغرقون في أسماء الحقّ وصفاته فلا يغفلون عنه سبحانه ، فإنّه تبارك وتعالى سيرفعهم إلى درجات أعلى ويجعلهم من أصفائه .

إلا أنّه يبتليهم ويختبرهم في هذه المرحلة ليرتقوا فوق هذه الدرجة . وعليهم أن يجتازوا هذه الاختبارات التي قد يصعب بعضها ويشقّ على النفس . وكثيراً ما يحصل أن يدعوا هؤلاء المؤمنون في خضمّ معاناة الشدائد والمصائب أن: يا إلهي! لقد هدّنا التعب ، فارفع عنا هذه المشكلات . ويمكن أن يبحثوا في أعماقهم باستمرار عن طريق الفرار من تلك المشاكل ، لكنّ حتّى هذا التفكير يعدّ ذنباً ، لأنّ واجبهم الفعليّ هو أن

يتحملوا ما يصيبهم بصبر وتحمل وثبات واستقامة ، لأنه من قبل الحق سبحانه . وينبغي عليهم تخطي هذه المرحلة دون الالتجاء للدعاء لرفعها فراراً من المحنة والشدة . فإن قالوا «خلصنا يا إلهنا من هذه الفترة فقد تعبنا وأعيينا» عُدّ ذلك معصيةً منهم . لذا يُقال - على هذا الأساس - إنّ الأصفياء يتوبون من التنفيس . أي من قولهم : نَفَسَ اللَّهُمَّ عَنَّا هَذَا الِهِمَّ .

فإن وُقِّقَ الأصفياء في هذه المرحلة واجتازوها بنجاح وظفر ، نقلهم الله سبحانه إلى درجة الأولياء . وأمثال هؤلاء الفائزين بهذه الدرجة ينعدم لديهم أي معنى لذنوب العامة والخاصة والأصفياء ، فلقد اجتازوا هذه المراحل وعبروها ، فصار ذنبهم في هذا الموقف والمنزل عبارة عن تلويث الخاطر . فماذا يعني تلويث الخاطر يا ترى ؟

يعني أنّ أذهانهم وخواطرهم وصفحات أفكارهم ينبغي أن تكون على الدوام منزّهة لا يمرّ عليها أية خاطرة . بل تبقى تلك الأذهان كالمرآة المشعّة أمام الحق وفي محضره ، لا يضيء فيها غير جمال الحق سبحانه ، فإن خطر على أذهانهم خاطر ما ، عُدّ ذلك ذنباً .

ونحن نعلم أنّ على الإنسان أن يتحلّى بحضور قلب خلال الصلاة ، أي أن يسعى ليكون التفاته إلى ذات الخالق بحيث لا تخطر على ذهنه خاطرة ما خلال الصلاة ، وأن يسعى ليكون ذهنه منزّهاً غير ملوث . فإنّ دأب أولياء الله أن لا تخطر لهم أية خاطرة ، ليس خلال الصلاة فحسب ، بل طيلة نهارهم وليلهم ، اللهم إلّا التفكير بأمر الله ، والأفكار الصالحة . حيث يكون ورود أمثال هذه الخواطر بإذن من قلوبهم . فإن حصل لبعضهم تشويش في بعض الأحيان سبب تلوث الذهن ، عُدّ ذلك من الذنوب ، وتوجب عليه الاستغفار منه .

وَتَوْبَةُ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ التَّلَوِثِ . ثم إنهم يرتقون من هذه الدرجة ،

فيصلون إلى درجة يتعذر فيها على أية خاطرة أن تمرّ على أذهانهم ، ويمتنع فيها على طائر الخواطر اقتحام دائرة أذهانهم أو أن يحطّ فيها .
 إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ^١.

إنّ المتّقين هم الذين حازوا مقاماً ودرجةً ، بحيث إذا ما شاء الشيطان الطواف حول قلوبهم تمهيداً للهبوط فيها ، أو إذا شاء إيجاد خاطرة فيها ، استعانوا بحربة ذكر الحقّ جلّ وعزّ ليطرده بها .

وحين يتنزّه الذهن ، فإنّه سيجد قوّة يمتنع بها على الخواطر الشيطانية فلا تنفذ فيه . فإن حصل للمتّقين في بعض الأحيان اضطراب في وجودهم وحقيقتهم ، عُدّ ذلك ذنباً لهم . ويُدعى هذا الاضطراب باضطراب السرّ .

يبدّ أنّه ليس من قبيل الذنوب الخارجيّة ، ولا من الذنوب الفكرية والذهنيّة ، ولا من الذنوب القليّة ، كما أنّه ليس تنفيساً وانشغالاً بغير الله تعالى . فهو ليس واحداً من هذه الذنوب . وينبغي على نفوس هؤلاء المتّقين أن تكون في الشدائد والمحن الشاقة والعجيبة أشبه بماء البحر ، صافيةً ولطيفة لا يعكرها ولا يشوبها أي موج ولا اضطراب .

فإن حصل في هذه النفوس ، إثر ابتلاءٍ معيّن أو حادثٍ ما اضطراب وتشويش ، مثل ماء البحر الساكن الذي تهبّ عليه الريح فيتموّج ويضطرب ، عُدّ ذلك منهم ذنباً ، وتوجّب عليهم أن يتوبوا منه ، وهذه التوبة هي توبة من اضطراب السرّ .

وقد ورد ضمن رواية في «مصباح الشريعة» المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام :

١- الآية ٢٠١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

تَوْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ اضْطِرَابِ السَّرِّ؛ وَتَوْبَةُ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ تَلَوُّثِ الْخَطَرَاتِ؛
وَتَوْبَةُ الْأَصْفِيَاءِ مِنَ التَّنْفِيسِ؛ وَتَوْبَةُ الْخَاصِّ مِنَ الْاِسْتِغَالِ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ وَتَوْبَةُ
الْعَامِّ مِنَ الذُّنُوبِ^١.

والخلاصة فإذا ما تُخِطَّتِ مرحلة اضطراب السرّ، أعقبتها درجة
معينة خاصة بالمخلصين ينعدم فيها اضطراب السرّ، ويسودها الهدوء
والسكون المحض .

ويستنتج من هذا الأمر أنّ أولئك الملائكة الموكّلين بالإنسان
يمتلكون بدورهم درجات ومقامات مختلفة . فهناك طائفة من الملائكة
الفرعيين بإمكانهم تسجيل الأعمال فقط . وهناك طائفة أخرى ينبغي أن
تكون درجاتهم أكمل ، ليفهموا متى ينشغل الإنسان بالله سبحانه ومتى
ينشغل بغيره . وهؤلاء يسجّلون في هذه المرحلة خصائص مدركات الإنسان
الذهنية كما أنّ هناك طائفة أخرى أرفع مقاماً ، وهم الموكّلون بالأصفياء ،
يسجّلون تنفيسهم في مواقع الابتلاء والمحنة ، ويسجّلون حالاتهم خلال
الامتحانات والاختبارات وفي سائر الشؤون الأخرى .

وهناك طائفة أعلى منهم مقاماً ، وهم الملائكة الموكّلون بالأولياء ،
يسجّلون درجات شؤونهم وأحوالهم ، ويدوّنون التلوّث الذي قد يحصل
لخواطرهم في جميع الأحوال . وبناءً على ما ذكر فليس لجميع الملائكة
نفس الدرجة والمقام الواحد .

بيد أنّ للإنسان مقاماً دقيقاً وموقفاً لطيفاً لا يمكن لأيّ ملك من
الملائكة أن يسجّله . لماذا؟ لأنّ الإنسان يصل في مرحلة الصعود وفي مقام
القرب إلى حيث لا يمكن لأيّ موجود أن يعلو عليه ، حتّى لو كان ذلك

١- «رسالة لقاء الله» ص ٤١ ، طبعة انتشارات هجرت ، نقلاً عن «مصباح الشريعة» .

الموجود من الملائكة المقرّبين .

يقال : إنّ الإنسان أشرف المخلوقات . أي ذلك الإنسان الذي يصل في مقام التزكية والتهذيب إلى حيث يخرج عن دائرة علم الملائكة المقرّبين وقدرتهم ، وإلى حيث لا يفصل بينه وبين الذات القدسيّة للباري تعالى أيّ حجاب أوفاصلة ، وإلى حيث لا يمكن لأيّ ملك الورود إلى ذلك المقام ، إذ يتعذّر على فكر الملك وعلمه وخواطره وسعة قدرته كمّلك أن يسجّل دقائق خلوة المؤمن بحضرة الحقّ تعالى .

وقد جاء في الروايات قولٌ للمعصومين عليهم السلام : لِي مَعَ اللَّهِ حَالَاتٌ لَا يَسَعُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ^١.

أي أنّ لكلّ منّا حالات مع الله فوق سعة جميع الملائكة المقرّبين بحيث يعجز الإدراك الرفيع والفكر المتعالي لأيّ ملك من الوصول إلى تلك الحالات وإدراكها .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء الذي علّمه لكميل بن زياد ، ضمن تضرّعه إلى الله عزّ وجلّ :

وَكُلُّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتُ بِإِثْبَاتِهَا الْكَرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوَارِحِي وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالشَّاهِدَ لِمَا خَفِيَ عَنْهُمْ .

وكلام الإمام هذا إشارة إلى الذنوب المتعلقة بالأنبياء والأولياء . تلك الذنوب التي يتعذّر على الملائكة الاطلاع عليها ، والتي لا يعلم بخصائصها غير الذات القدسيّة للحقّ تعالى . ويتمثل غفرانها في رفع اضطراب السرّ . أي أنّ الله تعالى يمنّ على عبده المؤمن الذي وصل إلى تلك الدرجة ،

١- «بحار الأنوار» ج ١٨ ، ص ٣٦٠ .

فيُبقّيه في حرمه ويضيّفه بحيث لا يعترّيه اضطراب السرّ طوال مدّة عمره إلى أوان وفاته .

كان هذا كلامنا في شأن الأفراد الذين يرتكبون أمثال هذه الذنوب ، فيسجّل الملائكة أعمالهم بهذه الطريقة . أمّا فيما يتعلّق بأهل المعصية فإنّ الملائكة يطلّعون على جميع أعمالهم ، لأنّهم يطلّعون على ذنوب الخاصّة والعامة وعلى سائر أعمالهم الأخرى . أمّا اضطراب السرّ أو تلوّث خاطر أو التنفيس المختصّ بالمتّقين ، فإنّ الملائكة لا تطلّع على بعض خصوصيّاته .

ولدينا في الروايات أنّ للإنسان ملكين في النهار ، وملكين في الليل . فملكا النهار يأتيان من أوّل طلوع الفجر الصادق ، فيلازمان المرء ويستقرّ أحدهما على كتفه الأيمن بينما يستقرّ الآخر على كتفه الأيسر . وبطبيعة الحال فإنّ الملك ليس موجوداً مادّيّاً ليحتاج إلى محلّ ، إلّا أنّه إذ يتعلّق بالمادّة فإنّه يكتسب نسبة وإضافة إلى المادّة . شأنه في ذلك شأن أرواحنا غير المادّيّة التي حصلت - بواسطة تعلّقها بالبدن - على إضافة ونسبة خاصّة لذلك البدن .

فمجيء الملكين السماويّين واستقرارهما على كتفي الإنسان هو إذاً نظير تعلّق النفس بالبدن . كما أنّ اليمين والشمال كناية عن السعادة والشقاء . أي أنّ أحد ذينك الملكين يسجّل الأعمال الحسنة ، ويدعو الإنسان إلى الأعمال الصالحة ويلهمه القيام بها ؛ أمّا الآخر فيسجّل الأعمال الطالحة وينهى الإنسان عن ارتكابها . ثمّ يهبط ملكا الليل عند غروب الشمس ليلازما الإنسان إلى طلوع الفجر . فيتبادلان موقعهما مع ملكي النهار اللذين ينصرفان . وتدعى هذه الملائكة بملائكة الليل والنهار . يقول المرحوم آية الله العظمى الحاجّ الميرزا جواد آقا الملكيّ

التبريزي أعلى الله تعالى مقامه الشريف - وكان من كبار العلماء الأتقياء وأفاضل الأولياء والأصفياء، ممن حاز على مقامات ودرجات وكرامات - في كتابيه «أسرار الصلاة» و «أعمال السنة» أو «المراقبات» : إن الإنسان يرقد في الليل فيوقظه الملائكة الموكّلون به لصلاة الليل ، فإن لم يلقِ إلى ذلك بالاً وعاد إلى النوم ، فإنهم يوقظونه من جديد . ثم ينام فيوقظونه من جديد . وليس هذا الاستيقاظ المتكرّر أمراً اتفاقياً ، بل هو استيقاظ ملكوتي يحصل بواسطة الملائكة . فإن أفاد الإنسان منه ونهض أعانوه وقوّوا روحه ، وإلاّ أصابهم التأثّر والفطور .

يقول ذلك المرحوم : إذا قمتَ من النوم فلم تشاهد أولئك الملائكة ، فحيّهم وسلّم عليهم على الأقل ، وادعُ لهم واشكرهم .
ثم ينقل في كتابه دعاءً بعنوان سلام وتحية لأولئك الملائكة ، يقرأه الإنسان حين ينهض من النوم ، ويحمد الله الذي جعل هذه الموجودات الملكوتية تلازمه لتؤنسه وتعينه في خلوته ومناجاته لربه ، وتطهره من تعلّقات عالم المادّة ومن الرذائل الأخلاقية والشهوات ، وتلّفته إلى ربه .
ينقل أحد إخوة الإيمان أنّه عندما كنت في حرم سيّد الشهداء عليه السلام في إحدى الليالي قرب أذان الصبح ، حيث كان الناس منهمكين بالعبادة ، وكلُّ واحد منشغل بنفسه ، شاهدتُ أحد أصحاب المكاشفة - ممن تعرّفت عليه سابقاً - وهو يجلس إلى جهة الرأس المطهر وقد غرق في التفكير العميق وكان الناس ينتظرون حلول الأذان ليصلّوا صلاة الصبح . فتوجّهت إليه وسألته : هل حلّ وقت صلاة الصبح أيّها السيّد ؟ فتطّلع إليّ وقال : أفأعمى أنت ؟ ألم تشاهد ملائكة الليل قد رحلوا وملائكة الصبح قد جاءوا ؟!

وكان ذلك الشخص المراقب المتفكّر صادقاً ، فقد كان يرى ذلك

عياناً ، لأنّ عينه الملكوتية كانت مفتوحة مُبصرة . أمّا الآخرون فكانوا لا يرون شيئاً .

إنّ بصر الإنسان لا ينحصر في عينيه الواقعتين في مجتمه فهذه هي أعين عالم المُلك التي يمكن للإنسان بواسطتها الارتباط مع موجودات عالم الطبع والمادة . إلّا أنّ الإنسان يمتلك كذلك عيناً ملكوتية يمكنه من خلالها الارتباط مع موجودات عالم المعنى ومع الملائكة .

وعلى أيّ تقدير فإنّ علم الملائكة الذين يدوّنون أعمال الإنسان ليس منفصلاً عن علم الله عزّ وجلّ ، كما ليست شهادتهم منفصلة عن شهادته تعالى .

وقد أُرسيت قواعد الفلسفة التوحيدية الإلهية على أساس أنّ فعل جميع الموجودات التي تصدر منها الأفعال هو عين فعل الله وليس منفصلاً عن فعله تعالى .

وعلى سبيل المثال فإنّ عمل الملائكة الذين يسجّلون الأعمال هو عين فعل الله عزّ وجلّ . وليس الأمر بحيث إنّ الله أطلاعاً وعلماً ، وإنّ لهم أطلاعاً وعلماً آخر منفصلاً عن علمه .

ليس الأمر بحيث إنّ الشاهد شاهدٌ على أعمال الإنسان ، وإنّ الملائكة يشهدون على تلك الأعمال بصورة منفصلة عن حكومة الله وسيطرته . إذ إنّ علمه تعالى بالموجودات علم حضوريّ لا حصوليّ . لذا فإنّ نفس الملائكة حاضرون مع علمهم عند الله المتعال ، وهذا الحضور هو علم الله سبحانه .

وعلى هذا الأساس فإنّ علم الملائكة هو عين علم الله ؛ كما أنّ شهادتهم - بلحاظ التحمّل والأداء - هي عين المثول في محضر الحقّ المتعال ، وعين الإحاطة والسيطرة الإلهية الوجودية والحضورية بهم . وهما

- إذا - عين علم الحق وشهادته .

وبعبارة أبسط بياناً ، فإن الملائكة لا يمتلكون استقلالاً بأنفسهم ، إذ ليسوا إلا مجرد آلة محضة ، ومرآة وآية محضتان . ولقد تجلّى علم الله تعالى فيهم ، فصاروا يرون ويتحمّلون بواسطة علم الحق تعالى ثم يقومون بأداء الشهادة .

ومن هنا فإن هذه الأمور تنتسب للملائكة بلحاظ مقام الكثرة ، وتنتسب إلى الحق تبارك وتعالى بلحاظ مقام الوحدة . وهي بلحاظ مقام الوحدة في الكثرة منتسبة إلى الحق الذي ظهر وتجلّى في هذه المرايا . كما أنّها بلحاظ مقام الكثرة في الوحدة منتسبة إلى الملائكة ؛ قد نشأت بعلّة التحقّق بالحقّ تعالى .

وبتعبير أبسط فإنّ علم الملائكة وشهادتهم هما عين علم الله وشهادته ، إذ لا استقلال - عموماً - للوسائط بنفسها ، بل هي طلوع وظهور لعلم الله من خلال مرايا وجود هذه الوسائط ، دون أن يكون للوسائط بنفسها أيّ دخل في ذلك ، وهذا هو المعنى الحقيقيّ للتوحيد .

يقول الله عزّ وجلّ : وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^١

فما الذي يعنيه ذلك ؟ يعني أنّ كتاب الله المتجلّي (وهو عالم التكوين والخلقة) هو عين علم الله سبحانه . فعلمه تعالى إذاً ليس منفصلاً عن عالم الخلقة وكتاب التكوين . كما أنّ عالم التكوين والشهادة - في المقابل - ليس منفصلاً عن علم الله عزّ وجلّ .

أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ

١- الآية ٦١ ، من السورة ١٠ : يونس .

يَكْتُمُونَ^١.

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أنه تعالى على الرغم من تسميته الملائكة بكتاب الأعمال ، فإنه يقول : إِنَّا نَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ . كما يقول تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ^٢.

أي أن فعل الملكين هو فعلنا؛ وأخذهما وتلقيهما، هو أخذنا وتلقينا. لقد تجلّى علمنا الكلّي المحيط في هذه الشبكات والقوالب والآلات والمرايا، فظهر في كلّ ملك بقدر سعته . فصار علمهم - من ثم - عين علمه عز وجلّ .

والملفت للنظر هنا أن جملة إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ وردت في موضع تعليل . أي أنها جاءت للإجابة على سؤال : لماذا نحن أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ؟ ولماذا نعلم بوساوسه وأفكاره ونواياه وخواطره ؟ لأن المتلقيين جالسان عن الشمال وعن اليمين يحفظان جميع أقواله وأفعاله . فنفس حفظهما وحراستهما - إذاً - هي عين علمنا واطلاعنا وحفظنا . ومن هذا القبيل جملة : وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^٣، الواردة بعد قوله : وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ .

أي أن رؤية رسول الله والمؤمنين هي عين شهادة الحق جلّ وعزّ .

١- الآية ٨٠، من السورة ٤٣ : الزخرف .

٢- الآيتان ١٦ و ١٧ ، من السورة ٥٠ : ق .

٣- الآية ١٠٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

ونظير هذه الآيات الكريمة التي ينسب فيها الله إلى نفسه عمل الموجودات والملائكة كثيرة وجمة في القرآن الكريم . وليست حقيقة التوحيد أمراً غير هذا . وعلى الإنسان أن ينتبه ويتوجه كل ساعة من نهاره وليله إلى أنه لم يُخلق مهملاً في عالم التكوين .

يقول القرآن الكريم : **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**^١ .

إنّ الإنسان لم يترك سدى ، فهو موجود من الموجودات التي خلقها الله تبارك وتعالى عن علم وحكمة . وكلّ ذرّة شكّلت بدن الإنسان وأوجدت روحه وسرّه وأكملت ظاهره وباطنه كانت وفق تقدير وحكمة . وبالتالي فإنّ الإنسان مسؤول في محضر الحقّ سبحانه . فإن هو طوى صراط الحقّ ومسيرة العدل والصراط المستقيم الذي ينبغي عليه طيه ، فسيكون قد اجتاز طريقه وفق نظرية الخلق التشريعية .

وعلى الإنسان أن لا يتصوّر أنّه كان مهملاً ، ليتحرّك ساعة في الطريق المستقيم وأخرى في مسار مُنحرف ؛ وليتوجه إلى الله في ليلة معينة ويغفل عنه في أخرى ؛ وليرتفع عن الكذب في شهر رمضان ثمّ يدنس نفسه بالمعصية بعد شهر رمضان .

ای مرکز دائره امکان وى زبده عالم کون و مکان
تو شاه جواهر ناسوتى خورشيد مظاهر لاهوتى
تاكى ز علايق جسمانى در چاه طبيعت خود مانى^٢

١- الآية ٣٦ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

٢- مجموعة الشيخ البهائي «شير و شكر» ص ٢٣ .

يقول : « يا محور دائرة الإمكان ، وخلاصة عالم الكون والمكان .

أنت ملك الجواهر الناسوتية ، وشمس المظاهر اللاهوتية .

إلى متى تبقى متردّياً في بثر طبعك من جزاء العلائق البدنية ؟ » .

تا چند به تربیتِ بدنی	قانع به خرف زِ دَرِ عَدَنی
صد مُلْك زِ بهر تو چشم به راه	ای یوسف مصر برآ از چاه
تا والی مصر وجود شوی	سلطان سریر شهود شوی
در روز اَلست بَلی گفתי	وامروز به بسترِ «لا» خفתי
تا کی زمعارف عقلی دور	به زخارف عالمِ حَس مغرور
از موطن اصل نیاری یاد	پیوسته به لهو و لعب دلشاد
نه اشك روان نه رخ زردی	الله الله تو چه بی دردی
یکدم به خود آ و بین چه کسی	به چه بسته دل و به که هم نفسی
زین خواب گران بردار سری	می پرس ز عالمِ دل خبری
زین رنج عظیم خلاصی جوی	دستی به دعا بردار و بگوی
یا ربّ یا ربّ به کریمی تو	به صفات و کمالِ رحیمی تو
یا ربّ به نبیّ و وصیّ و بتول	یاربّ یاربّ به دوسبطِ رسول ^۱

۱- يقول: «والی متى تقنع - بتربية بدنك - بالخرف بدلاً من درّ عَدَن؟
 إِنَّ مائة ملك يترقبون وصولك، فاخرج يا يوسف مصر من البئر.
 من أجل أن تصبح والي مصر الوجود، ولتصبح سلطان سرير الشهود.
 لقد قلت «بلى» في يوم «ألست»، فرقدت اليوم في فراش «لا».
 إلى متى تنأى عن المعارف العقلية، مغروراً بزخارف عالم الحسن؟
 لا تذكر شيئاً عن وطنك الأصلي، مبهجاً باللهو واللعب.
 فلا دمعك جارٍ ولا طلعك شاحبة، الله الله كم أنت معافى بلا غم!
 فعُدْ إلى نفسك لحظة وانظر مَنْ تكون، وبمَ ماذا تعلّق قلبك خلال أنفاسك
 المعدودة؟

وانهض من نومك الثقيل وانشد عن أخبار عالم القلب.
 وانشد خلاصك من هذه المحنة العظيمة، وارفع يديك وادعُ قائلاً.
 يا ربّ يا ربّ، أقسم عليك بكرمك وصفاتك وتمام رحمتك.
 وأقسم عليك بالنبیّ والوصیّ والبتول؛ وأستحلفك بسبطي الرسول.

يا ربّ به عبادت زين العباد به زهادت باقر علم رشاد
يا ربّ يا ربّ به حقّ صادق به حقّ موسى به حقّ ناطق
يا ربّ يا ربّ به رضا شه دين آن ثامن و ضامن اهل يقين
يا ربّ به تقى و مقاماتش يا ربّ به نقى و كراماتش
يا ربّ به حسن شه بحر و برّ به هدايت مهدي دين پرور
كين بنده مجرم عاصي را وين غرقه بحر معاصي را
از قيد علائق جسماني وز بند وساوس شيطاني
لطفى بنما و خلاصش كن وز اهل كرامت خاصش كن
يا ربّ يا ربّ كه بهائي را آن بيهده گرد هوائى را
كه بلهو ولعب شده عمرش صرف ناخوانده ز لوح وفا يك حرف
زين غم برهان كه گرفتار است در دست هوى و هوس زاراست
در شغل زخارف دنياى دون مانده به هزار امل مفتون^١

١- يقول : «وبعبادة زين العباد ، ويزهد باقر علم الرشاد .

يا ربّ بحقّ الصادق ، وبحقّ موسى الناطق بالحقّ .

يا ربّ بحقّ الرضا ملك الدين ، الإمام الثامن ضامن أهل اليقين .

يا ربّ بالتقى ومقاماته ، وبحقّ النقيّ وكراماته .

وبحقّ الحسن سلطان البرّ والبحر ، وبهديّ المهديّ مقيم الدين .

الطّف بهذا العبد المجرم العاصي ، غريق بحر الذنوب والمعاصي .

ونجّه من قيد العلائق الجسمانيّة ، ومن وثاق الوسوس الشيطانيّة .

وخلّصه بلطفك واجعله من أهل الكرامة الخاصّة .

يا ربّ يا ربّ ، إنّ البهائيّ الذي ليس إلّا ذرّة غبار لا معنى لها .

قد انقضّى عمره في اللهو واللعب دون أن يتلو من صفحة الوفاء حرفاً .

فنجّه من الغمّ فهو أسير مُمتحن يشنّ من الهوى والهوس .

فلقد ظلّ مفتوناً بالزخارف الدنيويّة يحدوه ألف أمل .»

رحمى بنما به دل زارش بگشاز كرم گيره از كارش
از پيش مَـران ز ره إحسان به سعادت ساحتِ قرب رسان
وارسته ز دنيى دونش كن سر حلقه اهل جنونش كن^١
و حقاً فإنَّ الإنسان لو كان مع الله ، ولو عمل عملاً لرضاه تعالى ، فإنَّه
سيجد بوضوح أنَّ الله لن يتركه مهملاً ، وأنَّه يُغيثه في مواقع الضرورة ، وأنَّ
الأرواح الطيبة الحية وجنود الملائكة تتعباً من أجل حراسته وحفظه ، لأنَّ
عالم الوجود حيّ يقظ .
وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ^٢ .

وقد وقعت قضية جدية بالتأمل خلال السنتين الأخيرتين في أيام
الحج ، وهذه القضية متعلقة بكريمة شيخ طائفة الأعلام آية الله آقا الميرزا
محمد علي الأراكى دام ظلّه العالى ،^٣ وهو من علماء الطراز الأول البارزين
في الحوزة العلمية المقدسة في قم ، ومن الزهاد والعباد العدول وممن
لا يشك في وثاقته العامة والخاصة .

يقول : إنَّ كريمتي من النساء الصالحات المتديّنات ، وقد تكفّلت
بنفسي بأمرها الشرعية وبأمر تعليمها وتربيتها وتأديبها ، وكانت تحت
إشرافي في جميع أمورها منذ نعومة أظفارها . ولا يعترضني الريب أبداً
في صدقها .

١- يقول : « وارحم قلبه الضارع الشاكي ، واجعل له من أمره مخرجاً بكرمك .

ولا تطرده عن بابك ، واسلك به سبيلاً - بإحسانك - إلى سعادة ساحة القرب » .

وحزّره من الدنيا الدنيّة ، واجعله (بحبك) شيخ حلقة أهل الجنون » .

٢- النصف الثاني من الآية ٤ ، من السورة ٥٠ : ق .

٣- الكتاب مؤلّف قبل رحيله قدّس سرّه . وقد حافظنا على عبارة المصنّف ، فاقضى

التنويه . (م)

وكانت قد سافرتُ إلى بيت الله الحرام في موسم الحج بمفردها دون أن يصحبها زوجها . وكانت من العقّة والحياء واجتناب الرجال بحيث أقلقها أمر سفرها بمفردها ، لذا كان التفكير شغلها الشاغل . فقد كانت تتساءل : « يا إلهي كيف لي بالسفر وحدي ؟ إنني لم أتشرف بزيارة بيت الله الحرام حتى الآن ، ولا أعلم شيئاً عن مناسك الحج وآدابه ، فكيف سأطوف وأسعى ؟ » حتى حان موعد السفر ، فقلت لها أثناء الحركة : « كرري هذا الذكر وسافري : يَا عَلِيمُ يَا خَبِيرُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُعِينُكَ » .

ولأنّ هذا السفر هو سفر واجب فمن الطبيعي أنّ الله سبحانه سيرعى ضيوفه الذين لا يهتدون سبيلاً .

وقد أتممت كريمتنا سفرها بحمد الله ومنه وعادت موفقة سالمة وحكت لنا ما وقع لها في مكّة المكرّمة عند ورودها إلى بيت الله الحرام للقيام بالطواف فقالت :

« لقد أحرمتُ ثم دخلت المسجد الحرام لأطوف ، فشاهدت أنّ الناس قد احتشدوا حول الكعبة بشكل يتعذر عليّ معه أن أطوف ؛ فاهتديت إلى الحجر الأسود الذي يمثل نقطة بداية الطواف ، بيد أنّي كلّما حاولت الشروع من هناك والطواف حول الكعبة عجزتُ . فأحسستُ بالعجز والحيرة ، وقلت ضارعة : يا إلهي ! لقد جئتُ للطواف حول بيتك ، وأنت ترى أن لا قدرة لي على ذلك مع هذا الأزدحام وهذا الجمع . فماذا سأفعل يا إلهي ، فأني عاجزة ؟ ! »

فشاهدتُ فجأة أنّ هناك مكاناً فارغاً على شكل أسطواني قد انفتح بمحاذاة الحجر الأسود ، وسمعت صوتاً يهمس في أذني قائلاً : أوكلي نفسك إلى إمام عصرك وطوفي معه في هذا المكان ! فدخلتُ في ذلك المكان الأسطواني الفارغ ، وشاهدت أمامي إمام العصر عليه السلام منهمكاً

بالطواف مع شخص آخر يسير خلفه من جهة اليسار تقريباً، فانشغلت بالطواف خلفهما، وبدأت من عند الحجر الأسود وأتممت سبعة أشواط على هذا المنوال. فلم أحس في هذه المدة باحتشاد الناس، بل ولم يصب بدني ولا يدي إصبع أحد، وكنت في جميع الأشواط السبعة أتوسل بالإمام وأمسح بيدي على كتفه في ضراعة ورجاء، إلا أنني لم أكن أشاهد وجه الإمام، إذ كان منهمكاً بالطواف ناظراً إلى الإمام.

وعندما انتهت الأشواط السبعة شاهدت نفسي خارج تلك الحلقة وقد اختفى من أمام ناظري الإمام وذلك الشخص الآخر، فلم أعد أشاهدهما. وأنا آسفة على أمر واحد في هذه الواقعة، وهو أنني لم أسلم على الإمام لأسمع جواب سلامه أيضاً.

يقول آية الله الأراكبي مدّ ظله السامي: «هذه هي نتيجة الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ، ونتيجة الإحساس بالعجز والفاقة إليه، والتبتّل والابتهاال إليه سبحانه. ولقد تشرفت بالسفر لأداء الحجّ، وكنت في غاية الشوق واللهفة لاستلام الحجر الأسود، فذهبت يوماً للطواف مع جمع من الأصدقاء عسى أن يعينوني خلال الزحام فأستلم الحجر مرّة. حتّى أنني اقتربت من الحجر برفقة الأعوان والمرافقين وكدت استلمه بيدي، وإذا فجأة قد ازداد ضغط ازدحام الناس، بحيث قذف بنا بعيداً فسقط كلّ واحد منا في جانب. وهذه هي نتيجة عدم الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ، والتي تمثّلت - عموماً - في اعتمادنا على أولئك المرافقين».

ولا يزال آية الله الأراكبي على قيد الحياة في الوقت الحاضر،^١ وهو شيخ نورانيّ معمر ربّما جاوز عمره التسعين، ويسكن في قم، وقد سمع

١- سبق أن نوّهنا بأن الكتاب مؤلّف في حياة آية الله الأراكبي قدّس سرّه. (م)

كثير من المشتاقين هذه القصة منه ، كما أنّ الراغبين في سماعها يمكنهم التشرّف بالسفر إلى قم والمثول في محضره لاستماعها مباشرة منه دونما واسطة . كما أنّ كريمته لا تزال على قيد الحياة ، ويمكن للمخدرات الاستماع إليها والاستفادة منها .

والخلاصة فإنّ عالم تكوين التحقق الخارجي يقظ ، وأنّ وليّ مركز الفعل الإلهي حيّ ، وعلى الإنسان أن يتحرّك باستمرار على مسار الصراط المستقيم وسبيل العدالة . أي ينبغي أن يكون أرجاء وجود الإنسان من الأفعال الخارجية والأفكار الذهنية والخواطر القلبية في صراط هدى الحق . وعلى الإنسان أن يجسّد الحق بتمام معنى الكلمة وأن يجتنب الباطل ، وإلّا فسيأتي يوم تلزمه فيه الحسرة والندم . يوم الجزاء الذي تأتي فيه الملائكة بأعمال الإنسان فتعرضها عليه ، فيتعالى صراخه :

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا^١.

ذلك اليوم هو يوم الخزي والحجل . وذلك الموقف هو موقف الحياء والذلة والمسكنة .

ومثل الإنسان في هذه الدنيا كمثّل طائر الحجل الذي يدفن رأسه في الثلج لئلا يراه الصياد . فهو يتخيّل في كلّ قبيح يرتكبه أنّ الله لا يراه ، وأنّه إذا تغافل فإنّ عالم الوجود سيغفل عنه . فهو يتصوّر هذا العالم عالماً جاهلاً أعمى ، ويظنّ بأنّ عالم المادّة والطبع عالم بلا شعور . فهو لا يرى الملائكة مهيمنين على هذا العالم ، فلذلك يخيل إليه أنّ ما يراه هو الحقيقة ، غافلاً

١- الآية ٤٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

عن أن هذا لا يعدو مجرد تصوّر ووهم ، وأنّ العالم عالم حيّ .
وستحدث في المجلس القادم إن شاء الله تعالى (وموضوعه عن
المعاد) عن كيفية شهادة الجمادات ، فيتّضح أنّ الباب والجدار مطلعان على
أعمالنا أيضاً ، وأنّهما يدوّنان ذلك . ويشكّل هذا الأمر مسألة منفصلة
ومستقلة قائمة على أساس فلسفيّ ونظريّة أخرى .

وعلى آية حال : **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى^١** .

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقرأ هذه الآية فيكرّرها ، لأنّه
عليه السلام يرى حقيقة الأمر ويعلمها ، إذ كان ينظر بعين البصيرة فيرى أنّ
جميع موجودات عالم الملك تخضع لقيمومية موجودات عالم الملكوت ،
وأنّ عالم البدن والطبع محكومٌ لعالم الغيب وخاضع له ، وأنّ البدن خاضع
للنفس ، وأنّ جميع العالم خاضع لتلك الروح الكلّية والولاية العامة المهيمنة
على جميع الموجودات .

وعلى هذا الأساس ، فإذا ما تغافل المرء - مع كلّ هذه الخصوصيات -
فإنّه سيبتلى غداً بالحسرة الشديدة والندم العميق ، ويتعالى صراخه قائلاً :
وَاحْسَرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .

لقد كنت غافلاً في محضر الله عزّ وجلّ ، ولقد كان لي المقام الفلاني
فلم أبلغ المقصود ، فكنت خائناً لربّي الذي أوجدني ورعاني في كلّ جانب
والخالق الذي ربّاني وتعهديني .

لقد بلغنا مقام الكمال والعلم والقدرة ، فنظرنا إلى الدنيا باستصغار ،
وألهينا أنفسنا بالشهوات والغفلة حتّى انقضى العمر وغادرنا هذا العالم بأيدي
صفرات خالية ، وذلك هو موقف الندم .

١- الآية ٣٦ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام إمامنا ؛ ومعنى الإمام أنَّه قدوتنا الذي نتبعه ونقتفي أثره . ومن لوازم الإمامة أن يجعل المأموم أعماله وفق حركات الإمام وسكناته ، وإلا لما صدق للائتمام من معنى . ولو أمَّ امرؤ جماعة فركع الإمام ووقف المأموم ، ثم سجد الإمام فقرأ المأموم الحمد والسورة ، ثم قنت الإمام فسجد المأموم ، ثم نهض الإمام فجلس المأموم ، لما دُعي ذلك ائتماماً . بل الائتمام - بعد حصول النية الصادقة والقصد - عبارة عن المتابعة والاقتداء في جميع الأعمال والأفعال والأقوال .

وأمير المؤمنين عليه السلام هو إمامنا بلا ريب ، إلا أنَّه ينبغي أن نرى مدى ائتمامنا به . أنأتمَّ به في جميع الحالات واللحظات ؟ أينحصر ائتمامنا به في الأفعال الخارجيّة أم في الخواطر الذهنيّة ، أم في المعاني والأُمور الوجدانيّة القلبيّة ؟ أكنا مستعدين لتطهير أنفسنا وتركيتها كما فعل ؟

يَا نَدِيمِي ضَاعَ عُمْرِي وَانْقَضَى	قُمْ لَاسْتِذْرَاكِ وَقْتٍ قَدْ مَضَى
وَاغْسِلِ الْأَدْنَسَ عَنِّي بِالْمُدَامِ	وَأَمْلَا الْأَقْدَاحَ مِنْهَا يَا غُلَامَ
أَعْطِنِي كَأْسًا مِنَ الْخَمْرِ الطَّهْوَرِ	إِنَّهَا مِفْتَاحُ أَبْوَابِ السُّرُورِ
خَلِّصِ الْأَرْوَاحَ مِنْ قَيْدِ الْهَمُومِ	أَطْلِقِ الْأَشْبَاحَ مِنْ أَسْرِ الْغُمُومِ

كاندرين ويرانه پر وسوسه	دل گرفت از خانقاه و مدرسه
نه ز خلوت کام بردم نه ز سير	نه زمسجد طرف بستم نه زدير ^١

١- مجموعة الشيخ بهاء الدين العاملي «نان و حلوا» ص ٢٠ .

يقول : «إنَّ باطني خربة مليئة بالوسوس ، وقلبي منقبض عن معبد الدراويش والمدرسة .

فلا أنا في خلوتي ثلث مناي ولا في سيري ؛ ولا أنا بالمسجد ارتبطت ولا بالدير» .

عالمی خواہم از این عالم بِدَر تا به کام دل کنم سیر دگر^۱

۱- يقول: «أريد عالماً خارج هذا العالم ، لأنال مُنى قلبي وأسير سيراً آخر» .

الْجُلُوسُ السَّابِعُ وَالْأَوَّلُ

شَهَادَةُ الْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^١.

تذكر هذه الآية أوضاع الأفراد في يوم القيامة بلحاظ الشهادة ، فهناك طائفة من الشهداء يوم القيامة هم أعضاء الإنسان وجوارحه ، إذ إن أيدي أعداء الله وأرجلهم وآذانهم وجلودهم وأبدانهم تشهد مع غيرها على الأعمال التي ارتكبوها في الحياة الدنيا .

ولا يعني ذلك - بطبيعة الحال - أن الأيدي والأرجل سيصبح لها لسان كلساننا فتحدث صوتاً ونطقاً ، بل شهادتها هي إظهارها للوجود وجعلها تمثل الأعمال التي اجترحتها حين كانت هذه الأعضاء حيّة ومتحركة .
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ .

إننا سنختم في ذلك اليوم على أفواه المشركين والكفار والمنافقين

١- الآية ٦٥ ، من السورة ٣٦ : يس .

لثَلَا يَفْهَوْهُا بِشَيْءٍ . وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فلماذا - يا ترى - يختتم الحق تبارك وتعالى على أفواههم ، أما أيديهم وأرجلهم فتشهد على أعمالهم ؟ لأنّ هذا اللسان قد اعتاد الكذب هنا ، فصار لصاحبه ملكة الكذب . ومع أنّ ذلك العالم هو عالم انكشاف الحقائق وعالم لا يمكن لأحد أن يخفي شيئاً فيه ؛ لكنّ ملكة الكذب التي نشأت لديهم ، فاصطحبوها معهم عند رحيلهم عن الدنيا ، ستظهر هناك وتتجلى ، فيحاولون الكذب هناك أيضاً ، مع جلاء الأمر ووضوحه ؛ ومع سطوع حقيقته للعيان . تماماً كمثل السارق الذي يمدّ يده في جيب المرء فيسرق نقوداً ، ثمّ يمسكه المرء متلبساً ولا تزال النقود في يده ، إلّا أنّه ينكر ويدّعي أنّه لم يفعل شيئاً . ومع أنّ الأمر واضح كوضوح الشمس ، إلّا أنّه - مع ذلك - ينكر ولا يعترف .

وبعبارة أخرى : أننا لا نشكّ في حقيقة الأمر وواقعه ، لكنّ ظهور ملكة الكذب والاختلاق لدى الأفراد الكاذبين سيستدعي كذبهم هناك أيضاً . وعليه فإنّ تقرر أنّ يُكتفى منهم باعترافهم اللسانيّ يوم القيامة ، فإنّهم سينكرون هناك أيضاً ويزعمون بأنّهم لم يفعلوا شيئاً أبداً ، وأنّ تلك الأفعال لم تصدر منهم قطعاً . وقد يعترضون ويستدلّون على كذبهم ويأتون بشاهد ودليل ، فيناقشون ربّهم في الحساب .

وقد جاء في إحدى الروايات الواردة في هذا المقام (ربّما تطرّقنا إلى ذكرها في هذا المجلس) بيانٌ لطيف لأحوال هؤلاء ، وذلك في قولهم : إلهنا ! إنّ هؤلاء الملائكة الذين يشهدون علينا هم ملائكتك . فلمّ جئت بهم ليشهدوا ؟ إنّنا لم نرتكب هذا العمل ، كما أنّ هؤلاء الشهود لا يصلحون للشهادة ؛ فقد جئت بشاهد من عندك لا نقبل بشهادته .

وفي هذه الحالة إنّ تقرر أنّ يقول الله عزّ وجلّ للإنسان : اعترف

بنفسك ؛ فمن ذا الذي سيعترف يا ترى ؟
لذا سيختم على ألسن المجرمين وأفواههم ؛ أي أنّ الإنسان سيعجز
عن الكلام إذ ستسلب منه القدرة على النطق . وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ أَمَّا الْأَيْدِي
فتنطق وتتكلم .

فكيف - يا ترى - ستتكلّم ؟ أيصبح لليد لسان ؟ أ يخرج من اليد
صوت يتحدّث ؟ كلا ، بل تكلم اليد عبارة عن قيامها بنفس العمل الذي
فعلته في الدنيا .

إنكم تقولون : لقد شاهدتُ ذلك المريض ، وكانت ملامح وجهه
تنطق بأنّه ليس بصحّة جيّدة . ولقد شاهدت زيداً وكان وجهه يحكي جُذله
وفرحه . وقد رأيت عمراً وكانت طلعتته حاكية عن بهجته وسروره .

فما الذي يعنيه التحدّث والحكاية هنا ؟ أتعني حقيقةً أنّ الوجه قد
اكتسب لساناً ؟ كلا بطبيعة الحال . بل معنى ذلك أنّه كان في هيئة تعبّر عن
نفسه وتصور فرحه ، وتكشف عن الحقيقة في فرحه أو في حزنه وغمّه ،
أو في مرضه وانحراف صحّته ، وتشير إلى ذلك الواقع ، وهو ما يُدعى
بالحكاية .

وأساساً فإنّ المعنى الحقيقيّ للتكلم وفقاً للمذهب الصحيح في أنّ
الألفاظ وضعت للمعاني الكلّية ، هو عبارة عن إظهار ما في الضمير .
فالمعاني الموجودة في ذهن الإنسان إذا ما أراد إلقاءها . وإفهامها للطرف
المقابل ، توجبّ عليه - إظهاراً لما في ذهنه - الاستعانة بالإشارة والكناية أو
بالكتابة أو بنصب علامة وغير ذلك ، أو توجبّ عليه أن يتحدّث بلسانه
ويتكلم .

ونظراً لأنّ الطرق الأخرى - غير الكلام - طرق صعبة وعسيرة ؛ فإنّ
تلك المعاني تُنقل عن طريق الكلام في قالب الألفاظ المتبادلة بين المتكلم

والسامع ، حيث تحكي تلك الألفاظ عن تلك المعاني .
وعلى هذا الأساس فإننا نقوم بصبّ ذلك المعنى الذهني في قالب هذه
الألفاظ الخاصّة ، فيستمع السامع لهذا القالب . أي أننا نسلّمه هذا القالب
ليصرف هذا اللفظ إلى ذلك المعنى باعتبار علمه بالارتباط بين هذا القالب
واللفظ مع ذلك المعنى .

ومن هنا فإنّ الكلام هو عبارة عن وسيلة لانتقال المعاني من ذهن
المتكلّم إلى ذهن السامع . أشبه بقطبي بطارية كهربائية أحدهما موجب
والآخر سالب نريد الربط بينهما وتوحيد مستوَاهما . فنربط هذا القطب
بذاك بواسطة سلك توصيل ، فيجري التيار الكهربائي من أحد القطبين إلى
القطب المخالف من خلال سلك التوصيل ، حتّى يصبح طرفا البطارية في
مستوى كهربائي واحد .

افرضوا الآن أنّ هناك معاني معيّنة في ذهني ، وأنها غير موجودة في
أذهانكم ، وأنّي أريد إيصال هذه المعاني إليكم ، لتوحيد المستويات
الفكرية بلحاظ هذه المعاني الخاصّة التي تقرّر الحديث عنها . فنربط سلك
توصيل بين هذا المخّ وبين مخّ كلّ فرد من السامعين . فما هو هذا السلك
يا ترى ؟

إننا نتفق مع بعضنا أنّنا متى ما قلنا زيد ، فإننا نقصد هذا السيّد
المعيّن . وإذا ما قلنا ذهب ، فإننا نقصد : تحرّك وابتعد . وإذا قلنا الليل ، فنعني
به الوقت الذي تختفي فيه الشمس وراء الأفق فيظلم الجوّ . ولو قلنا النهار ،
فهو الوقت الذي تطلع فيه الشمس من وراء الأفق فتضيء الجوّ . وهذه
بأجمعها ألفاظ ذات معانٍ . وجميع الألفاظ المستعملة في اللغة ذات دلالة
على معاني خاصّة قد تعاقد أهل اللغة عليها .

إنّ الأمّ التي تتحدّث بلغتها المحليّة تضع على لسان طفلها ألفاظاً على

أساس التعاقد القومي والمحلي. ومن ثم فإننا متى شئنا إلقاء هذه المعاني، فإننا نربط سلك توصيل، وهذا السلك عبارة عن البيان وإجراء المعاني من الذهن على اللسان وإيصالها إلى السامع، حيث نقول بتحويل ذلك المعنى إلى ألفاظ نقدّمها إلى السامع الذي يعلم مسبقاً بالارتباط بين ذلك المعنى وهذا اللفظ، فيفهم من هذا اللفظ ذلك المعنى، ويدرك ما نرمي إليه بكلامنا.

وجميع الألفاظ التي استعملها ويستعملها سكان العالم، المتمدّن منهم وغير المتمدّن لا تتعدّى هذا الأسلوب الذي يجسّد الطريق الأفضل والأسهل لتبادل المعاني والتحاكم بين الحقائق والمعاني، بين أذهان عامة الناس ونفوسهم. وهذا هو معنى التكلم.

فالتكلم - إذاً - هو الإشارة إلى ما في الذهن من المعاني الخفية إشارة تزيل الخفاء وتظهر تلك المعاني. ويقال لمفرداتها كلمة ولمجموعها كلمات؛ تَكَلَّمَ يَتَكَلَّمُ تَكَلُّمًا.

وبطبيعة الحال فإن أصل الكلام هو الجرح، ثم استعمل اللفظ في هذا المعنى الذي ذكرناه.

ما الذي تعنيه الآية: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا^١.

أتقصد أن الله سبحانه تكلم بلسان؟ كلا بطبيعة الحال لأنه عز وجل ليس جسمًا. أفأوجد صوتاً في الفضاء فقال: يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ؟ لو صحّ ذلك لما كان كلاماً لله. فياجاد الصوت من قبل الله لا يدعى كلاماً لله تعالى، ولا ينسب إليه عز وجل.

إنكم تدعون متكلّمون حين تقومون ببيان كلمات معينة فتنتسب

١- الآية ١٦٤، من السورة ٤: النساء.

إليكم تلك الحال (حال الكلام) آنذاك . أمّا لو صنعتم مسجلاً للصوت أو جهازاً يتكلّم فإنّ ذلك لن يُدعى كلاماً لكم ، كما لا تُدعون متكلّمون . إنكم تُدعون متكلّمون حين يقوم التكلّم بكم . لذا فإنّ معنى تكلّم الحقّ المتعال مع النبيّ هو أنّ الحقّ تعالى أفهم موسى سلسلة معانيّ من التوحيد والمعارف والقوانين والأحكام كان موسى يجهلها قبلاً ، فأدركها من خلال ذلك الوحي والإلقاء في القلب . أي أنّه تعالى أزاح الستار أمام أحاسيسه الذهنيّة وإدراكاته القلبيّة والسريّة ، فلم يعد لعالم الجهات وحصار المادّة لديه حدوداً بلحاظ تجلّي الأسماء الكلّيّة ، وصار وجوده وسيعاً منفتحاً بحيث يمكنه استلام إرادة الحضرة الأحديّة في مرآة وجوده ، وإدراكها والنظر إليها .

هذا هو معنى تكلّم الله مع النبيّ موسى . كما أنّ تكلّم الشجرة التي قالت : **إِنِّي أَنَا اللَّهُ** . كذلك فإنّ جميع الموجودات ، القائمة في العالم ، تكشف الستار عن حقيقة معيّنة وتقوم بإظهارها وتجليتها من هذا القبيل . أمّا الإنسان فلسانه هو وسيلته للكلام ، وأمّا الحيوانات فوسيلتها أصواتها المختلفة ، وأمّا الشجر فبكيفيّة أخرى ، وكذا الحال في الجمادات . وهذا الاختلاف تستدعيه نفوسها المختلفة . وبالنسبة للملائكة فبكيفيّة أخرى أيضاً .

فقد جاء جبرائيل عليه السلام إلى النبيّ فتحدّث معه . أفكان لجبرائيل بدن ؟ أكان له لسان ؟
إنّ جبرائيل ملك مقرب أحاط بشرق العالم وغربه ، وليس وجوده وجوداً مادّيّاً ، بل له وجود من نوع آخر .

ومن هذا القبيل يد الإنسان التي تتكلّم وتشهد يوم القيامة على الأعمال التي فعلتها . أي أنّ اليد تحضر أمام الإنسان فتؤدّي نفس العمل

الذي فعلته في الدنيا؛ مهما كان ذلك العمل . سواءً رُفعت للقنوت ، أم للدعاء ، أم لإطعام الفقير ، أم امتدّت للسرقه والخيانة ولعب القمار . وستأتي يد الإنسان أمام أنظاره في كيفية غير منفصلة عن الإنسان ، فتفعل ما سبق لها فعله . بل إنّ الإنسان سيفعل بنفسه تلك الأعمال . وهذا هو معنى التحدّث .

وإذاً فأتى سيتمكن أحد أن ينكر أعماله وهو يرى هيئتها رأي العين ؟ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

والأرجل - بدورها - ستشهد بنفس الطريقة والكيفية على ما اكتسبت في الدنيا . وقد جاء في آية أخرى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^١ .

وقد أضيف اللسان في هذه الآية إلى الأيدي والأرجل . فقد جاء في الآية السابقة من سورة «يس» أنّ الله تعالى يختم على الألسن والأفواه لئلا تتكلم . أمّا في هذه الآية من سورة النور فقد جاء بأنّ الألسن تتحدّث بدورها . وهذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف الموقف .

وبناء على هذه المقدمة ، فقد يدرك الإنسان أيّ موقف يُختم فيه على الأفواه ، وأيّ موقف تشهد فيه الألسن . فالموقف الذي يُختم فيه على الأفواه هو الموقف الذي يحاول فيه اللسان إظهار خلاف ما ارتكب الإنسان ، أي حين يحاول أن يكذب ويتّهم ليرتئ نفسه ؛ فيُختم على الأفواه آنذاك لتخرس .

أمّا الموقف الذي يشهد فيه اللسان ، فلا يعني الموقف الذي يمتلك فيه اللسان القدرة على النطق بالاعتراف والإقرار ، بل يعني الموقف الذي

١- الآية ٢٤ ، من السورة ٢٤ : النور .

يقوم فيه بنفس الأعمال التي ارتكبها في الدنيا . أي نفس قيامه وانهماكه بالكذب والنميمة والتهمة والافتراء وخداع الناس وباقي الأعمال التي فعلها في الدنيا .

فاللسان - إذاً - يكرّر العمل الذي فعله في الدنيا ؛ منتهى الأمر أنّه يكرّره بصورته الملوّنة . شأنه في ذلك شأن اليد والرجل . والتعبير : تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ لا يعني نطق اللسان هناك كنطقه في هذه الدنيا واعترافه بأنّه فعل كذا وكذا ، إذ لا مجال في ذلك المقام لأمثال هذه الاعترافات أو الاعتراضات اللسانية . وحجم شهادة اللسان مشابه لحجم شهادة اليد والرجل ، حيث إنّه يمثل نفس العمل الذي ارتكبه .

هذا بشأن شهادة اللسان . وقد وردت آيات في سورة السجدة جديرة بالملاحظة والتأمل :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنْنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ^١

لاحظوا قوله هنا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ؛ أي أن أعينهم وآذانهم وجلودهم ستشهد عليهم يوم القيامة بكلّ ما فعلوا في الحياة الدنيا .

١- الآيات ١٩ إلى ٢٣ ، من السورة ٤١ : فصلت .

وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا، فيعترضون على جلودهم: أتنا لم نكن نتوقع أن تشهدوا علينا. إن بشرة الإنسان أقرب إليه من كل شيء، ولا ينبغي لها أن تشهد عليه. وبالإضافة إلى حب الإنسان لنفسه فإنه يحب في هذه الدنيا أفراداً غرباء فيبادلهم المودة والصُّحبة من أجل أن ينفعونه في الشدائد وعند الضرورة. أما الآن فقد آن أوان يشهد فيه على الإنسان بشرته وجلده.

قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ: إن الذي أنطقنا هو الذي بدأكم ثم إليه منتهاكم ومعادكم، والذي خلقكم ثم إليه عودتكم في مسيرتكم التكاملية تجاهه.

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنْنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنْنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

ذلكم ظنكم السيئ الذي ظننتموه برّبكم، فتخيلتم أنه غير مطلع على أعمالكم، فجُزيتم بالخسران على سوء ظنكم بالله فصرتم من الخاسرين، وصرتم على شفاهاوية من النار، وعلى وشك السقوط في أتونها.

ومن خلال التأمل في هذه الآيات نحصل على نتائج مهمة هي:
أولاً: أن الآيات الدالة على شهادة الأيدي والأرجل والأذان والأعين والجلود يوم القيامة متعلقة بأعداء الله. فلم يرد في آية من القرآن الكريم أن جلد المؤمن أو يده أو رجله ستشهد عليه يوم القيامة. فشهادة الجوارح والجلود - إذًا - أمر منحصر بالكفار وأعداء الله من غير المؤمنين؛ والجوارح لا تشهد على المؤمنين من أهل المعصية.
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ؛ أي أن أعداء الله سيحشرون فتصبح حالهم كما ذكرنا.

ويستفاد من هذا الأمر - كما ذكر الفقهاء - أنّ الخطابات القرآنيّة موجهة إلى الكفار كما هي موجهة إلى المؤمنين . إذ إنّ هناك بحثاً في اختصاص الأحكام والتكاليف بالمسلمين ، أو شمولها لعامة الناس بما فيهم المؤمن والكافر . والحقيقة أنّها موجهة لجميع الناس ، منتهى الأمر أنّ الكفار لو جاءوا بها ما تُقبلت عبادتهم منهم ، لأنّ الإسلام وقصد القربة هما شرطاً القبول . وباعتبار أنّ الإسلام ونية القربة في تناول أيديهم ؛ فإنّهم يستطيعون أن يُسلموا من خلال التلقظ بالشهادتين ، ليتمكنهم قصد القربة ثمّ القيام بتلك الأعمال . وَالْإِجَابُ بِالْإِخْتِيَارِ لَا يُنَافِي الْإِخْتِيَارَ ، كَمَا أَنَّ الْإِخْتِيَارَ بِالْإِخْتِيَارِ لَا يُنَافِي الْإِخْتِيَارَ^١ .

وعلى هذا الأساس فكما يؤخذ الكفار يوم القيامة ويعذبون فيما يتعلّق بأصول الدين ؛ وكما يسألون عن علّة عدم إيمانهم وعدم توحيدهم وعدم إسلامهم وعدم اعتقادهم بالمعاد ، فإنّهم - كذلك - سيُسألون لماذا لم يصلّوا ، ولماذا لم يزكّوا ، ولماذا لم ينكحوا وفق نكاح الإسلام ؟
حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ .

والظاهر هنا من الجلود ، تلك الجلود البدنيّة التي تُذنب ، وهي كناية عن الفُروج . إذ لو كانت اليد تُذنب ، لما قال شهد عليهم جلود أيديهم ، بل لقال : شهدت عليهم أيديهم . ولو كانت الرّجل تُذنب لما قال : شهد عليهم جلود أرجلهم ، ولقال : شهدت عليهم أرجلهم . والأمر كذلك بالنسبة إلى

١- هاتان قاعدتان أصوليتان تُبحثان في علم الأصول ، ومفادهما أنّ الشيء الذي يجب على الإنسان من خلال اختياره ، فيضطرّ الإنسان للإتيان به ، لا منافاة له مع اختيار الإنسان . والأمر نفسه بالنسبة للشيء الذي يمتنع على الإنسان باختياره ، إذ لا منافاة له مع كون الإنسان مختاراً .

العين والأذن واللسان . أمّا جلد البدن فهو كناية عن مباشرة الجلد للقبائح كالزنا وأمثالها . وهذا هو أدب القرآن الذي لم يشأ التصريح بآلات الرجولة والأنوثة وتسميتها بأسمائها حين ذكر أنها تأتي لتشهد ، فكُنِيَ عنها من ثمّ بالجلود ؛ وقد جاء في بعض الروايات أنّ الأفخاذ تشهد على الذنوب .

وثانياً : أنّ أعداء الله يقولون لجلودهم : لِمَ شهدت علينا ؟ وهم لا يقولون ذلك لأعينهم ولا لآذانهم ، مع أنّ اعتراضهم ينبغي أن يتوجّه أولاً إلى الأعين والآذان ذات الحياة والإحساس .

ومع أنّ شهادة العين والأذن أمر يستدعي العجب ، إلّا أنّ شهادة الجلد أعجب وأغرب ، لأنّ الجلد لا عين له ليرى ، ولا أذن له لسمع ، ولا حياة له ولا شعور عقلائي ، بل هو جلد ليس إلّا .

وممّا يثير العجب أن يأتي الجلد فيشهد . ومن هنا فإنّ أعداء الله سيضطربون ، وينزعجون أشدّ الانزعاج ، لأنّ الأمر بلغ الحدّ الذي صاروا معه يرون الجلد الفاقد لجميع درجات الفهم والشعور والإدراك في الدنيا ، وهو يشهد ضدّ الإنسان في هذا الظرف الخطير .

وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؛ فتجيبهم جلودهم : ما كان لنا من الأمر شيء . إذ ما الذي يعنيه الجلد يا ترى ؟ إنّ الإرادة هي إرادة الله الذي يأمر العين بالإبصار ، ويأمر الأذن بالسماع ، واللسان بالنطق . الله الذي أنطق جميع الموجودات كلّاً بدوره . فهو الذي أمرنا أن نحضر فنشهد ، وليس لنا بدون إرادته واختياره عزّ وجلّ أيّ شيء من أنفسنا . وليس لنا ولا لأعيننا ولا لآذاننا إرادة ذاتية يمكننا أن نشهد في موضع ونمتنع في آخر .

أمّا مراعاة حالكم والامتناع عن الشهادة ضدّكم باعتبارنا بشرتكم

وجلودكم ، فليس لنا من الأمر شيء . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَنَا ؛ وحين يُنطق الله تعالى شيئاً ، فما الفرق بين أن يكون ذلك الشيء لساناً أو عيناً أو أذنّاً أو جلدّاً . قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .

إنّها لا تقول بأن الله أجبرها على الشهادة ، لأنّها تملك في الأصل مبدأ النطق، والذي هو إعطاء من الله سبحانه لها ، فهو عزّ وجلّ قد جعل النطق يتجلّى فيها ويظهر ، فأنطقها به ، ذلك الله الذي أنطق جميع الموجودات وجعل كلّاً منها يتكلّم بدوره . لقد أخطأتم حين تخيلتمونا جلوداً ميتة فاسدة لا فهم لها ولا شعور ولا إدراك ، فالآن هذا العالم هو عالم الحياة ، وجميع الموجودات فيه ذات حياة ؛ فهي حيّة بحياة الله تعالى .

وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وذلك هو الله القادر الذي نخضع لهيمنته ، وتحيط بنا قبضته .

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ .^١

إنكم لم تكونوا تجتنبوا هذه المعاصي والذنوب ، ولا تستترون عنها ؛ لا لأنكم لم تحذروا عواقبها الوخيمة وتخافوا نتائجها الوبيلة ، بل لقلّة اعتنائكم بالله عزّ وجلّ ، إذ تخيلتموه غير مطلع على أعمالكم ، فكنتم إذا أذنبتم ذنباً تصوّرتُم أنّ الله تعالى في وادٍ وذلك العمل في وادٍ ، وتخيلتم أنّه سبحانه لا يدرك كثيراً ممّا تفعلون . غير مدركين بأنّ الله وعلمه موجودان في نفس العمل ، وأنّ جميع هذه الأعمال التي تفعلونها هي شبكات لعلم الله وإرادته وقدرته . وأنّ صفات الحقّ قد ظهرت فيها . فلا يمكنكم - بعدُ - أن تروا الحقّ معزولاً عن نفس تلك الأعمال . وكيف

١- الآية ٢٢ ، من السورة ٤١ : فصلت .

لا يكون للحقّ المتعال اطلاع على أعمالكم هذه مع أنّه أقرب إلى جميع الموجودات من أنفسها؟ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ وَتَخَيَّلْتُمْ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَظَنَكُمْ هَذَا هُوَ الَّذِي أَوْجِبَ شِقَاقَكُمْ وَأَدْخَلَكُمْ النَّارَ. لماذا؟ لأنكم ظننتم أنّ الله لا يعلم. وهذا الظنّ الخاطئ، أي الشرك في أفعال الله قد أرداكم في نار جهنّم، وهبط بكم إلى الحضيض.

وقد مرّ في الروايات السابقة أنّ الإمام عليه السلام كان يستدلّ بهذه الآية: «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ»؛ وإذا كان الظنّ هو المُردي، فضدّه هو المنجّي.

إذا كان الظنّ الخاطئ بأنّ الله لا يعلم، موجباً للنزول في دركات الجحيم، ومُردياً للإنسان إلى الحضيض، ومؤدياً إلى إفقاده قيمته واعتباره؛ فإنّ ضدّه (وهو حسن الظنّ بالله والاعتقاد بأنّه مطلع على جميع الأعمال) سيكون مُنجياً للإنسان، ومؤدياً إلى علوّ درجاته في الجنة، وإلى بلوغه المقامات السامية، لأنّه يمثل عقيدة التوحيد.

وعلى هذا الأساس فإنّ سرّ الأفعال الحسنة التي بفعلها، يدخل الإنسان الجنّة، يتمثّل في علمه بأنّ الله خبير بأعماله. فإذا عمل عملاً حسناً جليلاً وهو غافل عن الله، كان عمله بلا قيمة، أمّا العمل الحسن الذي يفعله وهو ملتفت إلى الله، فإنّه سيكون ذا ثواب وأجر.

لماذا؟ لأنّ نفس عمل الإنسان عن توجّه ونيّة وقصد القربة، يعني أنّه يرى الله تعالى في عمله، وهذا هو معنى التوحيد، وهذا العمل هو العمل المقبول.

وعلى هذا الأساس، فإنّ ما أرداكم في نار جهنّم، إنّما هو سوء ظنّكم بالله، إذ تخيلتم أنّ الله لا يعلم كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ.

ويتّضح ممّا سبق ذكره أنّ الموجودات الكائنة في هذا العالم هي

موجودات حية، بينما كنا نتصور أن الإنسان وحده يمتلك الحياة. وبغض النظر عن الإنسان فإن الحيوانات والنباتات بصورة عامة تمتلك حياة، أما هذه الآيات فتبين بأن الأيدي والأرجل والأذان والأعين والألسن وسائر الأعضاء، وحتى الفروج، ذات حياة، وأنها تشهد. وأنى لها أن تشهد لو لم تكن حية؟

وقد ذكرنا مؤخراً أن الشهادة تتضمن ركنين أساسيين، أحدهما أن على الشاهد أن يتفحص ويحقق في الأمر، ويتحمل أمانة الشهادة، ليأتي من بعدها فيؤدي تلك الشهادة. وهذا ما يحتاج إلى حياة. فالميت لا يمكنه تحمل الشهادة، كما أن الحي الأعمى والأصم لا يمكنه أن يُدرك ولا أن يتحمل الشهادة.

فالعلم والحياة - إذًا - هما أساسان من أسس مسألة الشهادة، وعليه فإن بدن الإنسان - بما يشمل العين والأذن والجلد واليد والرجل - يتحمل الشهادة في الدنيا، فيؤديها في الآخرة، هو بدن حي له فهم وإدراك. لأنه إذا قلنا بعدم حياته وإدراكه، وبأن الله يوجد فيه صوتاً يوم القيامة، كأن يخرج صوت من جانب يد الإنسان فيقول إن هذه اليد قد سرقت. إذًا لتعذر تسمية ذلك شهادةً لليد. وهل بالفعل يمكننا القول بأن اليد قد شهدت؟

أبدأً أبدأً، إن شهادة اليد ستعد صادقة حين تتكلم اليد بنفسها، لا أن يكون الصوت الخارج منها مثل ضم الحجر في جنب الإنسان، حيث يخرج صوت من جوارح اليد فيقول ما يقول.

وعليه فإن قلنا - والحال هذه - إن هذه اليد لم تمتلك حياةً ولا علماً في الدنيا، وإن الله سيحييها يوم القيامة ويمنحها علماً وشعوراً فيجعلها تشهد، كان قولنا ناقصاً. إذ كيف تحملت الشهادة هذه اليد الميتة بلا شعور، لتأتي يوم القيامة فتؤدي شهادتها؟ وما الفرق آنذاك بين اليد وبين موجود أجنبي

يُنطقه الله عزّ وجلّ ، لِيُنطق سبحانه اليد ولا يُنطق ذلك الموجود فيشهد ؟
ولذلك فإنّ إفاضة العلم والحياة يوم القيامة فقط ليس كافياً لصدق
معنى الشهادة ، وينبغي أن تمتلك هذه الأعضاء فهماً في الحياة الدنيا . وعليه
فإنّ هذه الأيدي والأرجل والجلود تمتلك فهماً وشعوراً .

وقد ثبت في الفلسفة المتعالية أنّ جميع الموجودات دونما استثناء
لها علم وحياة وقدرة ، وأنّ الوجود ملازم لهذه الخواصّ الثلاث . أي أنّ كلّ
ما يُدعى وجوداً وموجوداً يمتلك حياةً وعلماً وقدرة بقدر سعة ماهيّته .
لا ينحصر ذلك بالإنسان والحيوان والنبات ، بل وكذلك الجمادات تمتلك
أيضاً حياة وقدرة وشعور بقدر ماهيّاتها . فلحجر المطحنة فهم ؛ ولورق
الشجر فهم ، وللهواء والشمس والقمر والنجوم والأرض والفصول الأربعة
بأجمعها فهم وشعور .

وقد أجاد المَلّا الروميّ في «المثنويّ» في بيان هذه الحقيقة بأروع
بيان فقال :

باد و خاك و آب و آتش بنده اند
با من و تو مرده با حقّ زنده اند
پیش حقّ آتش همیشه در قیام
همچو عاشق روز و شب پیچان مدام^١

١- مقتطفات من أشعار مولانا ، الجزء الأوّل للمثنويّ ، ص ٢٢ و ٢٣ ، طبعة
ميرخاني .

يقول : «إنّ الريح والتراب والماء والنار عبيد تبدو لي ولك ميّنة هادمة ، لكنّها بالحقّ
حيّة مؤثّرة تابعة لإرادته .
النار قائمة في مقابل الحقّ مستعدة لتنفيذ ما يُعهد إليها ، تتلوّى ليل نهار كعاشق أقذاح
المدام» .

سنگ بر آهن زنی آتش جَهَد
هم به امر حق قدم بیرون نهد
سنگ و آهن خود سبب آمدولیک
تو به بالاتر نگر ای مرد نیک
کاین سبب را آن سبب آورد پیش
بی سبب کی شد سبب هرگز به خویش
گردش چرخ این رسن را علت است
چرخ گردان را ندیدن ذلت است
این رسن های سبب ها در جهان
هان و هان زین چرخ سرگردان مدان
تا نمائی صفر و سرگردان چو چرخ
تا نسوزی تو ز بی مغزی چو مَرخ
باد و آتش می شوند از امر حق
هر دو سرمست آمدند از خمر حق^۱

۱- يقول: «وإن أنت قدحت الحجر بالحديد اندلعت النار منهما؛ وهي نار تنبعث بأمر الحق تعالى.

ومع أن الحجر والحديد كانا سبب انبعاث النار، لكن عليك أن تتطلع لما أعلى منهما. فقد أوجد ذلك السبب الأعلى هذا السبب الأدنى. ومتى كان هناك سبب بلا مسبب؟ إن ارتفاع جبل البئر مسبب عن دوران البكرة، إلا أن عدم رؤية مُدير البكرة قصور في النظر.

فلا يخيّل لك أن جميع حبال الأسباب في أرجاء العالم مسببة عن دوران الأفلاك. لا تصوّر ذلك فتبقى صِفراً تائهاً كالعجلة الدّوّارة، ولئلا تحترق كما يحترق الأحمق الأجوف بأدنى شرارة.

الرياح والنار يوجدان بأمر الحق، وكلاهما ثمل بالشراب الإلهي».

گر نبودی واقف از حقّ ، جان باد
 فرق چون کردی میان قوم عاد
 هُود گِرد مومنان خطّ می کشید
 نرم می شد باد کانجا می رسید
 هر که بیرون بود زآن خطّ جمله را
 پاره پاره می شکست اندر هوا
 همچنین بادِ اجل با عارفان
 نرم و خوش همچون نسیم بوستان
 آتش ابراهیم را دندان نَزَد
 چون گزیده حقّ بود چوَنش گَزَد
 آتش شهوت نسوزد اهل دین
 باغیان را برده تا قعر زمین
 موج دریا چون به امر حقّ بتاخت
 اهلِ موسی را ز قِبَطی و اشناخت^۱

۱- يقول : «ولو لم تكن للريح روح واقفة على الحقّ ، فكيف فرّقت بين المؤمنين وبين قوم عاد؟
 لقد كان هود يجمع المؤمنين فيخطّ حولهم خطّاً ، إذا ما وصلته الريح العاصفة أضحت نسيماً رخاءً .
 أمّا مَنْ كان يخرج عن ذلك الخطّ ، فكان يرتفع في الهواء فيتمزّق إرباً إرباً .
 وهكذا الأمر بالنسبة إلى ریح الأجل التي تصبح للعارفين كالنسيم العليل الهابّ من الروضة .

كما أنّ النار لم تلسع إبراهيم . وكيف تلسعه وهو الذي اصطفاه الحقّ واجتباها ؟
 ونار الشهوة لا تحرق أهل الدين ، لكنّها تسوق البغاة إلى قعر الأرض .
 وموج البحر إذ علا وطفى بأمر الحقّ ، فقد ميّز بين أهل موسى وبين الأقباط .

خاك ، قارون را چو فرمان در رسيد
 با زر و تاختش به قعر خودكشيد
 آب و گل چون از دم عيسى چريد
 بال و پر بگشاد و مرغى شد پريد
 كوه طور از نور موسى شد به رقص
 صوفى كامل شد و رست او ز نقص
 چه عجب گر كوه ، صوفى شد عزيز

جسم موسى از كلوخى بود نيز^١
 و خلاصة الأمر فإنّ جميع الموجودات ذات فهم وشعور ، إلّا أنّنا
 لا نستطيع إدراك ذلك . وهي كذلك تقول بأنّ هذا الإنسان لا فهم له
 ولا شعور ، وهي على حقّ إذ إنّها تقول : إنّهم لا يفهمون . ونحن نقول : إنّها
 لا تفهم .

ألا توافقون ؟ أنّنا نعدّ أنفسنا من ذوي الفهم في هذا العالم ، ولكن
 من أين لنا ذلك ! إنّنا لم نذهب إلى عالم الجمادات لتتعرّف عليه ، فلربّما
 كانت الجمادات تقول في عالمها : إنّ الإنسان لا يفهم شيئاً . وهي صادقة
 في قولها إلى حدّ ما . فلو كان الإنسان مدركاً لما ارتكب كلّ هذه الجنايات
 والجرائم . لقد قال الملائكة : يا إلهنا ! ماذا تريد أن تخلق في الدنيا ؟ إنّ هذا

١- يقول : «والأرض إذ أتاها الأمر خسفت بقارون وكنوزه وعرشه فانحطّ إلى قعرها .
 والطين المعجون بالماء إذ تنسّم أنفاس عيسى صار له ريش وجناح واستحال طيراً
 محلّقاً .

ولقد رقص جبل الطور من نور جمال موسى ، وأضحى عارفاً كاملاً تحرّز من كلّ
 نقص .

وما العجب إن غدا الجبل كاملاً ، إذ إنّ جسم موسى لم يكن غير ماء وطين .

الإنسان مُفسِدٌ فِي الْأَرْضِ. ولقد كانت الملائكة أَوَّلَ مَنْ دَعَى الْإِنْسَانَ مُفسِداً فِي الْأَرْضِ، إذ كانوا يعلمون أَنَّ الْإِنْسَانَ لَنْ يَدْعُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ دَمًا إِلَّا سَفَكَه، وَلَا فساداً إِلَّا ارْتَكَبَهُ.

وعلى هذا الأساس، حيث لا سبيل لنا إلى معرفة الموجودات الأُخْرَى، فينبغي ألا نقول بأنها عديمة الشعور والحياة. بل هي موجودة، والوجود يقتضي الحياة والعلم والقدرة التي هي من لوازمه. وهذه مسألة لا يتطرق إليها الشك. وبناءً على هذه النظرية فإنَّ لعالم الوجود حياة، ولأسطوانة المسجد حياة، ولهذه السجاجيد التي نجلس عليها حياة وشعور؛ وستجيء يوم القيامة فتشهد.

إنَّ الزمان هو أحد الموجودات التي ستأتي فتشهد، كما أنَّ المكان - بدوره - يمثل أحدها. وسنشير إليهما إن شاء الله تعالى لاحقاً في بحث شهادة الزمان والمكان.

فهذا العالم الذي نعيش فيه - إذاً - عالم طافح بالحياة والقدرة والعلم، ولكن وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

فلننظر إلى أنفسنا ونتأمل، هل نمتلك علماً بجميع الموجودات وبجميع أسرار الكائنات؟ وما مقدار علمنا هذا؟

لقد انقضى عمر الفلاسفة الأعلام وهم في بحث دؤوب سواء المتدينين منهم أم غير المتدينين، ولكنهم جميعاً يعترفون بأنَّهم لم يفهموا شيئاً.

يقول ابن سينا:

تا بدانجا رسيد دانش من كه بدانم همی كه نادانم^١

١- يقول «لقد وصل علمي إلى أن أدرك أنني لا أعلم شيئاً».

وَيَقَالُ إِنَّ ابْنَ سَيْنَاكَان يَكْرَرُ هَذَا الْبَيْتَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ :
نَمُوتُ وَلَيْسَ لَنَا حَاصِلٌ سِوَى عِلْمِنَا أَنَّهُ مَا عَلِمَ^۱
ويقول :

از قعر گل سیاه تا اوج زحل
کردم همه مشکلات گیتی را حل
بیرون جستم ز قید هر مکر و حیل
هر بند گشاده شد مگر بند اَجَل^۲
وللفارابی شعر یماثل شعر ابن سینا .
کما قال الحکیم الخِیام :
اسرار ازل را نه تو دانی و نه من
وین خطّ معنانه تو خوانی و نه من
هست از پس پرده گفتگوی من و تو
چون پرده برافتد نه تو مانی و نه من^۳

ويقول الفخر الرازي :
ترسم بروم عالم جان نادیده بیرون روم از جهان جهان نادیده
در عالم جان چو روم از عالم تن در عالم تن عالم جان نادیده^۴

۱- «لغت نامه دهخدا» ماده (أبوعلی سینا) ، ص ۶۵۲ .

۲- «لغت نامه دهخدا» ص ۶۵۴ .

يقول : «حللت جميع المشكلات من قعر الحمأ المسنون إلى ذروة زحل .
وتخطيت جميع المكر والحيل ، فانحل كل قيد عدا قيد الأجل» .

۳- يقول : «لا أنت تعلم أسرار الأزل ولا أنا ؛ ولا أنت تقرأ هذا الخطّ اللغز ولا أنا .
فنحن نتحدث - أنا وأنت - من وراء الستار ، فإن سقط الستار لم يبق أنت ولا أنا» .

۴- «علل گرایش به مادیگری» (= الدوافع نحو المادیّة) ص ۲۴ .

ويقول :

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْمُقُولِ عِقَالٌ وَغَايَةُ سَمَى الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ سَعِينَا طُولَ عُمُرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِبَلَ وَقَالُوا
وَأَرْوَحُنَا مَحْبُوسَةً فِي جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَبَالٌ^١
وللزمخشري :

الْعِلْمُ لِلرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ وَسِوَاهُ فِي جَهْلَاتِهِ يَتَغَمَّعُ
مَا لِلتَّرَابِ وَلِلْعُلُومِ وَإِنَّمَا يَسْعَى لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ^٢

وعليه ، فإن كل كلامنا في أن علم الإنسان ضئيل ومحدود ، بينما علم عالم التكوين وأسرار الخلقة كثير غير مُتناه . وهناك مع كل ذرة من الموجودات رقيب وحفيظ . فلا يُخَيَّلَنَّ للمرء أنه إذا تعامى وتغافل فإنّ عالم الوجود والخلقة سيغفل عنه .

أنقل قصّة صالحة كونها درساً وعبرة عن سماحة أستاذنا المكرّم آية الله الحاج الشيخ مرتضى الحائريّ اليزديّ مدّ ظله العالی ، وهو في الوقت الحاضر من الأساتذة البارزين في الحوزة العلميّة المقدّسة في قم ، ومن ذوي مكارم الشيم والفضائل الأخلاقيّة ، عن الثقة المعتمد حجة الإسلام الحاج الشيخ إسماعيل الجابلقى (من أعظم علماء طهران ومن مدرّسي الأخلاق ومروّجي الشريعة الغراء) قال :

نقل لي الشيخ الجابلقى دونما واسطة أنه سافر مع أبيه بصحبة جماعة

يقول : «أخشى أن أرحل ولم أرَ عالمَ الروح ؛ وأخشى أن أرحل عن العالم وأنا بعد لم أره .

فحين أكون في عالم الروح لا أعلم شيئاً عن البدن ؛ وحين أكون في عالم البدن لا أعلم شيئاً عن الروح» .

١ و ٢- «كشكول الشيخ البهائي» ج ١ ، ص ٦٢ ، طبعة مصر .

في قافلة توزع مسافروها في عربات تجرّها الخيول وامتطى البعض الحمير والجمال التي شُدت عليها المحامل . وتحركت القافلة من «جابلق» بقصد زيارة التربة المقدسة للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه آلاف التحية والثناء .

وكانت وسيلة السفر في ذلك الوقت منحصرة في تلك القوافل . وكان السفر من جابلق (إحدى قرى أراك) إلى طهران بهذه العربات وعلى الحمير يستغرق عشرة أيام ، أما السفر من طهران إلى مشهد المقدسة فكان يستغرق شهراً كاملاً .

وكان دأب القوافل التي تتحرك من طهران إلى مشهد أن تواصل السفر حتى تصل مدينة «شاهرود» الواقعة في منتصف الطريق فتتوقف فيها يومين للاستراحة والاستحمام وغسل الملابس ، إذ كان المسافرون يصلون شاهرود بعد خمسة عشر يوماً مرهقين قد اتسخت أبدانهم وملابسهم ، فيقضون اليوم الأول في الاستحمام وغسل ملابسهم ، ويجعلون اليوم الثاني لاستراحتهم . وفي اليوم الأول لوصول القافلة إلى شاهرود كان الجميع مشغول بالاستحمام وغسل الملابس وتطهيرها ، وأنا كذلك انشغلت بغسل ملابس والدي ثم صحبته للحمام فغسلته ، حتى انقضى اليوم دون أن أتمكن من الاستحمام ولا من غسل ملابسي . وفي اليوم التالي تقرر أن ينام الجميع ويخلدوا للراحة من أجل أن تبدأ القافلة حركتها مع بداية الليل . فأخلد الجميع للنوم ومن بينهم أبي ، بينما انهمكت في غسل ملابسي وتنظيفها ، ثم أخذت حماماً إلى أن انقضى النهار دون أن أحظى بقسط من الراحة . وكنت في حال من الإعياء والتعب لا يمكن وصفها .

ثم حلّ الغروب فصلّى الناس صلاة المغرب وركبوا وتحركوا وأنا معهم ، ثم سرنا مسافة فأحسست أن لا طاقة لي على الركوب ، ولا أستطيع

حفظ تعادلي فوق الحمار ، وأنّ النعاس والإعياء غلبا عليّ بحيث كدت أهوي إلى الأرض . ففكرت بالترجل والنوم ساعة على جانب الطريق ، على أن أنهض فأحث الخطى لألحق بالقافلة ، إذ من الطبيعي أن سرعة المسافر الراجل تفوق سرعة الحمار والقافلة .

فترجّلت ونمتُ في تلك الصحراء جانب الطريق ، ثم نهضت وقد زال تعبني فشاهدتُ الشمس وقد ارتفعت في كبد السماء بحيث غمرني العرق ، ورأيت أنّي نمت ليلة كاملة وقدراً من النهار . فما الذي سأفعله يا إلهي . وكيف سألحق بالقافلة ؟ وأيّ طريق سأسلك في هذه الصحراء ؟ خصوصاً أنّه كان هناك آثار كثيرة لأقدام الحيوانات، متشعبة في هذا الاتجاه وذلك . وكيف - يا ترى - سألحق بالقافلة وقد سبقتني بليلة ؟

إلى أن شاهدت رجلين يتجهان نحوي ، وكان أحدهما يرتدي لباساً من اللباد له أكمام قصيرة فقالا لي : انهض واسلك هذا الطريق فستلحق بالقافلة ! وأشارا إلى إحدى تلك الطرق المتشعبة التي كانت فيها آثار أقدام الحيوانات . فنهضتُ وسرت ، فما انقضت خمس دقائق حتّى بلغتُ مقهى يقع إلى جانب حوض ماء كبير ، فدخلت وشربت قدح شاي . وأراد صاحب المقهى أن يجلب لي قدحاً آخرأ فلم أوافق . إذ كانت قيمة قدحي الشاي ثلاثة «شاهيات» ، بينما لم يكن معي أكثر من مائة دينار (تعادل شاهيتين) ، لأنّ المال كان مع أبي في الأمتعة .

فسألني صاحب المقهى : لماذا لا تشرب قدحاً آخرأ من الشاي ؟ أجبت : ليس معي أكثر من مائة دينار . قال : سأقبل . فشربت قدح الشاي الآخر وواصلت السير من جديد لمدة خمسة دقائق فوصلت خاناً كبيراً تنزل فيه القوافل وشاهدت قافلتنا وقد ألقت الرحال في ذلك الخان ، ووجدت أبي خارج الخان ، جالساً إلى جانب الجدار متكئ عليه .

فقال لي : لقد وصلنا للتوّ ، فأين كنتَ حتى الآن ؟ فقصصتُ عليه الأمر وقلت : لقد سرت عشرة دقائق فقط فلحقت بكم .

قال : يا للعجب ! لقد طوينا الطريق من الليل إلى الصباح ، فكيف أمكنك أن تطوي هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت القصير ؟
من المسلم أنّ ذلك قد حصل إثر تصرّف ذينك الرجلين اللذين كانا من رجال الغيب .

ثمّ أضاف سماحة الشيخ الحائريّ : ولا يزال الشيخ الجابلقيّ حيّاً حتى الآن ، وليس لديّ أدنى شكّ في عدالته وفي صدق هذه الواقعة !
نعم ، فإنّ هذه القصّة ونظائرها الكثيرة الوقوع تدلّ بصورة حتميّة على سلسلة من الارتباطات بين الموجودات ، أي على وجود أطلاع لبعض الأرواح الطيّبة ، وعلى أمر طيّ الأرض وبلوغ المقصد في أسرع وقت والاستراحة على الأرض ، وعلى أمور كثيرة أخرى تتضح من خلال الدقّة والتأمّل .

فلماذا يغفل الإنسان عن هذه الارتباطات والعلاقات ؟ ولماذا يتصوّر هذا العالم مكوّناً من أجزاء متفرّقة مشتّتة ، وكما أنّ أجزاء هذا العالم ترتبط فيما بينها من الناحية المادّية والفيزيائية بهذا الارتباط العجيب العظيم الذي حير الفلاسفة والمفكرين . كذلك فإنّ أجزاء هذا العالم مرتبطة ببعضها بلحاظ المعنى والعلاقات الروحيّة والنفسيّة ارتباطاً عجيباً وعظيماً .

تا نگريد ابر کی خندد چمن تا نگريد طفل کی نوشد لبن^١

١- «مثنوی» ج ٢ ، ص ١١٥ ، السطر ١١ .

يقول : «وما لم يبك الطفل فإنّه لن يشرب اللبن ، ما لم تبك الغيوم فلن يضحك المرح» .

تا نگرید کودک حلوا فروش بحر بخشايش نمى آيد بجوش^١
 وحاصل الأمر أن العلوم الإنسانية محدودة جداً ، وأن أسرار هذا
 العالم وغوامضه جمّة . فهناك في كلّ موجود ، بل في كلّ ذرّة من الوجود
 هناك عالم من الأسرار الخاصّة التي لا يعلم عنها الإنسان شيئاً . ولذلك
 فليست علوم الإنسان مقابل علوم وأسرار وحقائق وأطوار الوجود وعالم
 الخلقة إلّا ذرّة مقابل أمواج الشمس النورانية الساطعة على أرجاء العالم التي
 طبقت فضاء عالم الأجرام السماوية والنجوم والمجرات ؛ أو كقطرة في
 مقابل المحيطات التي شملت ثلاثة أرباع العالم فجعلتها غير أهلة
 بالسكان . بل هي أصغر وأتفه من هذا المقياس ، ويمكننا أن نقول بأنّها
 تمثّل صفرًا في مقابل اللانهاية .

إن العلوم والأسرار والأمور الواقعية هي من الشمول والسعة بحيث لو
 سعى الإنسان طوال عمره سعيًا دائبًا وتحمل فيه المشاق - على فرض
 امتلاكه فكرًا مقتدرًا فياضًا - فإنه لن يتمكن من الاطلاع على الحقائق
 والأسرار الكامنة في خلية واحدة ، فضلاً عن أن تتعدى علومه هذه الخلية
 إلى جميع الموجودات وإلى عوالمها وبواطنها وبداياتها ونهاياتها .

فمن ذا الذي يمتلك علماً ، غير الذات القدسيّة للحقّ عالم السرّ
 والخفيّات ، علام الغيوب ؟ يُضاف إلى ذلك أن علم كلّ موجود محدود
 بدائرته الخاصّة ، فليس للإنسان علم بعالم الحيوان ، كما ليس للحيوان علم
 بالإنسان . وليس للإنسان علم بالنبات ولا للنبات علم بالإنسان . والأمر
 كذلك بين النباتات والجمادات ، وبين كلّ موجود مع الموجود الآخر . فكلّ

١- «مثنوي» ص ١١٦ ، السطر ٢٣ .

يقول : « ما لم يبكِ الطفل بائع الحلوى ، فأنتى لبحر العطاء والكرم أن يفور (بالعطاء) » .

موجود له علم بنفسه ، على أن علمه هذا علم بسيط ومُجمل .
كان سماحة جمال الحق ومرآة العارفين المرحوم آية الله الحاج
الشيخ محمد جواد الأنصاري الهمداني رضوان الله عليه يقول : « كان النبي
موسى على نبينا وآله وعليه السلام يحفر الأرض ذات يوم ، فانهال بفأسه
على صخرة في طبقات الأرض فانفلقت ، فشهد فيها دودة صغيرة . فسأل
موسى ربه : إلهي ! أريد أن أعلم لأيّ حكمة خلقت هذه الدودة الصغيرة
وسط هذه الصخرة في ظلمات أعماق الأرض ؟

فجاءه الخطاب على الفور : يا موسى ! إنّ هذه الدودة تسألني كل يوم
سبعين مرّة : لأيّ مصلحةٍ خلقت موسى ؟ » .

إنّ الإنسان أشرف المخلوقات لأنّه يمتلك مرونة تجعله يرتقي
بالقوى والقابليات التي أُعطيت له ، فيتقدّم ويوسّع دائرة علومه . إلّا أنّه
لا يتمكّن - استناداً إلى كونه أشرف المخلوقات - من إنكار شعور وإدراك
باقي الموجودات .

وعلى هذا الأساس فإنّ جميع الموجودات التي تأتي فتشهد ، هي
موجودات ذات علم وشعور وإدراك ، بيد أنّنا لا ندرك ذلك .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ^١
يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ^٢

نعم ، إنّ الوجود والحياة والعلم أمور سارية في جميع الموجودات ،
إلّا أنّ وجود النطق لا يُدعى تسبيحاً ، كما لا يُدعى شهادةً . لذا فإنّ الله عزّ
وجلّ يعيّر الأفراد الذين يعشقون الموجودات الفاقدة للحياة ويعبدونها :

١- الآية ٤٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢- الآية ١٣ ، من السورة ١٣ : الرعد .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ * وَإِذَا حُسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً
وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ^١.

وعلى هذا الأساس فإن القرآن الكريم يخطئ عبادة الموجودات التي
لا شعور لها ولا روح، ويُنكر إظهار المحبة لها: فيقول: إنكم تخطئون إذ
تعبدون هذه الأصنام، لأنّ الصنم لا شعور له ولا إدراك. ولو كنتم تعلمون
حقيقة بأنّ هذا الصنم له تسبيح في هذا العالم، وأنّ له شعور وإدراك وفهم،
وأنّ هذان الشعور والفهم هما علم الله وفهمه اللذان تجلّيا فيه، فإنّ سجودكم
آنذاك سيكون سجوداً لله، لأنكم تسجدون للصنم الذي ما هو إلّا ظلاً
وموجوداً فانياً لا استقلال له، أمّا فهمه وقدرته وعلمه فمن قدرة الله
وعلمه، كما أنّه يُعتبر مخلوقاً من مخلوقات الله، وموجوداً مرتبطاً به عزّ
وجلّ، ومركزاً لتجليات نور الحقّ وأسمائه وصفاته، عندها يكون سجودكم
له غير منفصل عن سجودكم لله عزّ وجلّ. لأنّ الصنم ظهور لله سبحانه،
وقد كان سجودكم له بهذا العنوان أي معنى هذا الظهور فيه، وكان نظركم
إلى الله سبحانه ومشاهدتكم له من خلال هذه الآية والمرآة. فهذا السجود
- إذّا - هو سجود لله تعالى.

ونظير ذلك فيما يتعلّق بالنبيّ والإمام، حيث إنّ التوجّه إليهما - بلحاظ
عنوان المرآة والآية - هو عين التوجّه إلى الحقّ سبحانه والالتفات إليه.
أَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ^٢.

أيّنا وليّت وجهك فاسجد! اسجد للأرض، واسجد للحجر، وللصنم،

١- الآيتان ٥ و ٦، من السورة ٤٦: الأحقاف.

٢- الآية ١١٥، من السورة ٢، البقرة.

فلا فرق في الأمر . على أن علة عدم جواز السجود للصنم تكمن في ظننا بأن الصنم موجود بلا روح ولا إدراك . لذا فإن سجود الإنسان الحي المدرك ذي الروح لموجود يفتقد هذه المعاني يمثل تعظيماً وتكريماً له ، وهو أمر خاطئ . ولذلك نجد أن القرآن الكريم يأخذ على مثل هذا السجود فيقول (عن تلك الأصنام) : **أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**^١ .

إن هذه الأصنام التي تعبدونها وتسجدون أمامها مع ظنكم أنها عمياء صماء ، ستأتي يوم القيامة فتتطرق وتكفر بعبادتك لها ، لأنها ذات حياة وإدراك ، ولأن سجودكم لها أمر خاطئ وغير صحيح .

إنها الآن تقول لنا بلسانها : « لا تسجدوا ! تنحوا عنا ! لا تجعلونا أرباباً من دون الله ! » لكننا لا ندرك فنسجد لها . أما يوم القيامة فستفتح أعيننا وآذاننا الملكوتية ، فنسمع صوتها وتحذيرها . **وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** .

إنها تقول : إلهنا ! إننا لم ندعهم إلى عبادتنا ، إننا كافرون بأعمالهم ، إذ نحن ندين هذه العبادات في الدنيا ، بيد أن هذا الإنسان البائس قد أخطأ إذ عبدنا ، تلك العبادة التي نكرها ونعاني منها الأمرين . وستكلم الأصنام يوم القيامة وتشهد على بطلان عبادة الإنسان لها .

يروى الكليني في «الكافي» بسنده المتصل عن محمد بن سالم ، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام ، ضمن حديث مفصل يقول فيه :

وَلَيْسَتْ تَشْهَدُ الْجَوَارِحُ عَلَى مُؤْمِنٍ ، إِنَّمَا تَشْهَدُ عَلَى مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُعْطَى كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ^٢ .

١- الآية ٢١ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢- «المعاد» للعلامة الطباطبائي مد ظله ، نسخة خطية ، ص ٤٥ ؛ و «أصول الكافي»

وكما مرّ في الآية الشريفة : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ؛ فقد ورد أيضاً في الروايات أن شهادة أعضاء البدن أمرٌ يختص بأهل المعصية . أما المؤمنون فلا تشهد عليهم أعضاؤهم وجوارحهم . وباعتبار أن الإمام الباقر عليه السلام قال في الحديث السابق بأن الجوارح تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب ، حيث استخدم جملة (حقت عليه كلمة العذاب) فيحتمل أنه استنبط ذلك من الآية الكريمة :

وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (من الشهوات والغفلة ونسيان الله عز وجل) وَمَا خَلَقَهُمْ (من الأمور الفانية الاعتبارية ، من المقامات والرياسات التي يعتمدون عليها) وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (حقت عليهم كلمة العذاب من الله) فَيَأْمُرُكَ أَنْ تَقُولَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ^١

وقد ورد في «تفسير علي بن إبراهيم القمي» وفي كتاب «من لا يحضره الفقيه» أن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن قوله تعالى : شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ... إلى آخر الآية ، فقال عليه السلام : يَعْنِي بِالْجُلُودِ الْفُرُوجَ وَالْأَفْخَادَ^٢ .

كما ورد في «تفسير علي بن إبراهيم» .
قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَفَعَ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابَهُ ، فَيَنْظُرُونَ فِيهِ فَيُنْكِرُونَ أَنََّّهُمْ عَمِلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ مَلَأَيْكَتْكَ يَشْهَدُونَ لَكَ ، ثُمَّ يَخْلِفُونَ أَنََّّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً وَهُوَ قَوْلُهُ : «ثُمَّ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا

١- الآية ٢٥ ، من السورة ٤١ : فصلت .

٢- «المعاد» للعلامة الطباطبائي مد ظله ، نسخة خطية ، ص ٤٥ .

يَحْلِفُونَ لَكُمْ» فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَيَنْطِقُ جَوَارِحُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ.^١
اللهم نبهنا على الدوام بحق محمد وآله الطاهرين ، ولا تكلنا إلى
أنفسنا طرفة عين .

١- «تفسير علي بن إبراهيم» ص ٥٩١ ، باختلاف يسير في اللفظ .

الْمَجْلِسُ الثَّامِنُ وَالْأَرْبَعُونَ

شَهَادَةُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
 ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ
 مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ^١

يستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ الأيام تُعدّ من الشهود التي تشهد
 على أعمال الإنسان . فالأيام ، بما فيها من الدقائق والساعات والأيام
 والليالي والشهور والسنين ، وبما تشتمل عليه من الأيام والليالي الشريفة
 وأيام الجمعة وأيام الأعياد المباركة تشهد على أعمال الإنسان . وكذلك
 الأمر بالنسبة للأزمنة والأمكنة والجبال والبقاع والمساجد والأماكن
 المقدسة والمشاهد الشريفة التي تعدّ من الشهود على الإنسان .
 ولكي لا نبتعد كثيراً ، ولتقريب هذا المطلب إلى الأذهان ، نذكر مقدّمة
 مختصرة من الأدلّة العقلية ، ثمّ نستشهد بالأدلّة النقلية الواردة في المقام .

١- الآيتان ١٤٠ و ١٤١ ، من السورة ٣ : آل عمران .

ذُكر سابقاً أنّه قد جرت البرهنة في الحكمة المتعالية على أن كلّ موجود من الموجودات - ولو كان ذرّة غير مرئية - يمتلك حياة وقدرة وعلماً . فجميع ما في عالم الوجود يمتلك هذه الخواصّ الثلاث ، ولا يمكننا أن نعثر على شيء يمكن إطلاق اسم الوجود والموجود عليه بحيث يكون عارياً من هذه المزايا .

فهذه الحركات الموجودة في بدن الإنسان ، والفعل وردود الفعل في بدن الإنسان وفي أبدان الحيوانات وفي الأشجار والنباتات والجمادات وفي الكرات السماويّة ، سواءً كانت حركة جوهرية أم حركة ذرّية أم غير ذلك من الحركات ، هي قائمة بأجمعها على أساس قدرة وحياة وإدراك تلك الموجودات بحسب سعة ماهيّتها . وعلى أساس هذه الفلسفة الكلّية لا يمكن العثور على مورد استثنائيّ واحد في عالم الوجود .

كما أننا نعلم - من جهة أخرى - أنّ العدم لا يطرأ على الأشياء التي توجد في الخارج بعد تحقّق وجودها ، إذ من المحال أن يكون الموجود معدوماً في عين وجوده ، لأنّ الوجود والعدم متناقضان .

نعم ، قد ترتدي المادّة الموجودة رداء العدم بخصوصيّة أخرى ؛ فهذه الشجرة موجودة الآن ، ثمّ إنّها تُقطع بعد ساعة فتصبح خشباً ، ثمّ تُحرق وتستحيل فحماً ، ثمّ تصبح رماداً ، بيد أنّ هذه الحالات المختلفة لا تدلّ على العدم . فقد كانت الشجرة في الظرف الأوّل شجرة ، وهي في ظرف الوجود والدهر شجرة إلى الأبد . أمّا في الظروف الأخرى فإنّها ستصبح خشباً وفحماً ورماداً .

وبناءً على هذا فإنّ ما يقوم به الإنسان من أفعال ، له ارتباط ونسبة مع الموجودات الخارجيّة ، إذ إنّ تلك الأفعال لا تُعدم ، لأنّ الموجودات الخارجيّة مرتبطة بتلك الأفعال ومطلّعة عليها وشاعرة بها .

إنّني أجلس الآن في هذا المكان وأتحدث ، وكلامي هذا يمثل فعلاً له نسبة فهو - أولاً - قد وقع في هذا الزمان ؛ وهو ثانياً قد وقع في هذا المكان ، أمّا بلحاظ الوضع والمحاذاة فأنا في مواجعتكم أيّها السادة بينما تجلسون تجاه القبلة وقد أحاطت بكم وبنا الجدران والسقف والأرض من الأمام والخلف في إطار خاص ووضع معين . والخلاصة فإنّ جميع هذه الأمور تمثّل علائق تربط فيما بيننا وبين كلامنا من جهة وبين هذه الموجودات الخارجيّة من جهة أخرى . ولأنّ فعلنا يصدر من ذاتنا ، فإنّ النسبة التي يمتلكها فعلنا مع الموجودات الخارجيّة هي نفسها التي تمتلكها ذاتنا معها . وحين وُجدت ذواتنا وصدرت عنها هذه الأفعال ، فقد صار لها تلك النسبة مع الموجودات الخارجيّة . وتبعاً لذلك فإنّ الأفعال التي تصدر عن هذه الذوات سترتبط مع الموجودات الخارجيّة . ويلزم من هذا الارتباط مع تلك الموجودات ، أن تتحقّق النسبة بين هذه الأفعال وبين تلك الموجودات الخارجيّة . والنسبة بين الطرفين تستلزم وجود هذا الطرف وذاك ، وإلاّ استحال تحقّق تلك النسبة . ومن ثمّ فإنّ النسبة وطرفيها تتحقّق بأجمعها بمجرد تحقّق الذات .

وبعد أن أثبتنا أنّ ما تحقّق في عالم الوجود وارتدى رداء الوجود ، باقٍ على الدوام وذو حياة وعلم وقدرة ، فإنّنا نستنتج أنّ جميع الموجودات وأفعالنا باقية على الدوام مع جميع خصائصها ، ومن ضمنها الشعور والإدراك .

والنتيجة هي أنّنا ، نحن الجالسون هنا فعلاً ، أناسٌ أحياء ، وأنّ جميع النسب والارتباطات التي نمتلكها حيّة بدورها . الزمان الذي نعيش فيه حيّ ذو شعور ، والمكان الذي نوجد فيه حيّ ذو شعور وإدراك . وجدران هذا المسجد وسقفه وسجاجيده وأعمدته ومنبره وأبوابه حيّة بأجمعها وذات

شعور وإدراك . ونحن إذ نراها ساكنة صامتة ، فلأنّ سبيل فهمنا وإدراكنا محدود لا يسمح لنا بالنفوذ إلى الموجودات الخارجيّة بما يفوق الحدود المعطاة والمسموحة . بيد أنّ هناك غوغاءً في عالم الوجود من السمع والبصر والفهم والشعور التي تتحلّى بها هذه الموجودات . أمّا في الحشر ، فإنّ جميع هذه الأشياء ستتجلّى أمام الإنسان حيّة ، سمیعة ، بصيرة .

عالم افسرده است و نام او جماد

جامد افسرده بود ای اوستاد

باش تا خورشید حشر آید عیان

تا ببینی جنبش جسم جهان

چون عصای موسی اینجا مار شد

عقل را از ساکنان اخبار شد

پاره خاك تو را چون زنده ساخت

خاكها را جملگی باید شناخت

مرده زین سویند وز آن سوزنده اند

خامش اینجا و آن طرف گوینده اند^۱

۱- «مثنوی ملای رومی» ج ۳ ، ص ۲۲۷ ، طبعة میرخانی .

يقول : «العالم كثيب خامل يُدعى جماداً ؛ والجماد يعني الخامل الذي لاحس له ولا شعور .

فاصبر حتّى تسطع شمس الحشر ، لترى حركة جسم العالم عياناً .

وحين استحالت عصا موسى ثعباناً ، فقد صار للعقل علمٌ بأحوال الساكنات .

وإذ أحيا الله قبضة من التراب فسوّاك منها ، فينبغي أن يُقاس جميع التراب بهذا

المقياس .

إنّ هذه الجمادات ميّنة من هذه الجهة (التي تقابلنا بها) وحيّة من تلك الجهة (التي تقابل بها الحق) ؛ وهي صامتة من هذه الجهة وناطقة من تلك .

چون از آن سوشان فرستد سوی ما
 آن عصا گردد سوی ما ازدها
 کوهها هم لحن داودی شود
 جوهر آهن به کف مومی شود
 بادِ حمّال سلیمان شود
 بحر با موسی سخندانی شود
 ماه با احمد اشارت بین شود
 نار ابراهیم را نسرين شود
 خاک قارون را چو ماری درکشد
 اُسْتُنْ حَنّانه آید در رَشْد
 سنگ احمد را سلامی می کند
 کوه یحیی را پیامی می کند
 جمله ذرّاتِ عالم در نهان
 با تو می گویند روزان و شبان
 ما سمیعیم و بصیریم و خوشیم
 با شما نا محرمان ما خاموشیم^۱

۱- يقول : «ولو أرسل (الله) الجمادات إلینا من جهتها تلك ، لشاهدنا العصا ثعباناً .
 لقد تناغمت الجبال مع داود ، فاستحال الحديد في يده لئناً كالشمع .
 وصارت الريح حملاً لسلیمان ، وصار البحر يفهم كلام موسى .
 وصار القمر يرى إشارة النبي (فينشق نصفين) ، واستحالت نار إبراهيم روضةً .
 وأشبّه التراب الأفعى حين ابتلع قارون ، وصارت الأسطوانة الحنّانة مدركة ذات شعور .
 صار الحجر يسلم على النبي ، وغدا الجبل يبعث برسالة إلى یحیی .
 إنّ الجمادات تتحدّث معك ليلاً نهاراً بلسان خفيّ .
 (تقول) : نحن في أحسن حال نسمع ونرى ، لكننا في نظركم - أنتم الأجانب - صامتون» .

چون شما سوى جمادی می روید
 مَحرم جان جمادان کی شوید؟
 از جمادی در جهانِ جان روید
 غُلغل اجزای عالم بشنوید
 فاش تسییح جمادات آیدت
 وسوسه تأویل ها بز بایدت
 چون ندارد جان تو قنديل ها
 بهر بيش کرده ای تأویل ها^١
 هذا بلحاظ البرهان العلمي الذي أُشير إليه فقط ، أمّا أساس هذا
 البرهان فقد جرى بيانه في الحكمة .
 ومن هنا فنحن نتعامل في حقيقة الأمر مع عالم طافح بالحياة ، ومع
 عالم يفيض بالقدرة والعلم ؛ ونحن نواجه كلّ ساعة وكلّ لحظة أينما ذهبنا
 ومهما فعلنا عالماً من الحياة والعلم ، عاجزين عن أن نعثر على مكان واحد
 يفتقد الشعور والعلم ، أو أن نلغي أنفسنا في حدود معزولة عن العلم الإلهي
 في مظاهر ذلك التجلّي المطلق .
 ونحن إذ نجد أنفسنا محبوسين في هذه الصقع وتلك الناحية ،
 غارقين في سجن الجهل ، فإنّ ذلك معلول لعدم إدراكنا لهذه الحقيقة . وإلاّ
 فإنّ جميع ما يحيط بنا من الزمان والمكان وسائر الأعراض لا يخلو من

١ - يقول : « وما دُتمت تسيرون باتجاه الجماد ، فأنتي سيمكنكم النظر إلى أسرار روح
 الجمادات ؟ »

فتحرّكوا من الجماد واذهبوا صوب عالم الروح لتسمعوا صخب أجزاء العالم !
 ولينكشف لكم تسييح الجمادات ، ولتزول عنكم وساوس التأويلات .
 لقد افتقدت أرواحكم القناديل ، فأضحيتم لا تستفيدون من بصائرهم إلاّ التأويلات .

الشعور والقدرة والحياة .

عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^١

ويتّضح - بالتأمل في هاتين الآيتين - أنّ الله سبحانه يصف نفسه بعالم
الغيب ، ويقول بأن ليس هناك من ذرّة خافية عنه ، كما يقول بأن جميع هذه
الأشياء موجودة في الكتاب المبين . أي في كتاب التكوين وفي روح هذا
العالم .

فعلم الله عزّ وجلّ - إذّا - هو كتاب التكوين ؛ وكلّ موجود من
الموجودات يمثّل علم الله الحضوريّ ، ووجوده يمثّل علم الله سبحانه .
ومن هنا فإنّ أرجاء عالم الوجود والتحقّق في الخارج هو عين العلم
الفعليّ لله تبارك وتعالى .

ثمّ إنّ جزاء المؤمنين عاملي الأعمال الصالحة يترتّب على هذا الأمر ،
أي باعتبار أنّ الله تعالى عالم ، وأنّ علمه هو كتاب التكوين ؛ فإنّه يجزي
المؤمنين جزاءً حسناً وفقاً لهذا الكتاب المبين . ويُسْتَتَج من ذلك بوضوح
أنّ الموجودات الخارجيّة ذات علم وشعور ، وأنّها تشهد ، فيجزي الله عزّ
و-جلّ المؤمنين - تبعاً لذلك - أجراً جزيلاً ومغفرة ورزقاً كريماً ، ومن بين
هذه الموجودات الزمان والمكان .

الزمان والمكان يقظان منتبهان ، فهما يقومان بتسجيل الأعمال ،
ويدوّنان حتّى اللحظات التي تمرّ على الإنسان ، وحتى إطباقه عينه ورمشه
بجفنيه ؛ حتّى أنّها تنطوي على تفكير الإنسان وتعلّقه ، وتحمل الشهادة

١- الآيتان ٣ و ٤ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

بشأنه ، ثم تؤدّي تلك الشهادة . فهي إنّما تكتسب اليوم لتؤدّي غداً . اليوم يوم الطّي وغداً يوم النشر والعرض . وهكذا تنشأ الأعمال متعاقبة في اتصالها بالزمان ، ويسير الإنسان على هذا الخطّ المتدرّج المتّصل زمنياً ويتقدّم في مسيرته ويخلف أعماله الواحد بعد الآخر ، ويُخيّل إليه أنّ تلك الأعمال قد زالت وفنيت . بيد أنّ الأمر ليس كذلك ، إذ إنّ الشيء الذي وُجد سوف لن يُعدم . وتلك الأعمال موجودة في الحقيقة ومحفوظة في مواضعها ، وسيُفتح هذا الشريط المسجّل غداً فتقرأ عجلة الزمان الحقائق المدوّنة . وسيُظهر المكان تلك الحقائق ، فيشاهد الإنسان نفسه في مواجهة جميع أعماله بخصائصها وكيفياتها .

أي أنّنا سنشاهد غداً ساحة المسجد التي نجلس فيها الآن مع جميع هذه الخصوصيّات ، بينما نتصوّر - على ضوء معنى انقضاء الزمان ودورانه - أنّ هذه الساعة ستنقضي ، وأنّ وجودنا مرهون بهذه اللحظات التي نوجد فيها . ثم سنشاهد غداً هذا المجلس مسجّلاً بجميع جهاته الظاهرية والباطنية ، ليس كمثال تسجيل مسجّلات الصوت المادّية فحسب ، بل إنّ جميع الموجودات التي يحتويها ظرف الزمان والمكان ، مضافاً إليها نفس الزمان والمكان ، ستنضمّ بما في داخلها إلى عالم التكوين بجميع خصوصيّاته ، من الأعمال الظاهرية والخواطر الذهنية والنوايا القلبية ، ثمّ إنّها ستأتي بعد ذلك لتشهد . فهي الآن تكتسب تلك الأمور بصورها المملّكية (المتعلّقة بعالم المملّك) ، ثمّ تعيدها في ذلك العالم في صورها المملّكية .

على أنّ مشاهدة تلك الصور المملّكية ، وذلك النحو من الشهادات المعنوية ، أمر يستدعي العجب الكثير . ومشاهدة تلك الصور في هذا العالم أمرٌ لا يحتمله إلاّ العباد المصطفّون لذات الحقّ تبارك وتعالى .

ينقل المرحوم عليّ بن طاووس رضوان الله عليه ، وهو من علماء

الإسلام الأعلام من ذوي التصنيفات والتأليفات الكثيرة ، ويعده الكثيرون في درجة تلي درجة الإمام المعصوم بلحاظ البصيرة ومقام اليقين والعلم والتقوى ، وقد وصفه العلامة الحليّ رحمة الله عليه في كتاب «إجازات بني زهرة» بأنه صاحب الكرامات الباهرة والمعجزات القاهرة . ينقل في كتابه «محاسبة النفس» روايتين ، إحداهما بإسناده إلى محمد بن علي بن محبوب ، عن كتابه ، بسنده إلى الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام .

قَالَ : مَا مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَا بْنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَافْعَلْ بِي خَيْرًا ، وَاعْمَلْ فِيَّ خَيْرًا أَشْهَدُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَانِي بَعْدَهَا أَبَدًا . (وفي نسخة أخرى:) فَقُلْ فِيَّ خَيْرًا وَاعْمَلْ فِيَّ خَيْرًا^١.

ويستفاد من هذه الرواية أن أيام الإنسان ليست سواسية ، وأن كل يوم هو موجود مشخص ، إن عمل الإنسان فيه خيراً فذاك ، وإلا فإن ذلك اليوم سينقضي ويأتي يوم جديد آخر وشرائط جديدة وعمل جديد .

كما ينقل الرواية الثانية عن كتاب مسعدة بن زياد الربيعي ، عما نقله عن الإمام الصادق ، عن أبيه الباقر عليهما السلام قال :

الَلَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ نَادَى مُنَادٍ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : يَا بْنَ آدَمَ إِنِّي عَلَى مَا فِيَّ شَهِيدٌ فَخُذْ مِنِّي ، فَإِنِّي لَوْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ لَمْ تَزِدْ فِيَّ حَسَنَةً وَلَمْ تَسْتَعْتِبْ فِيَّ مِنْ سَيِّئَةٍ . وَكَذَلِكَ يَقُولُ النَّهَارُ إِذَا أَدْبَرَ اللَّيْلُ^٢.

ويروي الصدوق في «علل الشرايع» بسنده عن عبد الله بن علي الزرّاد قال : سَأَلَ أَبُو كَهْمَسٍ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يُصَلِّي الرَّجُلُ نَوَافِلَهُ فِي مَوْضِعٍ أَوْ يُفَرِّقُهَا؟ قَالَ : لَا ، بَلْ هَا هُنَا وَهََا هُنَا فَإِنَّهَا تَشْهَدُ لَهُ يَوْمَ

١ و ٢- «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٣٢٥ ، الطبعة الحروفية .

الْقِيَامَةُ ١.

كنتُ جالساً أحد الأيَّام في الحرم المطهر للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام خلف جهة الرأس الشريف بعد إتمامي الصلاة وأداء ركعتي صلاة الزيارة، حيث كان جالساً إلى جانبي سماحة حجة الإسلام العلامة اللاهيجانيّ الأنصاريّ دامت بركاته. فتطرَّق الحديث في ذلك المكان المقدّس إلى ذكر الفقيه الإسلاميّ والعارف الجليل المرحوم الحاجّ الميرزا علي آقا القاضي، وباعتبار أنّ العلامة اللاهيجانيّ كان يتردّد في النجف الأشرف على محضر سماحته، فقد نقل عنه عدّة أقوال تستحق العناية والتأمّل، من بينها أنّ ذلك المرحوم كان يقول: لا تصلّ دائماً في مسجد واحد، واذهب إلى المساجد الأخرى أيضاً. وحشما وجدت فيضاً معنوياً فصلّ هناك. أمّا إذا لم يحصل لديك توجّه في مكانٍ ما، فغيّر ذلك المكان وانتقل إلى مسجد آخر. والخلاصة فإنّ التوقّف في مكان واحد أمرٌ لا داعي له. وينبغي على المرء أن يبحث باستمرار عن حالة معنويّة أفضل للتوجّه، وعليه الانتقال في طلبها من مكانٍ إلى آخر، وصولاً إلى اختيار الموضع الذي يحصل فيه على توجّه والتفات أفضل. (وكان يقول: إن لم تحصل على مرادك في مسجد الكوفة فاذهب إلى مسجد السهلة، وإن لم تحصل على مرادك في مسجد السهلة فاذهب إلى مسجد الكوفة وهكذا).

وكان من ضمن أقواله إنّ على الإنسان أن لا ييأس أبداً، وأن لا يكفّ عن السير والسلوك إن تأخّر وصوله إلى النتيجة. فقد يحفر المرء الأرض بظفره، ثم ينبع تحت أصابعه فجأة ماء زلال فوّار كمثّل عنق البعير.

ومن بينها قوله : مَنْ كَانَ هَمُّهُ اللَّهُ كَفَّاهُ اللَّهُ فِي جَمِيعِ هُمُومِهِ .
ومن بينها أَنِّي سألته يوماً (والكلام للعلامة اللاهيجاني) عن الذكر
الذي أَرَدَّه في مواقع الاضطراب والابتلاء وعند تعسر الأمور ، سواءً فيما
يتعلّق بالأُمور الدنيويّة أو الأُمور الأخرويّة ، فأجاب : صلّ على محمّد وآله
خمس مرّات ثمّ اقرأ آية الكرسي مرّة ، ثمّ أكثر في قرارة نفسك من قول
اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي فِي دِرْعِكَ الْحَصِينَةِ الَّتِي تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ تَشَاءُ حَتَّى يَتَسَيَّرَ
الْأَمْرُ .

إلاّ أَنَّ هناك مسألة ستعترض هذا الحديث ، وهي مسألة التوبة . فإن
تقرّر أَنَّ الأرض والزمان يسجّلان كلّ عمل يفعله الإنسان بجميع خصائصه
المعنويّة والروحيّة ، وأنّ هذه التسجيلات ستتكشف يوم القيامة ؛ فما هي
-إذاً- فائدة التوبة ؟ وما هو أثرها بعد أن ثبت أَنَّ الشيء الذي وجد
لن ينعدم ، وأنّ العمل الصالح والطالح لن ينعدم بعد تحقّقه ؟
يروى محمّد بن يعقوب الكلينيّ في «الكافي» بسنده عن معاوية بن
وهب ، قال :

سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحًا
أَحَبَّهُ اللَّهُ فَسَتَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَقُلْتُ : كَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ ؟
قَالَ : يُنْسِي مَلَكُهُ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَيُوجِي إِلَى جَوَارِحِهِ
اِكْتِمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ وَيُوجِي إِلَى بَقَاعِ الْأَرْضِ اِكْتِمِي عَلَيْهِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
عَلَيْكَ مِنَ الذُّنُوبِ ، فَيَلْقَى اللَّهَ حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ
مِنَ الذُّنُوبِ^١ .

وبناءً عليه ، فإنّ مثل هذا المذنب التائب سيلقي ربّه عزّ وجلّ في

١- «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٣١٧ و ٣١٨ ؛ الطبعة الحروفية .

مقام اللقاء في حالٍ لا يشهد فيها على ذنوبه شيء .
ويستفاد من كلام الإمام أنَّ التوبة هي حجاب يغطي العمل القبيح .
فكما يرتكب الإنسان عملاً قبيحاً فيتحقق عمله في الخارج ، فالتوبة كذلك
هي عمل يتحقق في الخارج ويبقى ثابتاً في عالم التكوين ؛ وأثره الملكوتي
أن يشكّل ساتراً وحجاباً يغطي الذنوب فلا يطلع عليها أحد .
كما روى الكليني في «الكافي» بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام ،
قال :

ثَلَاثَةٌ يَشْكُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : مَسْجِدٌ خَرَابٌ لَا يُصَلِّي فِيهِ أَهْلُهُ ،
وَعَالِمٌ بَيْنَ جُهَاثٍ ، وَمُصْحَفٌ مُعَلَّقٌ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْغُبَارُ لَا يُقْرَأُ فِيهِ .^١
وقد عُدَّ المصحف والمسجد في هذه الرواية الشريفة في مصافِّ
العالم الذي يشكي إلى ربه . ومن الجليّ أنَّ المراد بالمصحف هو هذا
القرآن المكتوب على الورق والمحفوظ بين الدفتين وليس حقيقة القرآن
الموجودة في العوالم العلوية . لأنّه عبّر عنه بالقرآن المعلق الذي وقع عليه
الغبار .

ولا ريب أنَّ المصحف المعلق هو موجود مادّي لا عقلائي ، إلّا أنّه
- مع ذلك - يشكو إلى ربه . كما أنَّ المسجد - بدوره - مكان مادّي ؛ لكنّه
يشكو إلى الله ، شأنه في ذلك شأن العالم .

يروى المرحوم الشهيد محمّد بن مكّي ، وهو من فقهاء الطراز الأوّل
في الإسلام ومتمنّ يركن إلى كلامه بين العلماء بلحاظ إتقانه وإحكام مطالبه .
يروى عن ميثم التمار مرسلًا . كما يروي مؤلف «المزار الكبير» وهو السيّد
فخّار بن معد الموسويّ أو بعض أفاضل معاصريه : حدّثني الشريف أبو

١- «وسائل الشيعة» ج ١ ، ص ٣٠٤ ، طبعة بهادري .

المكارم الحمزة بن علي بن زهرة العلوي أدام الله عزّه وأملّى عليّ بلفظه في الكوفة سنة سبعمائة وأربع وسبعين ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الشيخ أبي جعفر محمد بن عليّ ابن بابويه رضي الله عنه ، عن الحسن بن عليّ البيهقيّ ، عن محمد بن يحيى الصوليّ ، عن عون بن محمد الكنديّ ، عن عليّ بن ميثم رضي الله عنه ، عن ميثم التمار ، قال : أصحر بي مولاي أمير المؤمنين عليه السلام ليلة من الليالي قد خرج من الكوفة وانتهى إلى مسجد جعفي ، توجه إلى القبلة وصلى أربع ركعات فلما سلّم وسبح بسط كفيه وقال :

إِلَهِي ! كَيْفَ أَدْعُوكَ وَقَدْ عَصَيْتُكَ ، وَكَيْفَ لَا أَدْعُوكَ وَقَدْ عَرَفْتُكَ ، وَحُبُّكَ فِي قَلْبِي مَكِينٌ ، مَدَدْتُ إِلَيْكَ يَدًا بِالذُّنُوبِ مَمْلُوءَةً ، وَعَيْنًا بِالرَّجَاءِ مَمْدُودَةً .

إِلَهِي ! أَنْتَ مَالِكُ الْعَطَايَا وَأَنَا أَسِيرُ الْخَطَايَا ، وَمِنْ كَرَمِ الْعُظَمَاءِ الرَّفْقُ بِالْأَسْرَاءِ . وَأَنَا أَسِيرٌ بِجُرْئِي مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِي .
إِلَهِي ! مَا أَضْيَقَ الطَّرِيقَ عَلَيَّ مَنْ لَمْ تَكُنْ دَلِيلَهُ وَأَوْحَشَ الْمَسْلَكَ عَلَيَّ مَنْ لَمْ تَكُنْ أُنَيْسَهُ .^١ - إلى آخر دعائه .

وأخفت دعاءه وسجد وعقر وقال : العَفْوُ العَفْوُ مائة مرة ، وقام وخرج فاتبعته حتى خرج إلى الصحراء ، وخطّ لي خطّة وقال : إِيَّاكَ أَنْ تَجَاوِزَ هَذِهِ الْخُطَّةَ ، وَمَضَى عَنِّي . وَكَانَتْ لَيْلَةً مَدْلَهْمَةً فَقُلْتُ يَا نَفْسِي أَسْلَمْتَ مَوْلَاكَ وَلَهُ أَعْدَاءُ كَثِيرَةٌ أَيُّ عَذْرِ يَكُونُ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ، وَاللَّهِ لَا أَقْفَنُ أَثَرَهُ وَلَا أَعْلَمُنْ خَبْرَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ خَالَفْتُ أَمْرَهُ . وَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ

١- وهو دعاء طويل يقرب من صفحة من صفحات كتاب «بحار الأنوار» طبعه

الكمباني .

أثره فوجدته عليه السلام مطلعاً في البشر إلى نصفه يُخاطب البشر والبشر تخاطبه ، فحس بي والتفت عليه السلام وقال : مَنْ ؟ قلتُ : ميثم . فقال : يا ميثم ! ألم آمرك أن لا تتجاوز الخطّة ؟ قلت : يا مولاي ! خشيتُ عليك من الأعداء فلم يصبر لذلك قلبي . فقال : أسمعت ممّا قلتُ شيئاً ؟ قلتُ : لا ، مولاي .

فقال : يا ميثم !

وَفِي الصَّدْرِ لِبَنَاتٍ
نَكَتُ الْأَرْضَ بِالْكَفِّ
فَمَهْمَا تُنْبِتِ الْأَرْضُ
إِذَا ضَاقَ لَهَا صَدْرِي
وَأَبْدَيْتُ لَهَا سِرِّي
فَذَاكَ النَّبْتُ مِنْ بَدْرِي

وينبغي العلم أن المراد بنكت الأرض بكف اليد وإخفاء السر فيها ، وإنبات الأرض من ذلك السر ينطوي على كناية واستعارة لما تدور عليه محاورات عامة الناس من افتقاد مَنْ يصلح لأن يبوح له الإنسان بسرّه ويفضي له بمكنون صدره ، فيلجأ إلى دفن سرّه في التراب ؛ أو أنّ إرادة الإمام تعلّقت حقيقة بأن يقوم بنفسه القدسيّة بإيداع تلك الأسرار في باطن الأرض وروحها وملكوها ، لينبت من تلك الأرض فيما بعد من أمثال أولياء الله فيكونون أصحاب سرّ الإمام .

وبطبيعة الحال فإنّ هذا الاحتمال الثاني أقرب إلى الحقيقة ، لأنّ خروج الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الصحراء في الليل البهيم ،

١- أورد المرحوم المجلسي هذه الرواية مع ذكر الدعاء المفصّل في «بحار الأنوار» ج ٢٢ ، ص ١٠٥ و ١٠٦ من طبعة الكمباني ، كما أوردها في أحوال أمير المؤمنين عليه السلام بدون ذكر الدعاء المفصّل ، في ج ٩ ، ص ٤٧٢ ؛ كما أوردها المحدث القميّ في الجزء الأوّل من «منتهى الآمال» ص ٥٧ من طبعة المكتبة العلميّة الإسلاميّة بدون ذكر الدعاء ، وذلك نقلاً عن الشيخ الشهيد .

وتركه ميثم التمار بعد صلاته ومناجاة الطويلة لله تعالى وذهابه بمفرده ، أمرٌ يُستبعد أن يكون كناية واستعارة أدبية ارتجلها متابعة لأسلوب محاورات الناس .

ويستفاد من ذلك أن للأرض شعوراً وإدراكاً ، وأنها تسجل سرّ الإمام وتحفظ أمانته ثم تخرجها مع النبات عند فصل إنبات الزرع .
يروى الشيخ الكشي رواية شائعة عن جبرئيل بن أحمد ، عن محمد ابن عيسى ، عن إسماعيل بن مهران ، عن أبي جميلة المفضل بن صالح ، عن جابر بن يزيد الجعفي ، قال :

حَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ لَمْ أُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا قَطُّ وَلَا أُحَدِّثُ بِهَا أَحَدًا أَبَدًا .

قَالَ جَابِرٌ : فَقُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ : إِنَّكَ قَدْ حَمَلْتَنِي وَقَرَأَ عَظِيمًا بِمَا حَدَّثْتَنِي بِهِ مِنْ سِرِّكُمْ الَّذِي لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا ، فَرُبَّمَا جَاشَ فِي صَدْرِي حَتَّى يَأْخُذَنِي مِنْهُ شِبْهُ الْجُنُونِ !
قَالَ : يَا جَابِرُ ! فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَاخْرُجْ إِلَى الْجَبَانِ فَاحْفَرْ حَفِيرَةً وَدَلِّ رَأْسَكَ فِيهَا ثُمَّ قُلْ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بِكَذَا وَكَذَا^١ .

وشأن هذه الرواية شأن سابقتها ، فلا ينبغي التعجب من بوح السرّ

١- نقل هذا الحديث في ص ١٩٤ من كتاب «اختيار معرفة الرجال» المعروف بـ «رجال الكشي» الذي قامت كلية الإلهيات في مشهد بطبعه بمناسبة الذكرى الألفية لولادة الشيخ الطوسي ، وفي ص ١٢٨ من كتاب «أخبار معرفة الرجال» (وهو نفس «رجال الكشي») المطبوع في بمبي .

كما نقل في كتاب «معجم رجال الحديث» ج ٤ ، ص ٢٢ ، عن الشيخ الكشي ؛ وأورده المرحوم العلامة بحر العلوم في ص ٩١ من مخطوطة «السير والسلوك» المنسوبة إليه باختلاف يسير في اللفظ .

للأرض ، ومن كتمان الأرض لسرّ الإنسان .

هذا وقد وردت روايات ذات مضامين مختلفة في شأن الحجر الأسود المنصوب في ركن الكعبة وأمر امتلاكه شعوراً وإدراكاً . ونورد بعض تلك الروايات كأمثلة :

١ - رواية في «علل الشرايع» و «عيون أخبار الرضا» رواها عن أبيه ، عن محمد العطار ، عن محمد بن أحمد ، عن موسى بن عمر ، عن ابن سنان ، عن أبي سعيد القمّاط ، عن بكير بن أعين ، قال :

قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ الْحَجَرُ ؟
قَالَ ، قُلْتُ : لَا . قَالَ : كَانَ مَلَكًا عَظِيمًا مِنْ عُظَمَاءِ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمِيثَاقَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَأَقَرَّ ذَلِكَ الْمَلِكُ ، فَاتَّخَذَهُ اللَّهُ أَمِينًا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ فَأَلْقَمَهُ الْمِيثَاقَ وَأَوْدَعَهُ عِنْدَهُ .

ثم ينقل الإمام قصة مفصلة يقول في آخرها :
وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَشَدُّ حُبًّا لِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ مِنْهُ ، فَلِذَلِكَ اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَلْقَمَهُ الْمِيثَاقَ فَهُوَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ لِسَانٌ نَاطِقٌ وَعَيْنٌ نَاطِرَةٌ يَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ وَافَاهُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ وَحَفِظَ الْمِيثَاقَ .^١

٢ - ويروي في «منتخب البصائر» بسنده المتصل عن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : لما قُتِلَ الحسين بن عليّ عليهما السلام ، أرسل محمد بن الحنفية إلى عليّ بن الحسين عليه السلام وخلا به ، ثم قال : يا بن أخي قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جعل الوصية والإمامة

١ - «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٣٣٩ ، طبعة الكمباني ، كما أورد المقطع الثاني في الكتاب

المذكور ج ٦ ، ص ٥ .

من بعده لعلّي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم إلى الحسن ، ثم إلى الحسين ، وقد قُتل أبوك رضي الله عنه وصلى الله عليه ولم يوص ، وأنا عمك وصنو أبيك ، وأنا في سني وقدمتي أحق بها منك في حداثتك ، فلا تنازعني الوصية والإمامة ولا تخالفني . فقال له علي بن الحسين عليه السلام : يا عم ! اتق الله ولا تدع ما ليس لك بحق ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين . يا عم ! إن أبي صلوات الله عليه أوصى إليّ قبل أن يتوجه إلى العراق وعهد إليّ في ذلك قبل أن يُستشهد بساعة ، وهذا سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله عندي ، فلا تعرض لهذا فإنّي أخاف عليك نقص العمر وتشتت الحال وإنّ الله تبارك وتعالى آلى أن لا يجعل الوصية والإمامة إلّا في عقب الحسين عليه السلام ، فإن أردت أن تعلم فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتّى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك .

قال الباقر عليه السلام : وكان الكلام بينهما ، وهما يومئذ بمكة ، فانطلقا حتّى أتيا الحجر الأسود ، فقال علي بن الحسين عليهما السلام لمحمد : ابدأ فابتهل إلى الله واسأله أن يُنطق لك الحجر ثم أسأله . فابتهل محمد في الدعاء وسأل الله ، ثم دعا الحجر فلم يُجبه . فقال علي بن الحسين عليهما السلام : أما إنك يا عم لو كنت وصيّاً وإماماً لأجابه .

فقال له محمد : فادع أنت يا ابن أخي واسأله . فدعا الله علي بن الحسين عليهما السلام بما أراد ، ثم قال : أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق الناس أجمعين لمّا أخبرتنا بلسان عربي مبين من الوصيّ والإمام بعد الحسين بن عليّ ؟ فتحرك الحجر حتّى كاد أن يزول عن موضعه ، ثم أنطقه الله بلسان عربي مبين . فقال : اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن عليّ إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانصرف محمد وهو

يتولى علي بن الحسين عليه السلام^١.

يروى ابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدري ، قال :
حَجَجْنَا مَعَ عُمَرَ أَوَّلَ حِجَّةٍ حَجَّهَا فِي خِلَافَتِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ دَنَا مِنَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ وَاسْتَلَمَهُ فَقَالَ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ
لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
قَبَّلَكَ وَاسْتَلَمَكَ لَمَا قَبَّلْتُكَ وَلَا اسْتَلَمْتُكَ .

فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنَّهُ لَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ ،
وَلَوْ عَلِمْتَ تَأْوِيلَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَعَلِمْتَ أَنَّ الَّذِي أَقُولُ لَكَ كَمَا أَقُولُ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى فَلَمَّا أَشْهَدَهُمْ وَقَرَأُوا لَهُ بِأَنَّهُ الرَّبُّ عَزَّ
وَجَلَّ وَأَنَّهُمُ الْعَبِيدُ ، كَتَبَ مِيثَاقَهُمْ فِي رِقِّ نَمِّ الْقَمَةِ هَذَا الْحَجَرِ وَإِنَّ لَهُ
لَعَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ يَشْهَدُ بِالْمُؤَافَاةِ فَهُوَ أَمِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا
الْمَكَانِ .

فَقَالَ عُمَرُ : لَا أَبْقَانِي اللَّهُ بِأَرْضٍ لَسْتُ بِهَا يَا أَبَا الْحَسَنِ !^٢

ثم قال المجلسي رضوان الله عليه بعد نقله هذه القصة : وقد نقل هذه
القصة الغزالي في كتاب «إحياء العلوم» والبخاري ومسلم في صحيحيهما إلا
أنهم لم ينقلوا رد أمير المؤمنين على عمر .

وقد اعتذر ابن تيمية في «منهاج السنة» عن عمر بأن قوله للحجر
الأسود «إِنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ» لم يكن على سبيل الحقيقة ، بل كان

١- «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦١٧ ، طبعة الكمباني .

٢- «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، طبعة الكمباني .

على أساس المصلحة والسياسة. فقد ألف الكفار والمشركون حديثو العهد بالإسلام عبادة الأحجار وتكريمها على أمل نفعها وخوفاً من ضررها، فقال عمر ما قال لثلاثا يعتزّ المشركون بأنفسهم ويفخروا بعملهم. بيّد أنّ رواية ابن أبي الحديد تُبطل هذا الاعتذار، لأنّ عمر لم يعتذر من فعله بشيء بعد أن بيّن له الإمام سرّ تقبيل الحجر الأسود واستلامه، وبعد تأكّيده بأنّ هذا الحجر ينفع ويضرّ. وكان ينبغي له ألا يقول: لا أبقاني الله بأرضٍ لست فيها يا أبا الحسن! لأنّ ظاهر هذا الكلام، كلام من كان جاهلاً واعترف بخطأه.

وقد حذف ابن تيمية تنمّة هذه الرواية ليتمكّن من تبرير ذلك.

٣- يروي محمّد بن يعقوب عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير؛ ومحمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير، وصفوان عن معاوية بن عمّار، عن الإمام أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام، قال:

إذا دنوت من الحجر الأسود فارفع يديك واحمد الله وأثنِ عليه وصلّ على النبيّ صلى الله عليه وآله واسأله أن يتقبّل منك، ثم استلم الحجر وقبله، فإن لم تستطع أن تقبله فاستلمه بيدك، فإن لم تستطع أن تستلمه فأشِرْ إليه وقل: اللَّهُمَّ أَمَانَتِي أَدَيْتُهَا وَمِيثَاقِي تَعَاهَدْتُهُ لِتَشْهَدَ لِي بِالْمُؤَافَاةِ. اللَّهُمَّ تَصَدِّيقًا بِكِتَابِكَ وَعَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَفَرْتُ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَبِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَعِبَادَةِ كُلِّ نِدٍّ يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ.^١

١- «تهذيب الأحكام» ج ٥، ص ١٠٢، طبعة النجف؛ وقد ذكر الصدوق أيضاً هذا

كما ورد عن الكليني، عن عدة من الأصحاب، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن أحمد بن موسى، عن علي بن جعفر، عن محمد بن مسلم، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: اسْتَلِمُوا الرُّكْنَ فَإِنَّهُ يَمِينُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ مُصَافِحَةَ الْعَبْدِ أَوْ الدَّخِيلِ وَيَشْهَدُ لِمَنْ اسْتَلَمَهُ بِالْمُؤَافَاةِ^١.

وعليه، فإن المساجد في حد ذاتها ومع اختلافها، لها درجة واحدة من الأهمية، إذ إن الاختلاف بلحاظ المكانة والشرف أمر عارض مُنَح لها. فشرف الكعبة والمسجد الحرام يعود إلى الأنوار المعنوية التي كانت لمن بناهما أي إبراهيم وإسماعيل اللذين منحا لهذه الأرض ولهذا البناء روحاً وفضلاً، وشرف مسجد الخيف ومسجد النبي نابع من شرف العباد والنسك، فقد تشرفا ونالا الكرامة برسول الله وإسماعيل وإسحاق وبسائر الأنبياء كما تشرف قبر سيد الشهداء وتربته وأرض كربلاء ونالت الفضيلة ببركة البدن الطاهر والعلاقة المثالية لذلك الإمام بتلك البقاع، وليس الأمر عائداً إلى شرف الأرض ذاتها، أو أنّ الله تعالى شاء لذلك الإمام أن يُدفن في تلك الأرض الشريفة فينال فضلاً ببركتها، فهذا خلاف الحقيقة والواقع.

باده در جوشش گدای جوش ماست

چرخ در گردش اسیر هوش ماست^٢

«الدعاء في «من لا يحضره الفقيه» ج ٢، ص ٣١٦، طبعة النجف؛ أيضاً في «المحجة البيضاء» ج ٢، ص ١٦٩ و ١٧٠.

١- «التهذيب» ج ٥، ص ١٠٢.

٢- «مثنوي» ج ١، ص ١، طبعة ميرخاني.

يقول: «بنا سكرت الخمر ولم نسکر بها؛ وبنا صار القالب والإطار ولم نكن به».

باده از ما مست شد نی ما ازو

قالب از ما هست شد نی ازو^١

يروى الكليني في «الكافي» عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه،
قَالَ قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إِنِّي لَأَكْرَهُ الصَّلَاةَ فِي مَسَاجِدِهِمْ^٢. فَقَالَ: لَا تَكْرَهُ، فَمَا مِنْ مَسْجِدٍ
بُنِيَ إِلَّا عَلَى قَبْرِ نَبِيٍّ وَوَصِيِّ نَبِيٍّ قُتِلَ فَأَصَابَ تِلْكَ الْبُقْعَةَ رَشَّةٌ مِنْ دَمِهِ
فَأَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا؛ فَأَدَّ فِيهَا الْفَرِيضَةَ وَالنَّوَافِلَ وَأَقْضَى فِيهَا مَا
فَاتَكَ^٣.

قال المرحوم العلامة السيد مهدي بحر العلوم في منظومته:

أَكْثَرُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْمَشَاهِدِ	خَيْرَ الْبِقَاعِ أَفْضَلَ الْمَعَابِدِ
لِفَضْلِهَا اخْتِيرَتْ لِمَنْ بِهِنَ حَلٌّ	ثُمَّ قَدْ حَلَّهَا سَمَا الْمَحَلِّ
وَالسَّرُّ فِي فَضْلِ صَلَاةِ الْمَسْجِدِ	قَبْرٌ لِمَعْصُومٍ بِهِ مُسْتَشْهَدٌ
بِرَشَّةٍ مِنْ دَمِهِ مُظْهِرَةٌ	طَهْرُهُ اللَّهُ لِعَبْدٍ ذَكَرَهُ ^٤

والخلاصة، فإنَّ شرف الأمكنة والأزمنة - عموماً - مرتبط بشرف
الحال في تلك الأمكنة والأزمنة حيث قيل: شَرَفُ الْمَكَانِ بِالْمَكِينِ. وَأَنَّ

١- يقول: «الخمرة في فورائها تستجدي الفوران منّا، الفلك في دورانه أسير عقلنا
وفطنتنا!».

٢- يقصد مساجد العامة وأهل السنة.

٣- «تهذيب الأحكام» ج ٣، ص ٢٥٨؛ و «سفينة البحار» ج ١، ص ٦٠١.

ويقول في «مصباح الشريعة» الباب الثالث والأربعين في المشي:

فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَذْكُرُ اللَّهُ فِيهَا وَعَلَيْهَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِلَى أَنْ يَدْخُلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

٤- «الدرة النجفية» ص ١٠٠، طبعة مطبعة النعمان في النجف.

تلك الأرواح الطيبة لأولياء الله وأنبيائه وأوصيائهم هي التي تجعل تلك المواضع طاهرة منورة، وتمنحها جدارة تحمّل أعمال الناس العباديّة .
وهذه النورانيّة تحصل على إثر ذلك الإدراك والشعور ، إذ إنّ العلم في عوالم المعنى نور ، وكلّما قويت درجة إدراك المكان والزمان ، زادت نورانيّتها ، كما هي الحال في المسجد الحرام ومسجد النبيّ ومسجد قبا ومسجد الخيف والمساجد الواقعة في أطراف قبور المعصومين . كما أنّ شرف يوم الجمعة وليلتها ، وأيّام شهر رمضان ولياليه ، والأيّام المعدودات والأيّام المعلومات وعيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الغدير والنصف من شعبان وأمثالها عائد إلى شرف الأفراد الذين تُنسب إليهم تلك الأيّام والليالي . فقد سرى شرف الحال إلى زمان الحلول ومكانه .

وهناك بعض المساجد ذات نورانيّة جليّة وواضحة ، بحيث يحسّ الإنسان فيها بحالة من النشاط والتوجّه الروحيّ ، وذلك منبعث عن خلوص نية باني المسجد ومعماره وعمّاله ومصلّيه ، بحيث أدّى وجداناً إلى جعل فضاء المسجد المعنويّ روحانيّاً ، وإلى جعل سقفه وجدانه وأرضه حيّة ذات شعور ، بالرغم من جهل عامة الناس لهذا الأمر .

يقول المرحوم آية الله جمال العارفين الحاجّ الشيخ جواد الأنصاريّ الهمدانّي أسكنه الله بحبوحه جنانه :

دخلتُ أحد المساجد يوماً فرأيتُ رجلاً عجوزاً من عامة الناس منشغلاً بالصلاة وقد اصطفّ خلفه صفّان من الملائكة يقتدون به دون أن يكون له علم بالأمر . وكنت أعلم أنّ ذلك الرجل العجوز قد أدّن لصلاته وأقام . فقد جاء في الرواية أنّ من يؤدّي الأذان والإقامة في فرائضه اليوميّة فإنّ صفّين من الملائكة سيققدون به ، أمّا إذا أدّى أحدهما فإنّ صفّاً واحداً من الملائكة سيققدني به بحيث يمتدّ طول ذلك الصفّ ما بين المشرق

والمغرب .

وهذه الآثار هي من الآثار الملكوتية القهرية للأذان والإقامة ، ولو لم يكن المؤذن والمقيم على اطلاع بذلك . كما أن من الآثار القهرية لخلوص نية المصلين والمناجيين ودرجات قربهم ، طهارة المحل ونورانية المكان والزمان . فجبل الطور قد تنور بسبب تجلي نور الحق في موسى الكليم ؛ وجبل ساعير وجبل فاران وبيت إيل وبئر سبع وباقي الأمكنة النورانية ومعابد أولياء الله قد صارت منورة ومطهرة من تجلي نور الحق في الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وفي عيسى وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء الكرام .

لِلْمَجْلِسِ التَّاسِعِ وَالْأَرْبَعُونَ

شَهَادَةُ الْقُرْآنِ وَالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
 وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
 ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا *
 وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
 أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .^١
 يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ .^٢
 وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .^٣
 وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ؛ يتساءل الإنسان : لماذا أصبحت الأرض
 هكذا ؟ لماذا أضحت بهذه الصورة وهذه الكيفية ؟ وما هي قصتها وما هو
 ماضيها ؟ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ؛ يومذاك تحدث الأرض ما جرى عليها
 من وقائع الأنبياء والأئمة ، ومن نزاعات الدول والجماعات والأحزاب ،

١- الآيات ١ إلى ٥ ، من السورة ٩٩ : الزلزلة .

٢- الآية ٤٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٣- الآية ٦٩ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

وتقصّ الحوادث العامة والخاصة للأفراد . وستحكي ما جرى لها من الحوادث منذ أن خلقت إلى حين أخرجت أثقالها وأمتعتها ، وتستحيل أرضاً أخرى نورانية طاهرة . بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا .

بأنّ الله أوحى لها وألهمها ، وبثّ فيها من علمه . ذلك الوحي الذي أوحاه ربك - أيها النبي - للأرض فجعلها ذات علم يمكنها به أن تتحدّث عن الوقائع والحوادث الماضية ، وأن تُظهر أسرارها وخفاياها الدفينة وتبديها للعيان .

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ .

يوم يصدر الناس من الأرض ، فتكون صادرات الأرض من الناس الذين رقدوا فيها منذ آلاف السنين وارتدوا رداء الموت والفناء .

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .^١

إنّ جميع أفراد البشر الذين جاءوا إلى الأرض تدريجياً منذ عهد آدم إلى يوم القيامة فعُدّوا من واردات الأرض ، قد حان الآن موعد صدورهم منها وخروجهم بعنوان صادرات . ولقد دخلوا في باطن الأرض وحلّوا فيها ونزلت فيها أجسادهم وأقامت فيها وعُدّت من أثقالها . أمّا الآن فقد آن الأوان لمناقشة تلك الملقات وإخراجها من ديوان المحفوظات وتصديرها إلى عالم آخر ، إلى عالم الحساب وموقف العرض والشهادة . لماذا ؟ لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ .

وسيخرج الناس فرقاً ، فرقاً أَشْتَاتًا ؛ المؤمنون مع المؤمنين والكفار مع الكفار ، وسيخرج من الأرض أصحاب الاتجاهات والأحزاب والمنتمون إلى قبائل خاصة ، في صفوف ومجاميع مختلفة فينضمّون إلى

١- الآية ٥٥ ، من السورة ٢٠ : طه .

بعضهم في تجمّعات وتشكيلات خاصّة من أجل إراءتهم أعمالهم وإطلاعهم على سيرتهم وسلوكهم .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .^١
ويُستفاد من هذه الآيات الكريمة عدّة أمور :

أحدها : أنّ الأرض ستتحدّث وتخبر بوقائعها : «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» ، حدّث يحدث تحديثاً ، أخبر وبّين وقصّ . ومن الجلي أنّ الحديث الذي تحدّثه الأرض ، لا تحدّثه باللسان المعهود الذي هو عبارة عن قطعة لحمية داخل الفم . كما أنّ الصوت الذي يخرج من الأرض لن يماثل الأصوات التي يحدثها أفراد البشر . إذ لو قلنا بأن الله عزّ وجلّ يُوجد صوتاً في الأرض ، فإنّ ذلك الصوت لن يكون صوتها ، ولما صحّ أن ننسب إليها فنقول بأن الأرض تتحدّث وتحكي عن أخبارها وحوادثها .

ولو وُضع في فم إنسانٍ ما مسجّل صغير للصوت لا يُرى ، فتحدّث ذلك المسجّل لما قيل بأنّ ذلك الشخص قد تحدّث . إذ إنّ نسبة الكلام إلى الإنسان تصحّ حين يصدر الكلام من نفس الإنسان وحين يكون بإنشائه وإرادته أمّا الصوت الذي ينبعث من جوار الإنسان فلا يصدق عليه عنوان صوت الإنسان وحديثه .

ولو تحدّثت الأرض بنفسها لما انحصر حديثها بهذه الأصوات المعهودة ، لأنّ حديث كلّ شيء يتناسب مع ذلك الشيء . فالإنسان يتحدّث بكيفيّة معيّنة ، وكلّ صنف من أصناف الحيوانات يتحدّث بكيفيّة معيّنة . وللشجرة حديث خاصّ ، وللجمادات كذلك حديث خاصّ معيّن . خاصّة إذا رجعنا إلى المطالب التي نوقشت في المجلس السابق وذكرنا فيها أنّ

١- الآيتان ٧ و ٨ ، من السورة ٩٩ : الزلزلة .

الموجودات - بما فيها الجمادات - تمتلك شعوراً وقدره وحياة . لذا يتضح أنّ الأرض كذلك ذات شعور وفهم . فيكون حديث الأرض هو إراءتها وعرضها للحوادث . تلك الحوادث التي حفظتها وصارت اليوم تعرضها بطريقة تتناسب مع وجودها .

قد تقولون : لقد جاءت القطّة إلى الغرفة فتحدّثت إليّ وطلبت طعاماً . وبطبيعة الحال فإنّ كلام القطّة وحديثها ليسا بأن تقول بلسانها وفقاً للألفاظ المتداولة «أيّها السيد ! أنا جائعة وأريد طعاماً» فكلام القطّة هو مواؤها ، حيث تحدث أصواتاً مختلفة ، أحدها بكيفيّة معيّنة حين تطلب شيئاً ، والأخرى بكيفيّة أخرى حين تشعر بالخوف فتنادي أطفالها إليها على نحوٍ خاصّ . كما أنّ لها صوتاً خاصّاً حين تطردهم وتبعدهم عنها ، وصوتاً حين تواجه عدوّاً ، وصوتاً حين تسترحم الإنسان وتطلب منه طعاماً ، فيفهم من لحن صوتها وكيفيّة نظراتها أنّها جائعة تطلب طعاماً .

وعلى آية حال فإنّ تكلم الأرض وحديثها يتناسب معها ، وحديثها هو عرضها للحوادث ، مستخدمةً الشعور والإدراك اللذين تمتلكهما .
والأمر الآخر قوله : **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا** .

الوحي بمعنى إيصال بعض المعاني الملكوتيّة عن طريق الباطن إلى عالم المُلْك والظاهر بما يتناسب مع كلّ موجود .

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا .^١

ولا يعني الوحي الذي يوحيه الله إلى النحل ، أنّه سبحانه يرسل جبرائيل الأمين إلى كلّ نحلة ، فيُلهم قلبها . بل المراد بالوحي إلى النحل ،

١- الآيتان ٦٨ و ٦٩ ، من السورة ١٦ : النحل .

الفطرة التي أودعها البارئ المتعال في هذا الوجود والخاصية التي جعلها فيها والقوى الفكرية والخلقة والفرائز التي جهّزها بها بحيث صارت تبني لنفسها بيوتاً وخلايا بين ثغرات الجبال والأشجار وفي فتحات سقوف البيوت . تلك البيوت المجللة السداسية المشيدة وفق قواعد هندسية بحيث تعدّ من أفضل البيوت ، دون أن يطرأ عليها خلل أو نقص . أي أنه تعالى جعل نظام النحل وقوامها الوجودي وحدودها الماهوية على هذا النحو لتكون على هذه الهيئة والكيفية . وهذا النظام قائم على أساس خلق الله تعالى حدوثاً وبقاءً .

أي أنّ هناك في كلّ لحظة وحيّاً من الذات القدسية للرحمن إلى هذا المخلوق المعصوم المنقاد في أساس خلقته ، وفي إفاضة الخلقة والشعور والإدراك ، وفي تسديده باستمرار بهذا الفهم والشعور وفي حدود قدرته ، وفي إرادته وهدفه ، في القيام بهذه الوظائف .
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .

أي أنّ الله عزّ وجلّ يعطي الأرض قوّة يمكنها من خلالها إخراج تلك الوقائع التي قامت بتسجيلها وحفظها في الديوان بعنوان واردات ودنما تغيير أو تبديل ، وعرض تلك الوقائع حين يحين موعد العرض والمناقشة في محكمة العدل الإلهي ، وإظهارها على مرأى ومسمع من أصحابها وليراها غير أصحابها ممّن يشاء الله سبحانه .

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ .

يخرج الناس جماعات ليروا أعمالهم ويتّضح بأن حديث الأرض يتمثّل في عرضها وإراءتها . أي أنّ حكاية هذه الأرض ما أوحى لها الله تتمثّل في عرضها الأعمال أمام أنظار أصحابها . فحديثها وكلامها - إذاً - هو عرضها وإراءتها .

وسيقال للإنسان : تعال وانظر أعمالك ! فمن عمل صالحاً ، شاهد عمله الصالح ؛ ومن ارتكب عملاً طالحاً شاهده بصفته ونعته ، إذ إن ما يصدر من الإنسان في عالم الوجود ثابت لا يزول ، ومن المحال أن يطرأ عدم على شيء تلبس برداء الوجود . منتهى الأمر أن العمل يختفي عن ناظر الإنسان ، ثم يُفتح ديوان الأرض فتتبدل الورادات إلى صادرات ، ويُعطى كل امرئ سجله بيده ويقال له : تطلع وانظر من كل خيرٍ وشرٍ . ويستفاد من هذه الآيات القرآنية أن بقاع الأرض تشهد على كل عمل يُرتكب عليها ، وعلى كل حادثة تقع فوقها . فكل نقطة من الأرض لها مع الإنسان نسبة وعلاقة تجعلها تشهد على سلوكه وسيرته .

فجبال الهمالايا - مثلاً - لا تشهد على عملنا ، بل ستشهد عليه البقاع والأماكن التي لنا معها ارتباط ونسبة ، والتي وقعت ظرفاً لمكاننا بعنوان «أين» . كما أن الأزمنة السالفة مثل أيام موسى وعيسى عليهما السلام لا تشهد على أعمالنا ، بل الشاهد عليها هو الزمن الذي نعيش فيه ، والظرف الزمني الذي يحتوي وجودنا .

لذا فإن كل أرض وزمان ستحكي عن تلك النسب والارتباطات التي أخذتها وتحملتتها من جميع الأفراد الموزعين على ظهرها . وقد ذكرت هذه المطالب تحت عنوان الفلسفة الكلية لشهادة الأمكنة والبقاع والزمان والأرض ، أما بالعنوان الفرعي ، فلدينا روايات في هذا المجال جاء فيها أن كل مكان تصلي فيه يشهد على صلاتك ، وكل مكان تزوره يشهد لك ، وكل مكان تحبّه يشهد لك . فأرض عرفات والمشعر ومنى تشهد يوم القيامة على وقوفك ومبيتك وتقديمك القربان ورميك ؛ وجبلا الصفا والمروة يشهدان كما أن السعي بين الصفا والمروة ، والطواف حول الكعبة لهما روح ونور وحياة وشعور ، وهما شاهدان سيشهدان .

وهذه الروايات من الكثرة بحيث تضيق على الحصر والإحصاء ، يَدَّ أنها لم تُجمع في باب واحد بل وردت متفرقة في أبواب الفقه والزيارات والأدعية والقرآن .

فلدينا في كتاب الصلاة - مثلاً - أخبار عن البقاع التي تشهد على الصلوات التي صلّاها المرء عليها ، سواء الصلوات المستحبة كصلاة الغفيلة وصلاة ليلة الرغائب أم سائر الصلوات اليومية . وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحجّ والجهد والمرابطة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والروايات الواردة في هذا المجال جمّة لا مجال لإحصائها .

هذا في شأن شهادة الزمان والمكان ، أمّا بالنسبة إلى شهادة الأعمال فهناك باب مفصّل أيضاً في أنّ الصلاة التي يصلّيها المرء ، والصوم الذي يصومه ، والحجّ الذي يحجّه ، والجهد الذي يقوم به في سبيل الله تعالى وكلّ عمل حسن أو سيّئ يفعلُه سيشهد يوم القيامة على الإنسان .

وتبعاً للمقدّمات التي مرّت في المجالس الأخيرة ، فقد اتضح معنى الشهادة وكيفيّتها، وأصل ثبوت الشهادة وضوحاً ينفي الحاجة للبحث في شأنها مجدداً . إذ إنّ نفس العمل هو أحد معطيات عالم التكوين .

وتبعاً للقاعدة العامة : وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ، فإنّ كلّ ما يمكن أن يدعوه المرء شيئاً سيكون محفوظاً في عالم التكوين وفي كتاب الله المبين وروحه : الإمام المبين ، ومن جملة تلك الأشياء نفس عمل الإنسان . وكما أنّ وجود الإنسان محفوظ ، فإنّ أعماله (التي هي من وقائعه ومُعطياته) محفوظة بدورها . وهذه الوقائع تزول تبعاً للصور المختلفة التي تتخذها لنفسها مادة الإنسان وبدنه ، إلّا أنّها تزول إذ تزول حين تكون تلك الصورة قد تبدّلت . أمّا في الحال التي بدر فيها ذلك العمل من الإنسان ، فإنّ ذلك العمل سيُعدّ من لوازم الصورة التي تلبس بها الإنسان آنذاك ، وهو

- بهذا اللحاظ - غير قابل للزوال والانعدام . أي أنّ الأعمال ملازمة للصورة الإنسانية للإنسان وغير قابلة للانعدام مع قيد أنّ تلك الصورة هي صورة الإنسان يوم أمس مثلاً . فتلك المادّة قد فقدت الصورة التي امتلكتها يوم أمس واتخذت لنفسها صورة اليوم الحالي . وكما أنّ الصورة السابقة لم تنعدم ، فإنّ الأعمال الموجودة والملازمة لتلك الصورة لم تنعدم بدورها .

ولقد تقدّمت تلك الصورة إلى الأمام لكنها لم تنعدم بصورة مطلقة . ومع أنّها غير مشهودة في هذا الزمان ، إلّا أنّها باقية يوم أمس - مع قيد يوم أمس - وستبقى باقية فيه على الدوام . ولقد كانت تلك الأعمال صادرات نفس الإنسان ومن لوازمه التي لا تنفك عنه ، وهي محفوظة مع صورة الإنسان مهما شاء الإنسان أن يفعل .

يروى المجلسي رضوان الله عليه عن «معاني الأخبار» و «أمالى الصدوق» و «خصال الصدوق» بسند الصدوق المتصل إلى سهل بن سعد ، قال :

جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ :
يَا مُحَمَّدُ ! عَشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ! وَأَحْبَبُ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ
وَأَعْمَلُ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ
وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ^١.

وعلى آية حال ، فإنّ جميع الأعمال ستوضع أمام الإنسان يوم القيامة من صلاة وصوم وزكاة وزنا وكذب ودغل وغش وسرقة وحيلة وأمثال ذلك ، ولو كانت بقدر ذرّة واحدة . فماذا تعادل الذرّة الواحدة يا ترى ؟

١- «بحار الأنوار» ج ١٧ ، ص ٥ (الروضة) ، طبعة الكمباني .

الذرة عبارة عن واحدة من النقاط المادية الصغيرة المجهرية المنتشرة في الفضاء ، والتي يتعذر مشاهدتها إلا حين يجلس المرء في الظلام ويفتح نافذة صغيرة لدخول النور . فحينذاك فقط ستُشاهد الذرات السريعة متحركة في عمود الضياء ، وهي من الصغر بحيث لو جمع منها الملايين لما عادت غراماً واحداً .

فأي ميزان دقيق سيضعه الحق عز وجل هناك ، بحيث يقدر على تشخيص الأعمال وإظهارها للإنسان ولو كانت بقدر مثقال ذرة ؟
إنّ بعض الموازين في هذا العالم تتجاوز نسبة الخطأ فيها عدة كيلو غرامات ، وبعض آخر من أجهزة وزن السيارات تصل نسبة الخطأ فيها إلى مائة كيلو غرام ، نعوذ بالله من الميزان الإلهي الذي يعين الذرة الواحدة من الخير ، والذرة الواحدة من الشر ، فيظهرهما للإنسان .
وستحدث إن شاء الله تعالى في بحث الميزان عن كيفية ووضع ميزان الأعمال الإلهي يوم القيامة .

هذا وقد وردت روايات حول تكلم القرآن الكريم وشهادته يوم القيامة ، إلا أننا سنذكر رواية ذات مضمون رفيع وردت في كتاب «الكافي» الشريف . يروي محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن محمد ، عن علي بن العباس ، عن الحسين بن عبد الرحمن ، عن سفيان الجريدي ، عن أبيه ، عن سعد الخفاف ، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال :
يَا سَعْدُ ! تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا الْخَلْقُ وَالنَّاسُ صُفُوفَ عِشْرُونَ وَمِائَةً أَلْفِ صَفٍّ : ثَمَانُونَ أَلْفَ صَفٍّ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ صَفٍّ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ .

ثم قال الإمام : فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلم

فينظرون إليه ثم يقولون: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَعْرِفُهُ بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ أَشَدَّ اجْتِهَاداً مِنَّا فِي الْقُرْآنِ، فَمِنْ هُنَا أُعْطِيَ مِنَ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ وَالنُّورِ مَا لَمْ نُعْطَهُ، ثُمَّ يَجَاوِزُ (يتجاوز - خ ل) حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى صَفِّ الشَّهَدَاءِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ الشَّهَدَاءُ ثُمَّ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الرَّبُّ الرَّحِيمُ، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الشَّهَدَاءِ نَعْرِفُهُ بِسَمْتِهِ وَصِفَتِهِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ شَهِدَاءِ الْبَحْرِ، فَمِنْ هُنَا أُعْطِيَ مِنَ الْبَهَاءِ وَالْفَضْلِ مَا لَمْ نُعْطَهُ.

قال: فيجاوز (فيتجاوز - خ ل) حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى صَفِّ شَهِدَاءِ الْبَحْرِ فِي صُورَةِ شَهِيدٍ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ شَهِدَاءُ الْبَحْرِ فَيَكْثُرُ تَعْجَبُهُمْ وَيَقُولُونَ:

إِنَّ هَذَا مِنَ شَهِدَاءِ الْبَحْرِ نَعْرِفُهُ بِسَمْتِهِ وَصِفَتِهِ، غَيْرَ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِي أُصِيبَ فِيهَا كَانَتْ أَعْظَمَ هَوَلاً مِنَ الْجَزِيرَةِ الَّتِي أَصَبْنَا فِيهَا، فَمِنْ هُنَا أُعْطِيَ مِنَ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ وَالنُّورِ مَا لَمْ نُعْطَهُ.

ثم يجاوز (يتجاوز - خ ل) حَتَّى يَأْتِيَ صَفِّ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ فِي صُورَةِ نَبِيِّ مُرْسَلٍ، فَيَنْظُرُ النَّبِيُّونَ وَالْمُرْسَلُونَ إِلَيْهِ فَيَشْتَدُّ لَذَلِكَ تَعْجَبُهُمْ وَيَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَذَا لَنَبِيِّ مُرْسَلٍ نَعْرِفُهُ بِصِفَتِهِ وَسَمْتِهِ غَيْرَ أَنَّهُ أُعْطِيَ فَضْلاً كَثِيراً.

قال: فيجتمعون فيأتون رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَسْأَلُونَهُ وَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! مَنْ هَذَا؟ فيقول: أَوْ مَا تَعْرِفُونَهُ؟ فيقولون: مَا نَعْرِفُهُ، هَذَا مِمَّنْ لَمْ يَغْضَبِ اللَّهُ عَلَيْهِ. فيقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: هَذَا حِجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. فَيَسْلَمُ ثُمَّ يَجَاوِزُ حَتَّى يَأْتِيَ صَفِّ الْمَلَائِكَةِ فِي صُورَةِ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَيَشْتَدُّ تَعْجَبُهُمْ وَيَكْبُرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَا رَأَوْا مِنْ فَضْلِهِ وَيَقُولُونَ: تَعَالَى رَبُّنَا وَتَقَدَّسَ. إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ نَعْرِفُهُ بِسَمْتِهِ وَصِفَتِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ الْمَلَائِكَةِ مِنَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ مَقَاماً. مِنْ

هناك ألبس من النور والجمال ما لم نلبس . ثم يجاوز حتى ينتهي إلى رب العزة تبارك وتعالى فيختر تحت العرش ، فيناديه تبارك وتعالى : يا حجتى في الأرض وكلامي الصادق الناطق ! ارفع رأسك وسل تعطأ واشفع تُشفع . فيرفع رأسه فيقول الله تبارك وتعالى : كيف رأيت عبادي ؟ فيقول : يا رب منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضئع شيئاً ، ومنهم من ضئعني واستخف بحقي وكذب وأنا حجتك على جميع خلقك . فيقول الله تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبن عليك اليوم أحسن الثواب ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب .

قال : فيرفع القرآن رأسه في صورة أخرى . قال : فقلتُ له : يا أبا جعفر ! في أي صورة يرجع ؟

قال : في صورة رجل شاحب متغير ينكره أهل الجمع . فيأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به أهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول : ما تعرفني ؟ فينظر إليه الرجل فيقول : ما أعرفك يا عبد الله .

قال : فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأول فيقول : ما تعرفني ؟

فيقول : نعم .

فيقول القرآن : أنا الذي أسهرت ليلك وأنصبت عيشك ، وسمعت الأذى ورجمت بالقول في ، ألا وإن كل تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراءك اليوم .

قال : فينطلق به إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقول : يا رب ! عبدك وأنت أعلم به قد كان نصباً بي مواظباً عليّ ، يُعادي بسببي ويحب فيّ ويبغض فيّ .

فيقول الله عز وجل : أدخلوا عبادي جنّتي واكسوه حلّة من حلل الجنة

وتوجوه بتاج .

فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له : هل رضيت بما صنع بوليك ؟

فيقول : يا رب ! إني أستقل هذا له ، فزده مزيد الخير كله .

فيقول : وعزتي وجلالي وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلن له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له ولمن كان بمنزلته : ألا إنهم شباب لا يهرمون وأصحاء لا يسقمون ، وأغنياء لا يفتقرون ، وفرحون لا يحزنون ، وأحياء لا يموتون . ثم تلا هذه الآية : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ١ . قلت : جعلت فداك يا أبا جعفر ! وهل يتكلم القرآن ؟

فتبسّم ثم قال : رحم الله الضعفاء من شيعتنا ، إنهم أهل تسليم . ثم قال : نعم يا سعد ؛ والصلاة تتكلم ولها صورة وخلق تأمر وتنهى . قال سعد : فتغير لذلك لوني وقلت : هذا شيء لا أستطيع أن أتكلم به في الناس .

فقال أبو جعفر عليه السلام : وهل الناس إلا شيعتنا ؟ فمن لم يعرف الصلاة فقد أنكر حقنا . ثم قال : يا سعد ! أسمعك كلام القرآن ؟ قال سعد ، فقلت : بلى صلى الله عليك .

فقال : إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ٢ . فالنهي كلام ، والفحشاء والمنكر رجال ، ونحن ذكر الله ونحن أكبر ٣ .

١- الآية ٥٦ ، من السورة ٤٤ : الدخان .

٢- الآية ٤٥ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٣- «أصول الكافي» كتاب فضل القرآن ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ إلى ٥٩٨ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٣١٩ إلى ٣٢١ ، الطبعة الحروفية .

والخلاصة ، فقد هجر كثير من الناس القرآن الكريم ، وتخيّلته طائفة منهم كذباً واختلاقاً وقالوا بأن آية الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ لا تنسجم مع هذا العصر ، وبأن هذه الآية ينبغي ألا تُقرأ أساساً ، وأن لا تُذكر ولا تُفسّر .

لقد شقي أكثر المسلمون . أتعلمون لماذا ؟ لأنهم تأثروا بالحضارة الغربية إلى الحد الذي صار ينبغي فيه للقرآن أن يُفسّر وفقاً لرغبات الأمم الكافرة وشهواتها . حتى صار بعض أصحاب الاختصاص يقولون بلا مواربة بأن الإسلام قد ساوى بين الرجل والمرأة في الحقوق . أي أنّ الحضارة الغربية وثقافة الكفر ترعرعت في قلوبهم وأفكارهم وتجدّرت وامتدّت باسقة حتى كأنهم يخجلون أن يقولوا بأن ذلك الكلام كلام خاطئ ، وبأن الإسلام لم يساو بين المرأة والرجل ، بل أعطى كلّاً منهما حقوقه وفقاً لمعايير الضرورات الفطرية ، وهو معنى يختلف عن التساوي في الحقوق . إنّ المرأة والرجل يقفان في درجتين مختلفتين ، وليسا متساويين في أيّ أمر من الأمور . وقد جاء في القرآن الكريم :

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ^١ .
يقولون : إنّنا لا نفهم معنى هذه الآية .

سلب الله منكم الفهم والإدراك . إذ من الطبيعي أن لا تفهموها .
يقولون : لا تخوضوا في هذا الأمر الآن .

ولم لا نبحث فيه ! أو ليست هذه الآية آية قرآنية ؟ على المسلمين أن يجولوا في أعماق القرآن بهمة صادقة وبشجاعة لا يعترها تردد ، فيقرأوا ويبحثوا ويناقشوا ويقدموا القرآن للعالم ، سواء في الخطب

١- الآية ٢٢٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

والكلمات أم في المؤتمرات والمحافل الدولية ، ويشبتوا أنّ القرآن قد أعطى للمرأة حقوقها ؛ وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ . وهو أفضل وأرقى طراز لتقسيم الحقوق على أساس المواهب الإلهية الموهوبة ؛ والحقّ أنّه كذلك .

إنّ الشرق والغرب يطوفان يميناً وشمالاً بائسين خاليي الوفاض ، وعليهم في نهاية الأمر أن يأتوا فيركعوا أمام القرآن ، ويعتبروا تعاليمه المشعل الوهاج الذي يضيء طريقهم وصولاً إلى نجاة عالم البشرية .

لقد جاءت إلى منزلنا اليوم إحدى المخدّرات وتحدّثت عن زوجها الذي حصلت على الطلاق منه في زمن الطاغوت من خلال التوسّل بالمحكمة الطاغوتية ، واعترفت بمدى الشقاء والتعاسة اللذين لحقها في ذلك الوقت حين أصدرت المحكمة حكم الطلاق دون رضا الزوج ولا وكالة منه . وقالت : «لقد تجرّأتُ وحصلتُ على الطلاق ، وتخيّلتُ أنّني كنت حاذقة ، إلّا أنّني أوقعتُ نفسي في الشقاء » وكانت تتمنّى لو لم تكن فعلت ما فعلت ؛ ولو لم تفعل لعاشت مع زوجها في أتمّ الوئام والصفاء . كانت تقول : «لقد ألقيتُ بنفسي في النار» .

إنّ طلاق المرأة بيّد الرجل ، فهذا هو حكم القرآن ، إذ إنّ للنساء مواصفات خاصّة بهنّ ، فإنّ حُمُلن فوق تلك الطاقات والمواصفات لابتعدن من جرّاء ثقلها ، ولتلاشى كيانهنّ وتبدّد .

وقد كتب أمير المؤمنين عليه السلام في حاضرين وصيّة ذات مضمون عميق ورفيع لولده الإمام الحسن عليه السلام ، نُقلت في «نهج البلاغة» فاستوعبت ما يقرب من ستّ عشرة صفحة . وقد شاهدت أخيراً خلال الأيّام المعدودة الماضية مقالةً في جريدة «اطلاعات» تحت عنوان «وصايا أمير المؤمنين» ضمّت ترجمة لهذه الوصيّة ، وقد طبعت المقالة في

عدّة أعداد من الجريدة . ومع أنّ المترجم لم يصرّح باسمه ، إلّا أنّه - أيّاً كان - قد قام بسرقة ماهرة عندما حرّف في الوصيّة وأسقط منها نكاتها دقيقة . فقد ترجم جملة **وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّهَا رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ** . على نحوٍ آخر .

يقول الإمام في هذه الجملة : أي بُني حسن ! لا تُحمّل المرأة فوق طاقتها ، لأنّ كيّان المرأة مقرون باللطافة . وكما أنّ بدنّها - بالنسبة إلى بدن الرجل - ألطف ، فإنّ غرائزها وأحاسيسها ذات لطافة ورقة خاصّتين . فلا تحمّلها فوق هذا المقدار لأنّها ليست قهرمانة ولا محوراً للنزاع والخصام والمجادلات العنيفة .

إنّ الإنسان يمكنه أن يتعامل بيده مع الأشواك البريّة القاسية أو مع الأخشاب الصلبة ، فيصنع منها أشياء ، لكنّه ما إن يكتطف الورد الجوري وورود الياس وورود مريم^١ ، ويلمسها بيده حتّى تذبل وتفقد نضارتها . وما ألطف تشبيه أمير المؤمنين عليه السلام للمرأة بالوردة والريحانة ! وما أبلغ منطقته وأدقّه حين يقول بأنّ المرأة لو حُمّلت فوق طاقتها ، أدّى ذلك إلى فسادها وضياعها .

فإنّ أنتَ أشركتَ المرأة في الأمور الاجتماعيّة ، ولو أقحمتها في ميدان السياسة وشاورتها في الأمور السياسيّة ، وجعلتها قاضيةً وحاكمة تتصدى للقضاء والحكومة ، ولو أجبرتها على الجهاد ، لأضعت بذلك وجودها . فالمرأة لم تُخلق لمثل هذه الأعمال الشاقة ، وكيّان المرأة قائم على نحوٍ متفاوت آخر^٢ .

١- نوع من الورد الأبيض . (م)

٢- ألفنا رسالة استدلاليّة بالعربيّة في حقوق المرأة وتفسير آية : «الرِّجَالُ قَوَّاهُونَ»

وقد جاء في الرواية : وَلَا أَنْ تُسْتَشَارَ ؛ أَي أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُسْتَشَارُ فِي الْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ .

إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمُهُنَّ إِلَى وَهْنٍ .
على الإنسان أن يكون مصارعاً حتى يصارع بطلاً في ميدان المصارعة ، فإن كان غير رياضي لُقِّيلَ وتحطَّم . بَيَدَ أَنَّ الْعَالَمَ الْمَعَاصِرَ لَا يَفْهَمُ مَاذَا يَفْعَلُ وَلَا يَدْرِكُ أَيَّ مَصِيبَةٍ يَصِيبُهَا عَلَى رُؤُوسِ النِّسَاءِ وَأَيَّ صَوَاقِقَ مُحْرِقَةٍ يَمْطُرُهَا عَلَيْهِنَّ فَتَهْدُ بِيُوتَهُنَّ تَحْتَ عَنَاوِينَ حَقُوقِ النِّسَاءِ الْبَرَّاقَةِ الْمُسْتَلْفَتَةِ لِلْأَنْظَارِ .

إِنَّ الْعَالَمَ الْحَالِيَّ مَنْغَمَرُ فِي الْجَهْلِ وَغَارِقُ فِي الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ ، فَهَنَّاكَ مِنْ يَنْهَضُ بِاسْمِ حَقُوقِ الْمَرْأَةِ ، لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئاً غَيْرَ إِهْدَارِ حَقُوقِهَا الْبَدِيعِيَّةِ وَجَعْلِ أَزْهَارِ وَجُودِهَا تَتَنَاقَرُ فِي الْهَوَاءِ ، وَالسَّعْيُ إِلَى تَقْلِيلِ أَعْمَارِهَا مِنْ التَّسْعِينَ وَالثَّمَانِينَ وَالْمِائَةِ سَنَةٍ الَّتِي كُنَّ يَقْضِيْنَهَا فِي عِزَّةٍ وَسَعَادَةٍ إِلَى الثَّلَاثِينَ سَنَةً وَالْعِشْرِينَ سَنَةً ، فَصَرْنَا نَرَى كَيْفَ غَدَا يَلْهَوْنَ بِالْمَرْأَةِ فِي عَالَمِنَا ، وَكَيْفَ أَضْحَتْ الْمَرْأَةُ أَلْعُوبَةَ فِي يَدِ الرِّجَالِ وَآلَةً مُسَخَّرَةً لِأَهْوَائِهِمْ . أَمَّا الْإِسْلَامُ فَيَسْتَنْكَرُ هَذَا وَيَقُولُ بِأَنَّ النَّازِلَ إِلَى الْمَرْأَةِ نَظَرَةَ خِيَانَةٍ يُعَدُّ مُجْرَماً ، وَبِأَنَّ الْمَرْأَةَ حَقّاً ضَمْنَ حُدُودِهَا ، وَلِلرَّجُلِ حَقٌّ ضَمْنَ حُدُودِهِ .

ثُمَّ يَأْتِي هَذَا السَّيِّدُ فَيَتَرْجِمُ كَلَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَرِيدَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى قَوْلِهِ : وَاكْفُفْ عَنْهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ

عَلَى النِّسَاءِ» وَفِي عَدَمِ مِشَارَكَةِ الْمَرْأَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْحُكُومَةِ وَالْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَسَمَّيْنَاهَا «رِسَالَةً بَدِيعَةً» تُرْجِمَتْ فِيمَا بَعْدَ إِلَى الْفَارْسِيَّةِ ، وَوُضِعَتْ فِي مِثْنَاوِلِ الْإِخْوَةِ النَّاطِقِينَ بِالْفَارْسِيَّةِ .

فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، فَيُسْقَطُ هَذِهِ الْفَقْرَةُ مِنَ التَّرْجُمَةِ .
وليس ذلك إلا سرقة .^١

فيا أيها السيّد ! عليك أن تترجم النصّ ولن يؤاخذك أحد أو يعترض عليك في ترجمتك هذه العبارة التي لا تعتقد بها أنت المسابير للعصر ، صاحب ربطة العنق !

عليك أن تترجم النصّ وتنسب الكلام إلى المولى ، فليس الكلام كلامك . نعم ، فإنّ هؤلاء السادة مستعدّون للسرقة من الكلام ، لكنهم غير مستعدّين للقيام بالترجمة الصحيحة الدقيقة .

يقول القرآن : إِنَّ الْحِجَابَ وَاجِبٌ عَلَى الْمَرْأَةِ ، ويقول : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ .

فَلِمَ نحاول استباق القرآن ؟ ولماذا نصبح أكثر حماساً ممّن هو أولى منا بذلك ؟ وَلِمَ نخالف القرآن صراحة باسم الإسلام ؟^٢

إنّ القرآن - على آية حال - مهجور ومظلوم ، شأنه في ذلك شأن نبيّنا الذي عاش مظلوماً مهجوراً أُضِيعَ حقّه .

وقد وردت في «وسائل الشيعة» رواية عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله :

قَالَ : يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ يَشْكُونَ : الْمُصْحَفُ وَالْمَسْجِدُ وَالْعِتْرَةُ ؛ يَقُولُ الْمُصْحَفُ : يَا رَبِّ ! حَرَّقُونِي وَمَزَّقُونِي ؛ وَيَقُولُ الْمَسْجِدُ :

١- جريدة «اطلاعات» العدد ١٥٩٢٣ ، صفحة ٩ ، الثلاثاء ١٣ رمضان المبارك ، لسنة

١٣٩٩ هـ ، ق ، تحت عنوان : وصيّة مولى المتّقين للإمام الحسن عليه السلام .

٢- كتبنا في سابق الأيّام رسالة في إحكام ومثانة مباني القرآن ومنطلقاته سمّيناها «رساله قرآن» (= رسالة القرآن) ، جرى فيها بيان مثانة قوانين القرآن ، وقد طبعت هذه الرسالة حالياً في أربعة أجزاء باسم «نور ملكوت القرآن» .

يَا رَبِّ! عَطِّلُونِي وَضَيِّعُونِي ؛ وَتَقُولُ الْعِثْرَةُ : يَا رَبِّ! قَتَلُونَا وَطَرَدُونَا
وَشَرَّدُونَا؛ فَأَجِثُوا لِلرُّكْبَتَيْنِ فِي الْخُصُومَةِ ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِي: أَنَا
أُولَى بِذَلِكَ مِنْكَ.^١

وقد روى هذه الرواية الشيخ الحرّ العامليّ في «الوسائل» عن محمّد
ابن عليّ بن بابويه القميّ (الشيخ الصدوق) الذي رواها بدوره في «الخصال»
بسندّه عن محمّد بن عمر الحافظ البغداديّ المعروف بالجعاقيّ، عن
عبد الله بن بشير، عن الحسن بن زبرقان المراديّ، عن أبي بكر بن عيّاش،
عن الأجلح، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله .

كما روى في «الوسائل» عن المرحوم الشيخ الطوسيّ في «المجالس»
بسندّه عن زريق :

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : شَكَتِ الْمَسَاجِدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَهَا مِنْ جِيرَانِهَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا قَبْلَتُ لَهُمْ
صَلَاةٌ وَلَا أَظْهَرُ لَهُمْ فِي النَّاسِ عَدَالَةٌ وَلَا نَالَتْهُمْ رَحْمَتِي وَلَا جَاوَزُونِي فِي
جَنَّتِي.^٢

وسيّأتي الكلام بالتفصيل في المجلس القادم إن شاء الله تعالى عن
معنى مجيء القرآن في صورة رجل مؤمن ، وسيره أمام شهداء البرّ والبحر
والأنبياء والملائكة . كما سنشرح تلك الرواية الشريفة ونذكر تفسيرها .

إنّ القرآن هو كتاب الهداية الأوحّد ، وقد ورد في الرواية التهديد
والوعيد لمن هجروا القرآن واتّجهوا صوب العلوم الأخرى . إذ لو انطوى
الإنسان على جميع علوم العالم ، ومن ضمنها العلوم الإسلامية كالفقه

١- «الخصال للصدوق» ص ١٧٤ و ١٧٥ ، الطبعة الحروفية .

٢- «وسائل الشيعة» ج ١ ، ص ٣٠٣ .

والأصول والمنطق والفلسفة ، إلا أنه ترك القرآن ، فإنه سيكون خالي الوفاض . أما لو أخذ القرآن فإنه سيمتلك كل شيء ، إذ هو كلام الله ، ومن يتمسك بالله يمتلك كل شيء ، أما من يُعرض عنه عز وجل فليس لديه من شيء .

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ
دُونَكَ بَدَلًا ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوَّلًا .
كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ ؟ وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ
غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِيمَانِ ؟^١

١- من الفقرات الأخيرة لدعاء عرفة لسيد الشهداء عليه السلام حسب رواية ابن طاووس في «الإقبال» .

الْجُلُوسُ الْحَسَنُ

مَعْنَى شَهَادَةِ الْقُرْآنِ وَالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ
بِالْعِبَادِ ١

دار البحث مفصلاً في المجالس السابقة في أنّ الإنسان سيجد جميع
الأعمال التي قدّمها في الدنيا حاضرة أمامه يوم القيامة ، وأنّ تلك الأعمال
ستشهد عليه ، كما سيشهد عليه القرآن بدوره . وذكرنا رواية مفصلة عن
كتاب «الكافي» بسند الكليني المتصل عن سعد الخفاف ، عن الإمام محمد
الباقر عليه السلام في شهادة القرآن وكلامه في المحشر وعبوره أمام
صفوف المسلمين وشهداء البر والبحر والأنبياء والملائكة ، فتراه كلّ
جماعة من هذه الجماعات بأجمل صورة وأبهاها ، فيقولون : إنّ هذا الرجل
نعرفه بنعته وصفته غير أنّه كان أشدّ اجتهاداً منا وأرفع منزلة ، فمن هناك

١- الآية ٣٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

أُعطي من البهاء والجمال والنور ما لم نُعطَ . ثم إنه يختر تحت عرش الله عز وجل ، فينادى : سَلْ تُعْطَ ، واشفع تُشَفَّعَ فيرفع القرآن رأسه في صورة رجل شاحب متغير اللون ويقف أمام الشيعة ، ثم إنه ينطلق إلى الله عز وجل ويسأله أموراً كثيرة ، فيمنّ سبحانه على العاملين بالقرآن بخمس مواهب خاصة .

ثم يتساءل سعد في آخر الرواية : وهل يتكلم القرآن ؟ فيجيبه الإمام الباقر عليه السلام : نعم يا سعد ، والصلاة تتكلم ... إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر . فالنهي كلام ، والفحشاء والمنكر رجال ، ونحن ذكر الله ونحن أكبر^١ .

ثم يقوم المرحوم المجلسي رضوان الله عليه بعد ذكر هذه الرواية ببيان بحث مفصل في معنى هذا الحديث ويذكر كلاماً في تجسد القرآن وكلامه ، وفي كيفية حضور القرآن وشهادته وكلامه يوم القيامة فيقول : هذا يحتمل وجوهاً .

الأول : أن القرآن يلقي معانيه وحقيقته إلى الإنسان على نحو يفهم منه الإنسان تلك المعاني ، ولا يُشترط في الكلام أن يصدر من لسان لحمي ، فأبى موجود يمكنه أن يلقي إلى الإنسان ما يرمي إليه، سيُقال عنه إنه تكلم . والأمر على هذه الشاكلة بالنسبة إلى القرآن الكريم والصلاة والزكاة والصوم والحجّ وسائر الأعمال التي تتكلم مع الإنسان ، حيث إنها تقوم بإلقاء معانيها وحقائقها إلى الإنسان ، فيفهم الإنسان تلك الحقائق ، وهذا هو المقصود بتكلم القرآن .

الثاني : أن القرآن يظهر يوم القيامة في صورته المثالية ، وتلك

١- أوردنا ما جاء في الرواية مختصراً ، لذا اقتضى التنويه . (م)

الصورة هي مثال حقيقة القرآن . ثم إنّ تلك الصورة المثالية تتكلّم مع الإنسان . فالتكلّم - إذاً - هو الصورة المثالية المتجسّدة للقرآن في ذلك العالم . كما أنّ الإنسان لو شاء في هذه الدنيا أن يستفيد من القرآن ويكتسب من معانيه وحقائقه ، فإنّ الله عزّ وجلّ يمكن أن يخلق من الروحانيين والملائكة من حملة القرآن من يقوم بتعليم القرآن لذلك الإنسان .

فتكلّم القرآن مع الإنسان في هذه الدنيا يحصل من خلال الملائكة أو الروحانيين ، أمّا يوم القيامة فإنّ تجسّد الصورة الواقعية للقرآن يتناسب مع ذلك العالم ، كما أنّ تكلّمه - بدوره - يتناسب مع ذلك العالم .

الثالث : ما أفيض عليّ ببركة الأئمة الطاهرين وبه ينحلّ كثير من غوامض أخبار المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين . ونذكر لتوضيح ذلك مقدّمتين نستنتج منهما كيفية تكلّم القرآن مع الإنسان .

المقدّمة الأولى : إنّ الإنسان كما له بدن ماديّ وجسد يتحرّك بواسطته ، وقلب يجري الدم بواسطته في جميع أعضاء الإنسان وشرائينه ، فيرى بذلك البدن ويسمع ويحرّك يده ، وتشتغل بواسطته أعضاء الإنسان وجوارحه وتقوم بوظائفها الطبيعية ؛ فإنّ للإنسان - كذلك - معنى وخاصيّة إن كانت حيّة جعلت إدراكه ومعارفه حيّة . أمّا لو لم تكن تلك الخاصيّة حيّة ، لصار الإنسان جماداً . وتلك الخاصيّة هي روح الإنسان التي إن قوّيت بالأغذية المعنويّة من العلم والمعرفة والعبادة والتوجّه والتدبّر والتفكير ، حاز الإنسان درجة اليقين ومرتبة الإيمان وانكشفت له الحقائق ، واطّلع على أسرار العالم ، وصارت يده يد الله ، وسمعه سمع الله ، وعينه عين الله عزّ وجلّ .

وفي الرواية : اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ .
إنَّ المؤمن يرى بنور الله ، ويسمع بنور الله ، ويتاجر بيد الله ، لأنَّه أعطى كلَّ ما لديه في سبيل الله تعالى وخرج من حدود الجهات وتخطَّى عالم الشهوة ، فصار يعلم ويرى بعلم الله سبحانه . وهذه الحال هي التجرّد الذي يحصل للإنسان بواسطة التأمل والتفكير والعبادة .
وإذاً ، فكما أنَّ الإنسان بدأ مادّياً وقلباً صنوبرياً مادّياً ، بحيث إذا توقف قلبه عن العمل ، مات بدنه وتعقّن ؛ فإنَّ له - من الجهة الأخرى - قلباً معنوياً وعلماً مخزوناً إذا نوره الله بنوره ، انبعثت الحياة في روحه ، وإن لم ينوره ، صار ميتاً مهما كان بدن الإنسان حياً يقوم بحركاته ونشاطاته الطبيعيّة .

لذا جاء في الآية القرآنيّة الكريمة : أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ^١ .
إنَّ فاقدي الإيمان والذين لا يمتلكون معرفة بالإيمان والتوحيد هم أَمْوَاتٌ غير أحياء .

كما جاء : صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^٢ .
أي أنَّ النطفة الإنسانيّة والخلافة الإلهيّة التي هي مركز الإدراكات فيهم قد استترت لديهم أوماتت تحت حجاب الرين ودنس الذنوب والشهوة والصفات البهيميّة والشيطانيّة ، فصاروا لا يسمعون الحقائق مع أنَّ لهم أذاناً ، ولا يرون الحقائق مع أنَّ لهم أعيناً ، ولا ينطقون بالحقائق مع امتلاكهم ألسنة .

١- الآية ٢١ ، من السورة ١٦ : النحل ، والآية على النحو التالي : «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» .

٢- الآية ١٧١ ، من السورة ٢ : البقرة .

المقدمة الثانية : إنّ القرآن ليس تلك النقوش التي يدونها الإنسان على الصفحات ، ثمّ يحفظ تلك الصفحات بين الدفتين ، فذلك هو القرآن المكتوب . إذ إنّ حقيقة القرآن هي معناه ؛ ومعنى القرآن أمر رفيع متعال ومن هنا فإنّ الذين يتعاملون مع القرآن باستمرار ، سيستفيدون من حقيقته ومعناه كما سيستفيدون من ظاهره .

وقد جاء في القرآن الكريم : **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ^١**

وبناءً على هاتين المقدمتين ، فحين يحتلّ المؤمن مقام الإيمان فيحيي الإيمان ؛ وحين تصبح حقيقة المؤمن متمثلة في معنى القرآن وحقيقته ؛ وحين يصبح للمؤمن معرفة بالقرآن بحيث ترسخ حقيقة القرآن وتتجلّى في روح المؤمن ونفسه ، فإنّ ذات المؤمن ستصبح قرآناً ، ووجوده سيصبح قرآناً . وقد جاء في الروايات :

الْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَالْكَعْبَةِ .

لماذا ؟ لأنّ هذا القرآن هو ورق قد خُطّت عليه كلمات ، كما أنّ الكعبة هي عبارة عن لبنٍ قد بُني بالطين . فإن تجلّت حقيقة القرآن في روح المؤمن فإنّ وجوده سيحيي بحياة القرآن ويصبح قرآناً حقيقياً . ولو وصل المؤمن إلى درجة معرفة الله سبحانه ، لصار وجوده مطافاً ، أي صار كعبة . وبطبيعة الحال فإنّ حقيقة الكعبة أشرف من هذه الكعبة ؛ كما أنّ حقيقة القرآن أشرف من هذا القرآن .

فإن انطوى مؤمن على القرآن بحيث تجلّت جميع جوانب القرآن في ظاهر المؤمن وباطنه ومعانيه وأخلاقه وعقائده وملكاته ومعارفه

١- الآية ٤٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

وتوحيده صار وجوده حقيقة القرآن .

ولقد كان الوجود المقدس لأمر المؤمنين عليه السلام هو القرآن .
وهو القائل : **أَنَا كَلَامُ اللَّهِ النَّاطِقِ** .

أي ليس هناك للقرآن من مرتبة في أيّ عالم من العوالم إلا وتجلّت تلك الحقيقة في هذا الوجود ، فحاز الإمام على جميع مقامات القرآن ودرجاته وهذا هو القرآن الحقيقي وحقيقة القرآن .

ثم إنّ القرآن الذي سيتحرّك يوم القيامة هو أمير المؤمنين عليه السلام ذوالحياة القرآنية والوجود القرآني ، فيتخطى يومذاك صفوف المسلمين والملائكة والشهداء والأنبياء فيقولون بأجمعهم : إنّ هذا الرجل نعرفه بنعته وصفته ، إلا أنّ له بهاءً ونوراً لا نمتلكهما . ومن المسلم أنّه كان أكثر منّا اجتهاداً وسعيّاً في الدنيا من أجل إقرار حقيقة القرآن في وجوده . والأمر كذلك بلا ريب . لأنّ كلّ امرئ من المؤمنين والشهداء كان يريد إيصال نفسه إلى حقيقة القرآن . فنحن المسلمون - مثلاً - نسعى بكلّ جهدنا في الاقتراب من حقيقة القرآن . وكلّما اقتربنا منه أكثر سعينا إلى زيادة اقترابنا منه والرغبة تعتمل في نفوسنا لإيصال أنفسنا إلى مقام القرآن الكامل . أمّا ونحن لم نبلغ بأنفسنا إلى ذلك المدى بعد ، فإنّ حالة ترقّب وانتظار وضعف ستوجد فينا ، حتّى إذا ما التقينا بذلك الوجود الحقيقي الذي بيّنه القرآن وأوجده بتمام معناه في كيانه ووجوده ، فإننا سنقول من جهة : إنّنا نعرف هذا . كنا سنقول - من جهة أخرى - إنّ هذا أفضل منّا حسناً وجمالاً ، وأكثر منّا بهاءً ونوراً ، لأنّ اجتهاده في سبيل الله كان أكثر من اجتهادنا . وهذا الكلام صحيح ، وهذه المحاروات ستتحقق ، وهي بأجمعها ظهور وتجلّ للحقيقة التي يمتلكها القرآن .

وقد جاء في الرواية أنّ الصلاة تتحرّك . فما هي - يا ترى - الصلاة

التي يعرج فيها المصلّي، والتي لا يلتفت فيها البدن والروح والفكر إلى غير الله تعالى. وكما يقف البدن الطبيعيّ متّجهاً إلى الكعبة، فإنّ الروح تتّجه بدورها إلى كعبة الحبّ وتقيم صلاتها في الحرم الإلهي. ومثل هذه الصلاة لو تجسّدت في الخارج واتّخذت لنفسها هيئة وصورة ما، لتمثّلت في أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين، لأنّه هو الصلاة، ولأنّ صلاته قد اتّخذت هذه الكيفيّة، أي أنّ حقيقة الصلاة قد تجسّدت في وجوده.

لذا ورد في الروايات وفي كثير من التفاسير قولهم عليهم السلام: نَحْنُ الصَّلَاةُ، في إشارة إلى هذا المعنى، حيث إنّ لهذه الحقائق وجوداً في عوالم معيّنة. كما أنّ وجودها هو في الإنسان الكامل، لأنّ الإنسان الكامل أفضل من الملائكة، ولأنّه ليس هناك - غير ذات الخالق سبحانه - أشرف من روح الإنسان.

ومن هنا فإنّ الذين يبلغون بأنفسهم إلى الكمال سوف لن تبقى لديهم حالة انتظار وترقب وضعف. أي أولئك الذين يوصلون جميع قواهم وقابليّاتهم إلى مرحلة الفعلية ويصبحون فعلية محضة بحيث تختمر في وجودهم حقيقة الإيمان وحقيقة القرآن وحقيقة الزكاة وسائر الأعمال والصفات الحميدة، وبحيث ينصهرون معها في بوتقة واحدة.^١

ويذكر المرحوم المجلسي رواية في هذا الشأن لسعد الخفاف جاء فيها أنّ حقيقة أمير المؤمنين تتحرّك يوم القيامة فيرى المرء أنّ حقيقة الصلاة قد جاءت. ويرى أنّها هي - حقاً - حقيقة الصلاة، وحقيقة الزكاة،

١- جرى نقل مطالب المجلسي بالمعنى، حيث قمنا ببيانها وإيضاحها. وأصل مطالب المجلسي موجودة في «بحار الأنوار» ج ٧، ص ٣٢١ إلى ٣٢٤ من الطبعة الحروفية.

وحقيقة الصوم ، وحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
ولقد كان كل أمر بالمعروف في هذه الدنيا ينطوي على نوع من
الشبهة ويتلون بلون معين . ومن بين ألف أمر بالمعروف ، فإن درجة
المعروف الذي يكون خالصاً لله وفي الله ومن الله وإلى الله مائة في المائة
بحيث لا تخالطه شائبة للنفس ، وبحيث تكون في روح الإنسان ملكة الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، ستكون درجة تمثّل مقام الإمام ، ذلك
المقام الذي لا يمكن تصوّر مقام أعلى منه . وينكشف بهذا الطريق كثير
من الغموض في بعض الأخبار . وحقاً فإنّ بيان جدنا المرحوم العلامة
المجلسي في هذا المجال بيان مقبول وجدير بالتقدير .

وكما أنّ الأئمة عليهم السلام هم الزكاة ، وهم الصلاة والحج والصوم
والجهاد والقرآن ، فإنّ معنى الروايات الدالة على أنّ أعداءنا هم الفحشاء
والمنكر والفساد والظلمات سيّضح بهذا القياس والمقارنة التكوينية مع
هذه الآيات القرآنية المباركة . لأنّ الفحشاء تمثّل - في نهاية الأمر - حقيقة
قد انتشرت بين الناس بحيث صار بعض الأفراد مركزاً للفحشاء ، قد سرت
منهم الفحشاء إلى الخارج . لذا فإنّهم يُدعون بتعبير القرآن حطب جهنّم ،
فهي تستمدّ ظهورها من وجودهم ، فهم مركز الفحشاء ومصدر المنكر
والظلمة والفناء وسيّضح في المجالس القادمة التي سنبحث فيها بمشيئة
الحق المتعال عن موضوع الصراط والميزان وعن درجات القيامة ، وكيف
أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو الميزان والصراط .

السَّلامُ عَلَى مِيزَانِ الْأَعْمَالِ وَمُقَلَّبِ الْأَحْوَالِ ... السَّلامُ عَلَى الصُّرَاطِ
الْوَاضِحِ وَالنَّجْمِ اللَّائِحِ^١

١- من فقرات السلام على أمير المؤمنين عليه السلام الذي يتلى في زيارته جهة ٥

هو الإمام ونحن المأمومون . والإمام يعني الشخص الذي ينبغي أن يكون قدوةً ومثلاً وأُسوةً في جميع الجوانب ليتمكن الإنسان الاقتداء به ، وإلا لما كان إماماً مطلقاً ، إذ ليس الإمام إماماً من جهة دون أخرى .

الإمام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الإمام هو التوحيد ، وهو القرآن أي أنه هو الإمام في جميع هذه الجوانب . وتبعاً لهذا الأساس فقد صار أمير المؤمنين أميراً للمؤمنين ، فهو لقب منحه الله تعالى إياه .

أمير المؤمنين يعني قدوة المؤمنين وآمرهم وقائدهم ، وليس أميراً للكافرين ، ولا أميراً لعبيد الدنيا ، ولا أميراً للتجار ، ولا للزرّاع ؛ بل هو أمير المؤمنين . ويعني ذلك أنّ الإمام هو أمير كلّ مؤمن يوجد في كلّ زمان وفي أيّ نقطة من نقاط العالم بلحاظ الإيمان والآثار ولوازم الإيمان وخصائصه . فهو الإمام والأمر مطلقاً ، وليس في وجوده - بأيّ وجه من الوجوه - غير تلك الحقيقة الطاهرة ، كما ليس لديه أيّة شبهة أو شك في جميع ملكاته وعقائده وأخلاقه وأعماله . وليس لديه أيّ نقص . ولم يتخذ صبغة غير الصبغة الإلهية . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً^١ .

وقد نزلت في حقّه آية التطهير ، لأنّه الموجود الطاهر المطهّر الذي يصحّ لمثله أن يكون إماماً وأميراً .

روى العامة والخاصة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً فِيهَا «يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا» إِلَّا وَعَلِيٌّ رَأْسُهَا وَأَمِيرُهَا^٢ .

☞ أقدامه الشريفة وأولها «السلام على أبي الأئمة وخليل النبوة» وهي أوّل زيارة من زيارته المطلقة .

١- الآية ١٣٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- «مطالب السؤل» ص ٢١ ، الطبعة الحجرية ، عن «حلية الأولياء» ؛ و «حلية

الأولياء» ج ١ ، ص ٦٤ ؛ وقال في «ينابيع المودة» ص ٢١٢ : وعن ابن عباس : ليس من آية ☞

وعلى هذا الأساس يتّضح معنى كثير من الأخبار التي ورد فيها عن الأئمة الأطهار عليهم السلام بأنهم قالوا عن كذا وكذا، ونحن الشفعاء، وباب النجاة، وباب حطة بني إسرائيل، والحبل المتصل بين الأرض والسماء وغير ذلك.

وبطبيعة الحال فإننا ندرك - على النحو الذي ذكرناه هنا - قدرها منها في هذا العالم، أما في العالم الآخر فإن الإنسان سيشاهد هذه المعاني على نحو كامل وسيلمسها على حقيقتها، حيث ستكتسب وجوداً خارجياً. أي أن الإنسان سيرى أيّ عوالم للقرآن قد طبقت شرق العالم وغربه، وتلك هي حقيقة أمير المؤمنين التي لا تُحدّ بحدّ معين وبدن خاص.

وباعتبار أن القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله مجرد لا حد له؛ فإن الإنسان سيرى أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك العالم بلا حد ولا قياس.

ولقد أجاد المرحوم آية الله الحاج الميرزا حبيب الله الخراساني في بيان هذا الأمر في عدّة أبيات له:

مرا پیر طریقت جز علی نیست

که هستی را حقیقت جز علی نیست

مبین غیر از علی پیدا و پنهان

که در غیب و شهادت جز علی نیست^١

في القرآن «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا» إلّا عليّ رأسها وأميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن، وما ذكر عليّاً إلّا بخير.

١- «ديوان حبيب» المدائح، ص ٢٠٠ و ٢٠١.

يقول: «ليس لي مرشد في الطريقة والنهج إلّا عليّ، إذ ليس للوجود من حقيقة إلّا عليّ» فلا ترين - غير عليّ - في الخفاء والعلن، إذ ليس في الشهادة والغيب إلّا عليّ.

مجو غير از عليّ در كعبه و دير
 كه هفتاد و دو ملت جز عليّ نيست
 جه باك از آتش دوزخ كه در حشر
 قسيم نار و جنت جز عليّ نيست
 اگر كفر است اگر ايمان بگو فاش
 كه در روز قيامت جز عليّ نيست
 اساس هر دو عالم بر محبت
 بود قائم محبت جز عليّ نيست
 در آن حضرت كه دم از «لي مع الله»
 زند احمد معيت جز عليّ نيست
 شنيدم عاشقي مستانه مي گفت
 خدا را حول و قوت جز عليّ نيست
 وجود جمله اشياء از مشيت
 پديد آمد مشيت جز عليّ نيست^١

١- يقول :

«ولا تطلبين - غير عليّ - في الكعبة والدير ، إذ ليست الأمم الاثنان والسبعون إلا هو .
 وما الخوف من نار جهنم إذا لم يكن قسيم الجنة والنار يوم الحشر إلا هو - عليّ عليه
 السلام - .»

فصرّخ - إن كان كفراً أو إيماناً - بأن ليس ثمة في القيامة إلا هو .
 أساس العالمين قائم على الحب ، لكنّ مؤسس الحب ليس إلا هو .
 وحين تحدّث النبيّ أحمد صلى الله عليه وآله وسلّم عن «لي مع الله ...» ، فإنّ المعية
 لم تكن غير عليّ .

سمعت عاشقاً ثملاً يقول : ليس لله - غير عليّ - من حول ولا قوة .
 إنّ وجود الأشياء قاطبة من المشيئة ؛ والمشيئة لم توجد إلا بعليّ .

شهناهی که بر درگه ملائک
 ز نندش پنج نوبت جز علی نیست
 علی آدم علی شیث علی نوح
 که در دور نبوت جز علی نیست
 ترا پیر طریقت گو عمر باش
 مرا پیر طریقت جز علی نیست
 اگر گوئی علی عین خدا نیست
 بگو نیز از خدا هرگز جدا نیست^۱
 وما أروع بيانه في الأبيات التي سبقت هذه لحقيقة ظهور العوا
 وبطونها ولحقيقة الولاية التي تمثل سرّ العالم:
 ز جم بر جام می خطی عیان است
 جهان مردم بود ، مردم جهان است
 بسجوی این راز جانی از دساتیر
 که این قول از حدیث باستان است^۲

۱- يقول: «والمَلِك الذي تفرع الملائكة بابه خمس مَرَات (في اليوم) ليس إلاّ عليّاً
 عليّ آدم ، وعليّ شيث ، وعليّ نوح ؛ إذ لم يكن - غير عليّ - أحد في أدوار النبوة .
 عليّ أحمد ، عليّ موسى وعيسى ، إذ لم يكن - إلاّ هو - أحد في أطوار الخلقة .
 فليكن عمر مرشدك في الطريقة والنهج ، أمّا أنا فمرشدي في الطريقة عليّ لا سواه .
 فإن قلت إنّ عليّاً ليس عين الله ، فقلّ - كذلك - إنّه لم ينفصل عن الله قطّ !» .
 ۲- «ديوان حبيب» المدائح ، ص ۱۹۹ و ۲۰۰ .

يقول : «هنالك من جمشيد خطّ ظاهر على كأس الخمر ؛ العالم هو الناس ، والناس
 العالم .

فاطلب سرّ روحنا هذا من «الدساتير»^۳ ، لأنّ هذا القول من أحاديث القدماء .
 * - «دساتير» كتاب ألفه رجل يدعى «آذر كيوان» في القرن العاشر الهجريّ ونسبه

بگیر از باستان این راست گفتار
 که گفت نغز گفت راستان است
 سخن های بزرگان از پی و پیش
 چو نیکو بنگری از یک زبان است
 در این ره از روان ها کاروان هاست
 که از دنبال یکدیگر روان است
 سخن ها نیز کز دل بر زبان هاست
 به معنی چون درای کاروان است
 دو گیتی در تن و جان تو مُضْمَر
 یکی پیدا و آن دیگر نهان است
 اگر پای تو در هفتم زمین است
 سرت بیرون ز هفتم آسمان است
 تسنن را دیبهای از چرخ اطلس
 که بر دوشش حمایل کهکشان است^۱

﴿إلى نبيٍّ مختلق يدعى «ساسان الخامس» في عصر كسرى أبريز .

۱- يقول : «وخذ من السلف هذه المقولة الصادقة ، بأنّ الحديث الحسن هو الحديث الصادق .

وإن تأملت جيّداً كلام الأعلام السابقين واللاحقين ، لوجدته قد نُطق بلسانٍ واحد .
 فالأرواح كالقوافل السائرة على هذا الطريق تتبع إحداها الأخرى وتقتفي أثرها .
 والأقوال النابعة من القلب والجارية على اللسان هي - بلحاظ ما - كأجراس القافلة .
 إنّ العالمين مُضمّران في روحك وبدنك ، أحدهما ظاهر جليّ والآخر مستور خفيّ .

وإذا كانت قدمك في الأرض السابعة ، فإنّ رأسك يرتفع فوق السماوات السبع .
 إنّ بدنك كقماش الديباج الأطلسيّ ، والمجرّات على كتفك كالحمايل والأوسمة .

فروزان این گهرها از برو دوش
 ز سر تیپی و سرهنگی نشان است
 نژادت از کیان آمد و لیکن
 دلت را رخ ندانم زی کیان است
 عیان گردد چو در آب افتد این مرغ
 که مرغابی بود یا ماکیان است
 نهان از چشم نادان راز گیتی
 و لیکن بر دل دانا عیان است
 جهان انسان، پیمبر عین انسان
 علی انسان عین این جهان است
 پیمبر شهر علم است و علی در
 خوش آن سر کو به دین در آستان است
 دری بگشوده بر دلهای روشن
 ولی جبریل بر در پاسبان است
 پیمبر سنگ حکمت را ترازوست
 علی نیز این ترازو را زبان است^۱

۱- يقول : «الجواهر تسطح لامة فوق كتفك ، كسطوع علامات النقيب والعقيد
 العسكري».

لقد انحدر أصلك من الطبيعة ، لكنني لا أعلم من أي أصل هو وجه قلبك .
 ولو سقط هذا الطائر في الماء ، لتجلى عياناً أمين البط هو أو من الدجاج .
 إن سر الوجود مستور عن عين الجاهل ، لكنه عيان ومشهود لقلب العالم .
 العالم هو الإنسان ، والنبی عين الإنسان ، وعليّ إنسان عين هذا العالم .
 النبی مدينة العلم وعليّ بابها ، فطوبى لذلك الرأس الذي ظلّ على اعتاب هذا ☞

على دان آن لسان الله ناطق

كزرو شد كشف اسرار و حقایق^١

كما أجاد مفخرة شعراء العرب في القرن السابق : الشيخ كاظم الأزري

حين أنشد :

يَا بْنَ عَمِّ النَّبِيِّ أَنْتَ يَدُ اللَّهِ الَّتِي عَمَّ كُلَّ شَيْءٍ نَدَاهَا
أَنْتَ قُرْآنُهُ الْقَدِيمُ وَأَوْصَا فَكَ آيَاتُهُ الَّتِي أَوْحَاهَا
حَسْبُكَ اللَّهُ فِي مَآثِرِ شَتَّى هِيَ مِثْلُ الْأَعْدَادِ لَا تَتَنَاهَى
حتى يصل إلى قوله :

يَا عَلِيُّ الْمِقْدَارُ حَسْبُكَ لَا

هُوِيَّتُهُ لَا يُحَاطُ فِي عُليَّهَا

أَيُّ قُدْسٍ إِلَيْهِ طَبَعُكَ يَنْمِي

وَالْمَرَاقِي الْمُقَدَّسَاتُ ارْتَقَاهَا

لَكَ نَفْسٌ مِنْ جَوْهَرِ اللَّطْفِ صِيغَتْ

جَعَلَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ فِدَاهَا

هِيَ قُطْبُ الْمَكُونَاتِ وَلَوْلَا

هَذَا لَمَا دَارَتْ الرُّحَى لَوْلَاهَا

لَكَ كَفٌّ مِنْ أَبْحَرِ اللَّهِ تَجْرِي

أَنْهَرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جَدِّوَاهَا

٥ الباب .

هو بابٌ مُشرع على القلوب المضاءة ، لكن جبرائيل يقف على الباب حارساً .

إنَّ النبي هو الميزان لأحجار الحكمة ، أمَّا عليّ فلسان ذلك الميزان .

١- يقول : «فاعلم أنَّ علياً لسان الله الناطق الذي صار منه كشف الأسرار والحقائق» .

حُزَّتْ مُلْكًا مِنَ الْمَعَالِي مُحِيطًا بِأَقَالِيمٍ يَسْتَحِيلُ انْتِهَاهَا^١

والنتيجة الحاصلة ، فإنَّ القرآن سَيتَرَسَّخُ في أرواح المؤمنين والمسلمين بقدر عملهم به واقترابهم الحقيقي منه ، كما أنَّ وجودهم سيستفيد من القرآن بنفس تلك الدرجة . ومن جهة أخرى فإنَّهم سيبتعِدون عن حقيقة القرآن وسيصبحون موضع لعنة بقدر تعلُّمهم له لنيل النوايا الدنيويَّة وكسب الجاه والمقام والرياسة الباطلة والمراعاة والتقرُّب إلى الناس . فليس الدين الإسلامي المقدَّس دين السمعة والمراعاة وإصلاح الظواهر والخداع بالظواهر .

فإن شاء امرؤ - والحال هذه - أن يستغلَّ القرآن ، المعجزة الوحيدة

١- «ديوان الأزري» ص ١٥١ ، للشيخ كاظم الأزري التميمي البغدادي المتوفى في غرة جمادى الأولى لسنة ١٢١١ هجرية ، من مادحي أهل البيت عليهم السلام ، ويكفي في جلالة شعره وبلاغته قصيدته الهائية «لمن الشمس في قباب قباها» التي وضعته في مصاف الشعراء من الطراز الأول .

يُحكى أنَّ العلامة بحر العلوم كان يجلِّه ويعظِّمه لأنَّه كان يعقد مجالس مناظرة مع الخصوم .

ويُروى عن المرحوم آية الله السيّد حسن الصدر أنَّه قال : إنَّ القصيدة الهائية الأزرية كانت أكثر من ألف بيت ، وكانت مكتوبة في طومار ، فأكلت الأرضة بعضها ووصل باقي الطومار بيَد المرحوم آية الله السيّد صدر الدين العاملي فاستخرج منها هذا القدر من الأبيات التي قام الشيخ جابر الكاظمي بتخميسها فيما بعد .

وقال صاحب «المستدرک» في كتاب «شاخه طوبی» : كان العلامة المحقِّق الشيخ محمَّد حسن صاحب «الجواهر» يتمنَّى لو كانت القصيدة الهائية الأزرية مدونة في صحيفة أعماله ، وكان كتاب «الجواهر» - في المقابل - مدون في صحيفة أعمال الشيخ الأزري . («الكنى والألقاب» ج ٢ ، ص ١٩ ، طبعة صيدا - ملخصاً) .

الباقية لرسول الله ، وكتاب الهداية البشرية ، وأن يجعله وسيلة للوصول إلى الباطل ، فإن القرآن سيهجره وسيشهد عليه يوم القيامة .

يروى محمد بن يعقوب الكليني في «الكافي» بسنده المتصل عن يعقوب الأحمر ، قال :

قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : جُعِلَتْ فِدَاكَ إِنِّي كُنْتُ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَقُلْتُ مَنِي فَأَدْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْلَمَنِيهِ .
قَالَ : فَكَأَنَّهُ فَرَعَ لِدَلِّكَ ؛ فَقَالَ : عَلَّمَكَ اللَّهُ هُوَ وَإِنَّا جَمِيعًا .

قَالَ : وَنَحْنُ نَحْوُ مِنْ عَشْرَةٍ - ثُمَّ قَالَ : السُّورَةُ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ قَدْ قَرَأَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا ، فَتَأْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَتُسَلَّمُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا سُورَةٌ كَذَا وَكَذَا فَلَوْ أَنَّكَ تَمَسَّكَتَ بِي وَأَخَذْتَ بِي لَأَنْزَلْتُكَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ . ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ وَقَالَ :

عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَتَعَلَّمُوهُ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ لِيَقَالَ : فُلَانٌ قَارِئٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَعَلَّمُهُ فَيَطْلُبُ بِهِ الصَّوْتَ فَيُقَالُ : فُلَانٌ حَسَنُ الصَّوْتِ ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَعَلَّمُهُ فَيَقُومُ بِهِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ لَا يَسْبَالِي مَنْ عِلِمَ ذَلِكَ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْهُ .^١

كما روى في «الكافي» بسنده عن الإمام محمد الباقر عليه السلام

قال :

قَرَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةً : رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاتَّخَذَهُ بِضَاعَةً وَاسْتَدْرَ بِهِ الْمُلُوكَ وَاسْتَطَالَ بِهِ عَلَى النَّاسِ . وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَحَفِظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ وَأَقَامَهُ إِقَامَةَ الْقِدْحِ ، فَلَا كَثْرَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ .

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠٨ و ٦٠٩ ؛ و «وسائل الشيعة» ج ١ ، ص ٣٦٩ ، طبعة

أمير بهادر .

وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَوَضَعَ دَوَاءَ الْقُرْآنِ عَلَى دَائِ قَلْبِهِ فَأَسْهَرَ بِهِ لَيْلَهُ
وَأَظْمَأَ بِهِ نَهَارَهُ وَقَامَ بِهِ فِي مَسَاجِدِهِ ، وَتَجَافَى بِهِ عَنْ فِرَاشِهِ ، فَبِأُولَئِكَ
يُدْفَعُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْبَلَاءَ ، وَبِأُولَئِكَ يُدِيلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَعْدَاءِ .
وَبِأُولَئِكَ يُنَزِّلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَهُوْلَاءِ فِي قُرَاءِ
الْقُرْآنِ أَعَزُّ مِنَ الْكِبَرِيَّتِ الْأَحْمَرِ .^١

وينبغي العلم أنه ما دام سرّ الإنسان لم يتطهر في مقابل القرآن ؛ أي
ما دام الإنسان لا يتعلّم القرآن للعمل ، وما دام لا يتعامل معه لتحقيق معانيه
في وجوده ، فإنّ الإنسان لن يستفيد من حقيقة القرآن شيئاً .
وما أكثر ما شوهه أفراد لهم اطلاع على القرآن والعلوم القرآنيّة ،
ولهم مطالعات ودراسات في التفسير والتفاسير ، لكنّ قلوبهم سوداء
مظلمة . والعلة في ذلك أنّهم جعلوا القرآن وسيلةً للدنيا وللجاه والمقام
والعزّة والمكاسب . وروح القرآن تتأذى وتعاني من أمثال هؤلاء الأفراد .
ويندر أن يوجد أمثال هذه النماذج من قراء القرآن في المنهج الشيعي ، لأنّ
تعاليم الشيعة تربي العلماء والقراء على أساس اتباع الحق وعدم التردّد على
أبواب الظلمة وحكّام الجور ، وعدم صرف العمر سعيّاً وراء الرياسات
الباطلة .

وحصل في زمن سابق عندما كنت قد تشرّفت خلاله بالذهاب إلى
النجف الأشرف لتحصيل العلوم الدينيّة أن دار الحديث عن الشيعة
ومنهجهم الفكريّ ، فقال أحد العلماء المراجع ، وكان حاضراً في المجلس :
«عُقد قبل عدّة سنوات مؤتمر للمذاهب الإسلاميّة في «الجامع الأزهر»
حضره علماء المذاهب الإسلاميّة من جميع الدول ، وقد شاركتُ في

١- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٢٧ ؛ و «وسائل الشيعة» ج ١ ، ص ٣٦٩ .

المؤتمر كمثل لعلماء النجف ، فألقيتُ كلمةً تطرقت فيها إلى تعريف مذهب الشيعة نقلتُ فيها الرواية التالية عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام وشرحتها . فنالت الكلمة إعجاب الحاضرين وحظيت بشنائهم ، للدقة البالغة في مدرسة الشيعة التي تبذل كل هذه الجهود في تربية أتباعها ، وللتحقيق والتمعن العميق المبذول من قِبَل أئمة الشيعة في تزكية هؤلاء الأتباع وتطهيرهم . الرواية كالتالي :

أورد الشيخ الطبرسي في «الاحتجاج» بسنده عن «التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام» عن الرضا عليه السلام ، أنه قال :
قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ حَسَنَ سَمْتَهُ وَهَدْيُهُ وَتَمَآوَتْ فِي مَنْطِقِهِ وَتَخَاضَعَ فِي حَرَكَاتِهِ فَرُودًا لَا يَغُرُّنَّكُمْ .
فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يُعْجِزُهُ تَنَاوُلُ الدُّنْيَا وَرُكُوبُ الْحَرَامِ مِنْهَا لِيُضْعِفَ نَيْتَهُ وَمَهَانَتِهِ وَجُبْنَ قَلْبِهِ ، فَنَصَبَ الدِّينَ فَخًّا لَهَا فَهُوَ لَا يَزَالُ يَخْتُلُ النَّاسَ بِظَاهِرِهِ ، فَإِنْ تَمَكَّنَ مِنْ حَرَامٍ اقْتَحَمَهُ .

وَإِذَا وَجَدْتُمُوهُ يَعِفُّ عَنِ الْمَالِ الْحَرَامِ فَرُودًا لَا يَغُرُّنَّكُمْ ، فَإِنَّ شَهَوَاتِ الْخَلْقِ مُخْتَلِفَةٌ . فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَنْبُو عَنِ الْمَالِ الْحَرَامِ وَإِنْ كَثُرَ ، وَيَحْمِلُ نَفْسَهُ عَلَى شَوْهَاءَ قَبِيحَةٍ فَيَأْتِي مِنْهَا مُحَرَّمًا .
فَإِذَا وَجَدْتُمُوهُ يَعِفُّ عَنِ ذَلِكَ فَرُودًا لَا يَغُرُّنَّكُمْ حَتَّى تَنْظُرُوا مَا عَقْدَةُ قَلْبِهِ . فَمَا أَكْثَرَ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ أَجْمَعَ ، ثُمَّ لَا يَرْجِعُ إِلَى عَقْلِ مَتِينٍ ، فَيَكُونُ مَا يُفْسِدُهُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ بِعَقْلِهِ .

فَإِذَا وَجَدْتُمْ عَقْلَهُ مَتِينًا فَرُودًا لَا يَغُرُّنَّكُمْ حَتَّى تَنْظُرُوا أَمَعَ هَوَاهُ يَكُونُ عَلَى عَقْلِهِ ، أَمْ يَكُونُ مَعَ عَقْلِهِ عَلَى هَوَاهُ ، وَكَيْفَ مَحَبَّتُهُ لِلرِّيَاسَاتِ الْبَاطِلَةِ وَزُهُدِهِ فِيهَا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ بِتَرْكِ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا وَيَرَى أَنَّ لَذَّةَ الرِّيَاسَةِ الْبَاطِلَةِ أَفْضَلُ مِنْ لَذَّةِ الْأَمْوَالِ وَالنَّعْمِ الْمُبَاحَةِ

الْمُحَلَّلَةِ، فَيَتْرُكُ ذَلِكَ أَجْمَعَ طَلَبًا لِلرِّيَاسَةِ. حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ.

فَهُوَ يَخْبِطُ يَخْبِطُ عَشَوَاءَ يَقُودُهُ أَوَّلُ بَاطِلٍ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الْخَسَارَةِ، وَيَمُدُّهُ رَبُّهُ بَعْدَ طَلَبِهِ لِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي طُغْيَانِهِ. فَهُوَ يُحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَيُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَا يُبَالِي مَا فَاتَ مِنْ دِينِهِ إِذَا سَلِمَتْ لَهُ رِيَاسَتُهُ الَّتِي قَدْ شَقِيَ مِنْ أَجْلِهَا.

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا. وَلَكِنَّ الرَّجُلَ كُلَّ الرَّجُلِ نِعَمَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَوَاهُ تَبَعًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَقَوَاهُ مَبْذُولَةً فِي رِضَى اللَّهِ يَرَى الدُّلَّ مَعَ الْحَقِّ أَقْرَبَ إِلَى عِزِّ الْأَبَدِ مِنَ الْعِزِّ فِي الْبَاطِلِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ قَلِيلَ مَا يَحْتَمِلُهُ مِنْ ضَرَائِهَا يُؤَدِّيهِ إِلَى دَوَامِ النَّعِيمِ فِي دَارٍ لَا تَبِيدُ وَلَا تَنْفَدُ، وَأَنَّ كَثِيرَ مَا يَلْحَقُهُ مِنْ سَرَائِهَا إِنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يُؤَدِّيهِ إِلَى عَذَابٍ لَا انْقِطَاعَ لَهُ وَلَا يَزُولُ.

فَذَلِكُمْ الرَّجُلُ نِعَمَ الرَّجُلِ، فِيهِ فَتَمَسَّكُوا وَبِسُنتِهِ فَاقْتَدُوا، وَإِلَى رَبِّكُمْ فِيهِ فَتَوَسَّلُوا فَإِنَّهُ لَا تُرَدُّ لَهُ دَعْوَةٌ وَلَا يُخَيَّبُ لَهُ طَلِبَةٌ.^١

١- «الاحتجاج» للطبرسي، ج ٢، ص ٥٢ و ٥٣، طبعة النجف، عن «التفسير المنسوب للإمام العسكري»؛ و«بحار الأنوار» ج ٢، ص ٨٤ و ٨٥، الطبعة الحروفية، عن «التفسير المنسوب للإمام العسكري»، رقم ١٠؛ وفي ص ٨٥ من «الاحتجاج» بالإسناد إلى الإمام أبي محمد، رقم ١١.

فَهْرَسُ الثَّالِفَاتِ

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم
تقوم مؤسسة ترجمة ونشر
(دورة العلوم و المعارف الإسلامية)
من تأليفات
العلامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني

بنشر وترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة المعارف :

ثلاثة أجزاء	معرفة الله (١) (الله شناسی)
ثمانية عشر جزء	معرفة الإمام (٢) (امام شناسی)
عشرة أجزاء	معرفة المعاد (٣) (معاد شناسی)

دورة العلوم :

الأخلاق والحكمة والعرفان (٤)

١ - رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالة سير و سلوك منسوب به بحر العلوم)

فهرس التألیفات

- ۲- رساله لبّ اللباب في سير وسلوك أولي الألباب
(رساله لبّ اللباب در سير و سلوك أولی الألباب)
- ۳- التوحيد العلمي والعيني (توحيد علمي وعيني)
- ۴- الشمس الساطعة (مهر تابان)
- ۵- الروح المجرد (روح مجرد)

الأبحاث التفسيرية (۵)

- ۱- رساله بدیعه في تفسير آية «الزَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ»
- ۲- رساله جديدة في بناء الإسلام على الشهور القمرية (رساله نوین)

الأبحاث العلمية والفقهية (۶)

- ۱- رساله حول مسألة رؤية الهلال
- ۲- وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام
(وظيفة فرد مسلمان در احیای حکومت اسلام)
- ۳- ولاية الفقيه في حكومة الإسلام
(ولايت فقيه در حکومت اسلام)
- ۴- نور ملكوت القرآن (نور ملكوت قرآن)
أربعة أجزاء
- ۵- نظرة على مقالة بسط وقبض نظرية الشريعة للدكتور عبد الكريم سروش
(نگرشی بر مقاله بسط و قبض تئوریک شریعت دکتر عبدالکریم سروش)
- ۶- الرسالة النكاحية : تحديد النسل ضربة قاصمة لکیان المسلمين (وقد طبع
الكتاب في طبعته الأولى بهذا العنوان : «الحد من عدد السكان ضربة قاصمة لکیان المسلمين»)
- (رساله نکاحیه : کاهش جمعیت ، ضربه ای سهمگین بر پیکر مسلمان)
- ۷- رساله مسودة القانون الأساسي (نامه پیش نویس قانون اساسی)

فهرس التأليفات

الأبحاث التاريخية (٧)

١ - لَمَعَاتُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢ - الهدية الغديرية : رسالتان قاتمة ومشركة

(هدية غديرية : دو نامه سپاه و سپيد)

هذه هي مجموعة من الكتب التي ألفت من قِبل المؤلف قدس سره ، والتي بادرت « مؤسسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلامية » إلى ترجمتها وتقديمها تدريجياً إلى القراء المحترمين ، وهناك مجموعة أخرى للمؤلف لم تنشر بعد .

وللحصول على نظرة إجمالية لهذه المؤلفات ، يمكنكم الرجوع إلى نهاية الجزء الأول من هذا الكتاب .





